المنهل

AL MANHAL

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

العدد (٦٠٠) المجلد (٦٨) العام [٧٢] المحرم وصفر ١٤٢٧ هـ ـ فبراير ومارس ٢٠٠٦م

مسابقة المنهل الثقافية

قسيمة المسابقة داخل العدد

المتحف الوطني السعودي

المنهل (٧٢ عاما) حاضر يحفل بالريادة

- الغرب يقتل الناس اختناقا.
- المسرح العربي: بين الرسمي والشعبي.
- الريادة العلمية عند المسلمين.
- بين لاميتي: شوقي وطوقان
- الطيب والعطور في التراث الاسلامي.
- مكانة المرأة في القرآن الكريم.
- ماذا يريد الاسلام من المرأة.

ظاهرة الطلاق مؤشرات خطرة

بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة

عن دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

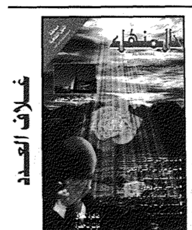
عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

ملكها ورأس تحريرها

المغفور له

نبيه عبدالقدوس الأنصاري

من العام ١٤٠٣ هـ/ حتى ١٤٢٤ هـ



المركز الرئيسي

جدة الشرفية ص ب ٢٩٢٥

رمز بريدي ٢١٤٦١

برقيا: المنهل

فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣

تليفون: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥

٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧

الرياض: ص ب ٢٩٠

تليفون: ٤٥٤٢٤٣٢

مما قل



لافتات عربية.. بحروف أعجمية

السائر في إحدى مدننا الكبرى يسعد كل السعادة بما وصلت اليه من تقدم في العمران والتنمية، ولكن عندما ينظر الواحد منا بعض واجهات المحال سرعان ما يختفي اعجابه، وتتلاشى مباهجه حينما يقع بصره مرة أخرى على لافتات اخرى كبيرة وبديعة الشكل هي الأخرى.. ولكن بعضها مكتوب بالحروف العَربية في كلمات وبحروف غير عربية، وبعضها مكتوب باللغة الأجنبية وكلماته وحروفه بها أيضا، عندئذ يشعر السائر بالضيق يكتنفه، من جوانبه، فيشعر عندئذ بفقدان جزء كبير من اعجابه اذ يصطدم بصره بهذا المشهد النشاز، وهنا يتساءل في نفسه - وله الحق في هذا التساؤل - لماذا هذا النشاز.

الضرورة تقتضيه؟ أم لمجرد تقليد الغرب في احتضان لغته وكتابته الأجنبيتين في هذه البلاد العربية الاسلامية الأصيلة؟ ان الغرب في دياره يستنكف عن أن يرسم لافتاته في دياره وفي شوارعه الكبرى بلغة غير لغته وبخط غير خطه.. يرى ذلك جحوداً لحضارته وحطما لتقاليده.. فلماذا نقبل منه مالا يقبله منا؟.

اننا ينبغي لنا أن لا نشرك مع لغتنا لغة أخرى في مظاهر تطورنا الجمالية كمسألة لافتات شوارعنا وفي مدننا.. فهذه البلاد هي مهد الاسلام والعروبة معاً.. فلماذا هذا النشاز، ولماذا نبقى عليه حتى الآن ولماذا يزداد الولع به مع أن لغتنا أجمل وأشمل من لغتهم، وخطنا أروع واكثر فنية وجمالا من خطوطهم؟ لماذا؟

«عبدالقدوس الأنصاري»

المحرم/ ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - الإمارات ٨ دراهم - البحرين دينار واحد - سلطنة عُمان ٦٠٠ بيسة - قطر ٨ ريالات - الكويت ٦٠٠ فلس - الأردن ٥٠٠ فلس تونس ٨٠٠ مليم - الجزائر ٨٠ ديناراً - سوريا ٤٥ ليرة - السودان ١٥٠ ديناراً لبنان ١٠٠ ليرة - المغرب ٩ دراهم - مصر ٣٠٠ قرش - اليمن ١٠٠ ريال بريطانيا جنيه استرليني - فرنسا ١٠ فرنكات - امريكا ٣ دولارات

٧٢ عـــامـــاً

□ هذا الرقم (٧٢) عاماً، في عمر الأعوام والسنين التى تُحسبُ بالقرون، بل بمئات القرون، لا يساوي شيئاً ٠٠ لكن (٧٢) عاما في عمر (الفكر والعلم والمعرفة) وفي عمر (الثقافة والأدب والاجتماع) تساوي الكثير ٠٠ والكثير جدا٠

مجلة المنهل الآن في عامها الثاني والسبعين، حيث كان تأسيسها في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، ومنذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ظلت المنهل متواصلة الأداء والعطاء بلا انقطاع، برغم كل ما أحاط بها ويحوط بها من أزمات مالية، لكن المنهل لما كانت صاحبة رسالة عليا في الحياة والمجتمع تسامت فوق كل المعوقات والأزمات والصعاب ٠٠ وهذا بفضل الله سبحانه وتوفيقه، ثم برعاية وعناية حكومتنا الراشدة٠٠ وبتواصل غير منقطع من محبيها من كتاب وقراء ومتابعين، يغمرون المنهل بكتاباتهم وتعليقاتهم وآرائهم٠

والآن، والمنهل في عامها الـ (٧٢) تظل باذن الله تعالى وتوفيقه تظل على العهد لمؤسسها الأستاذ الرائد عبد القدوس الأنصاري ـ عليه رحمة الله تعالى٠٠ الذى اقامها على (الافادة العلمية) و(المتعة الذهنية)٠٠ وللقائم على نهضتها وارتقائها الوالد الاستاذ نبيه بن عبد القدوس الانصاري ـ عليه رحمة الله تعالى ـ

ونظل على العهد لكل محبي المنهل من الكتاب والقراء والمتابعين لمسيرتها٠٠ والله من وراء القصد ■

المحرر

المشرف العام
أ.د/ عبدالرحمن الطيب الأنصاري

رئيس التحرير
المدير العام
زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري

عزيزي القارىء
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.

اشارة

تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

عنوان الموقع :
WWW. al-manhalmagazine.com
البريد الإلكتروني :
E-mail : info@al-manhalmagazine.com

فقرات مستلة

** المقدمات جسر تواصل بين القارىء والنص المقروء
ص ٣٢

** المسلمون بكل أجناسهم وأعراقهم ساهموا في انتاج حضارة اسلامية واحدة موحدة
ص ٤٢

** (قمم الأرض) أصبحت مثل (قمم العالم المتخلف) لا تجد احتراماً من الدول الصناعية
ص ٦٢

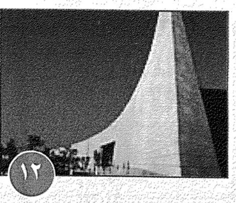
** دول العالم الثالث غدت المكان المناسب لدفن مخلفات المصانع الغربية
ص ٦٦

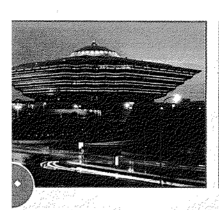
** الثقافة الشعبية في العالم العربي أصبحت مخترقة من جهات مشبوهة
ص ٧٦

** الاختلافات التكوينية بين الرجل والمرأة جعلت لكل واحد منهما وظيفته الخاصة به
ص ٨٢

** الدكتور وافي خزانة علمية ومعرفية في حركة تأصيل علم الاجتماع
ص ١٢٢

** في رأي السرحان: الشعر الشعبي يجمع الشعب بمختلف لهجاته وهو امتداد للشعر الفصيح
ص ١٣٦


١٢







الاشتراكات

جـــدة ت: ٦٤٣٢١٢٤
قيمة الاشتراك السنوي
للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال

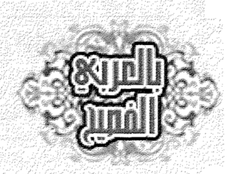
وكــالات التوزيــع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

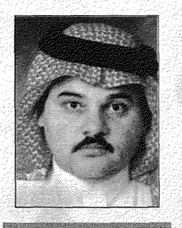
الاعلانات:
يراجع بشأنها
الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ـ جدة تليفون : ٦٣٩٦٠٦٠ ـ فاكس : ٦٣٩٤٠٩٥



التضاد .. تكامل



زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري
رئيس التحرير

□ اتفاق الناس على أمر أو فكرة أمر غير مُستدرك .. وهذه طبيعة البشر في كل متعلقات حياتهم وأفكارهم.. فهم مختلفون وسيظلون مختلفين الى يوم الدين.. لكن ما بين الاتفاق والاختلاف يبصر العقلاء مركز دائرة الالتقاء . وإلا لما قامت للحياة قائمة.

ولا نظن بحال أن في الخلاف أو الاختلاف الشرّ كل الشرّ، إلا إذا أدى الى (الفرقة).. و(التنافر) فتلك هي الكارثة.. لكنا نجد في الخلاف اثراء للحياة الفكرية منها والعملية.

الدكتور طه حسين، قال مرة ان اللغة العربية هى (لغة الضاد).. مقولة لها ما يبررها عند الدكتور طه حسين، ولكن اعترض عليه الأستاذ العقاد، فقال لماذا لا تكون لغة (الحاء)؟.

فـ(الضاد) فيه : (الضيم .. والضرب.. والضيق) مثلا، أما (الحاء) ففيه (الحرية ـ الحب ـ الحنان ـ الحسن) مثلا.

وما بين العملاقين ما هو إلا مزحة.. ذلك لأن حرف (الضاد) ليس بهذه الحدة والقسوة، إذ فيه من الكلمات المستطابة الكثير، وما يقال عن (الضاد) يقال عن حرف (الحاء) ايضاً.

وغاية ما يمكن قوله ان الحرفين ليسا متضادين متنافرين، بل هما متلاقيان متكاملان.. ومنهما ومن غيرهما تتكون كلمات (الحسن والقبح ـ الصالح والطالح ـ الليل والنهار ـ المؤمن والكافر ـ الاسود والابيض) الى آخر هذه القائمة من الاسماء والمسميات.. وكلها في مجموعها تحمل في داخلها وظائف تكميلية متكاملة غير متنافره.

وما ينسحب على الحروف ينسحب على الألوان أيضا.. إذ يَعُدّ كثير من الناس اللونين (الأبيض والأسود) متنافرين، وما هما بمتنافرين.. فإذا أراد أحدهم من الآخر ان يحدد موقفه من أمر بعينه يقول له: (يا أبيض .. يا أسود).. إذ وضعوا (الأبيض) في خانة الموافقة والاتفاق، ووضعوا (الاسود) في خانة الاختلاف والتنافر، وهذه رؤية عامة درج عليها كثير من الناس، فهذا يقول لك أنا أحب اللون (الأبيض) وآخر يقول أنا أحب

(الاسود) .. والأمر هنا ايضاً ليس بهذه الصيغة من (الحدة) .. ذلك، لأن هذين اللونين متكاملان .. كل واحد منهما يكمل وظيفة الآخر، اذ لكل واحد منهما وظيفة يؤديها.

فالذين يميلون الى اللون الأبيض أو يعشقونه يقولون هو لون الفرح والنقاء والفأل الحسن، فالطفل عند مولده يُلفُّ بقطعة بيضاء.. والعروس تزف الى زوجها في فستان الفرح الأبيض ، وأطقم المستشفيات، ولباس الاطباء، والممرضات كلها بيضاء، لعلها تحمل للمريض الفأل الطيب بالشفاء.

وآخرون يرون في ذات الابيض علامات الحزن ويقولون بأن الكفن أبيض، ولباس الحداد عند النساء أبيض، والشيب الذي يغزو الرأس يعلن بداية العد التنازلي في كل معطيات الانسان أبيض..

إذا كان البياض لباس حزن
بأندلس فذاك من الصواب
فإني قد لبست بياض شعري
لأني قد حزنت على شبابي

فإذا كان البعض يرى في الشيب هذا المفهوم (العدمي)، فإن آخرين يرون في الشيب غير ذلك تماماً.. إذ هو عندهم يعني بداية مرحلة الوقار، والحكمة، والرأى السديد، بل هو بداية مرحلة (المرجعية)، ذلك، لأن الأمور العظام في الحياة، والمعضلات الكبرى لا يستشار فيها إلا كبار السن، لأنهم اصحاب التجربة والخبرة والحنكة.. ولأن الحياة قد عركتهم واكتسبوا منها ما اكتسبوا من تجارب وحكمة ورويّة..

والمثل الشعبي يقول: (الماعندو كبير يشتري كبير)..

بل إن القرآن الكريم يعتبر الاربعين من العمر وما بعدها هي سن بلوغ الأشُدّ: ﴿ حتى إذا بلغ أشُدَّه وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك﴾ وبرغم هذا فإنا نرى في الأمر تكاملا وتوافقا.. كما تحتاج الحياة للشباب الفتيِّ القوي المنيع، فانها أيضاً تحتاج لحكمة وخبرة وشورى المشيب، اذ عنده الحكمة وفصل الخطاب.

بهذا الفهم (التكاملي) فإني أرى في (الضاد) و(الحاء) تكاملا، بحيث لا يغني حرف عن الآخر.. وأرى في (الأبيض) و(الاسود) تكاملا، لأنك لا ترى (الاسود) إلا من خلال (الأبيض) ولا تدرك (الابيض) إلا من خلال (الاسود).. وأرى في (الشباب) و(المشيب) تكاملا..

واتساقاً مع هذا التكامل فإن أنماط الحياة كلها متكاملة.. (السالب) و(الموجب) متكاملان.. (الذكر) و(الأنثى) متكاملان..

إذن تلك سنة الكون، ولمّا كانت كذلك، فما على البشر إلا التناغم معها.. تناسقاً وتموسقاً.. لا تنافراً وتباغضاً.

وكل عام وأنتم بخير.. ■

متابعات وتعليقات

جائزة الملك فيصل العالمية

 بكل المقاييس العلمية فرضت هذه الجائزة وجودها وجهودها على المستوى العربي والإسلامي والعالمي.. وأصبح العلماء من كل أنحاء العالم وفي جميع تخصصاتهم يتسابقون في نيلها، ويتقدمون بدراساتهم وبحوثهم .. وتظل حيادية ونزاهة جائزة الملك فيصل - عليه رحمة الله - تظل هي الدافع الأساسي لهؤلاء العلماء بالترشح لها.

وهذه الجائزة بعيدة كل البعد عن أيّ مؤثرات تصرفها عن دورها العلمي.

جائزة الملك فيصل العالمية تضم خمسة محاور هي :

١ - خدمة الإسلام.
٢ - الدراسات الاسلامية.
٣ - اللغة العربية والأدب.
٤ - الطب .
٥ - العلوم .

وفي حفل كبير ضم جمهرة من العلماء والأدباء والمفكرين، والقائمين على الجائزة: الأمانة العامة للجائزة ، ولجان الاختيار ، أعلن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل رئيس هيئة الجائزة، أسماء الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية لهذا العام ١٤٢٦هـ.. وقد تم اعلان الفائزين في اربعة محاور من الجائزة وهي (خدمة الاسلام - اللغة العربية والأدب - الطب - والعلوم) وحجبت جائزة الدراسات الاسلامية لعدم ارتقاء الاعمال المرشحة الى مستوى الجائزة.



الملك فيصل - يرحمه الله -

وبعد الفحص والتدقيق توصلت لجان الاختيار الى القرارات التالية:

أولا: قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية **لخدمة الاسلام** منح الجائزة هذا العام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م مناصفة بين معالي الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين السعودي الجنسية والشيخ يوسف بن جاسم بن محمد الحجي الكويتي الجنسية.

وقد منح الشيخ صالح الحصين الجائزة تقديراً لدوره البارز في الدعوة الاسلامية وأعمال البر والحرص على الوسطية في المجتمع الاسلامي وله بحوث رصينة في مجال الاقتصاد الاسلامي وقدرته على استيعاب تطورات الاقتصاد العالمي الحديث وللشيخ الحصين ايضا دوره المقدر في التعليم العالي من خلال عضويته في المجلس الاعلى لخمس جامعات سعودية.

اما الشيخ يوسف الحجي فقد منح الجائزة تقديرا لاسهاماته المتميزة في مجالات الدعوة الاسلامية والتعليم والعمل الخيري والاغاثة وهو عضو في مجلس امناء اربع جامعات اسلامية في افريقيا وآسيا والرائد في السعي لتأسيس كلية الشريعة في جامعة الكويت كما أسس أو شارك في تأسيس العديد من الهيئات والجمعيات الخيرية المحلية والعالمية وهو الرئيس المؤسس لجمعية الهلال الاحمر الكويتي.

ثانيا : قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل



الشيخ صالح الحصين






الشيخ يوسف الحجي



د. تمام حسان



د. عبدالقادر فاسي

العالمية **للدراسات الاسلامية** حجب الجائزة هذا العام ١٢٤٦هـ/ ٢٠٠٦م وموضوعها الدراسات التي تناولت أصول الفقه أو جانبا منه تأليفاً أو تحليلا لعدم ارتقاء الاعمال المرشحة الى مستوى الجائزة.

ثالثا : قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية **للغة العربية والأدب** منح الجائزة هذا العام ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م وموضوعها اللغة العربية في الدراسات اللغوية الحديثة مناصفة بين الدكتور تمام حسان عمر المصري الجنسية والدكتور عبد القادر فاسي فهري المغربي الجنسية.

وقد منح الاستاذ الدكتور تمام حسان عمر تقديرا لجهوده في تأسيس الدراسات اللغوية الحديثة منذ قرابة نصف قرن حيث تمكن من خلال معرفته العميقة بالتراث اللغوي العربي واستيعابه لمبادىء التحليل اللغوي ومناهجه أن يخرج نموذجا جديدا لدراسة اللغة العربية في اطار منهجي محكم.

اما الدكتور عبد القادر فاسي فهري فقد منح الجائزة تقديرا لدراساته العميقة للنظريات اللغوية المعاصرة وسعيه الى تطبيقها على اللغة العربية.

وفي سبيل ذلك استمر يسعى الى اعادة بناء النظرية اللغوية العربية القديمة في ضوء المعطيات العلمية الحديثة.

رابعا : قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية **للطب** منح الجائزة هذا العام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م وموضوعها التهاب بطانة الاوعية الدموية للدكتور مايكل انطوني جمبرون الامريكي الجنسية استاذ علم الامراض ورئيس قسم الامراض في كلية الطب ومستشفى بريجام في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة، وقد منح الجائزة تقديرا لبحوثه الرائدة حول بيولوجية الاوعية الدموية حيث قام باستنبات الخلايا المبطنة لها واكتشف الجزيئات التى تربطها بالخلايا الالتهابية وغير ذلك من آليات وقد ساهمت دراساته في تعميق المعرفة بالامراض الوعائية واعطت آفاقا جديدة لتشخيصها وعلاجها.

خامسا: قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية **للعلوم والرياضيات** منح الجائزة هذا العام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م مناصفة بين الدكتور سايمون كروان دونالدسن البريطاني الجنسية رئيس معهد العلوم الرياضية في لندن واستاذ الرياضيات في كلية امبريال بجامعة لندن المملكة المتحدة والدكتور مودومباي سيشاتشالو ناراسيمان الهندي الجنسية الزميل الفخري في معهد تاتا للبحوث الاساسية في الهند وذلك لاسهامهما الخصب في نظريات عززت الصلات بين الرياضيات والفيزياء وساعدت في اقامة قاعدة صحيحة للنظريات الفيزيائية المتعلقة بقوانين المادة ■

جائزة ومنحة الأمير سلمان

□ الجوائز والمنح - بدون شك - تمثل في حد ذاتها قيمة معنوية وانسانية وحضارية، هذا إضافة إلى دفعها القوي في اتجاه حركة البحث الجاد في المجال المبتغى منها.

والجوائز عامل مساعد في التنمية .. التنمية العقلية والعلمية والفكرية، والتنمية المدنية والبشرية، ثم التنمية الحضارية بعامة.

صاحب السمو الملكى الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود أمير منطقة الرياض، ورئيس مجلس ادارة دارة الملك عبد العزيز، لا شك، هو الاكثر وعياً وادراكاً بمضمون الجوائز والمنح، وهو مدرك للدور الفاعل الذي تقوم به الجوائز في تنمية الحركة العلمية والفكرية في جميع المجالات.

ولتحقيق هذا البعد العلمي والفكري جاءت جائزة سموه بمسمى (جائزة ومنحة الأمير سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية).

وتأتي هذه الجائزة المقدرة لتغطي جانباً مهماً ودقيقاً في توجهها وتخصصها.

أما الجائزة فقد غطت أربعة جوانب :

١ - جائزة رسالة الماجستير: وقيمتها (عشرون ألف ريال) لأفضل رسالة ماجستير ممنوحة في الموضوعات المتعلقة بأهداف الجائزة.

٢ - جائزة رسالة الدكتوراة: وقيمتها (ثلاثون الف ريال) وتخصص لأفضل رسالة دكتوراة ممنوحة في الموضوعات المتعلقة باهداف الجائزة.

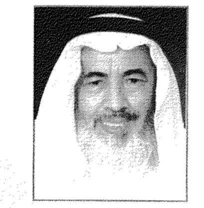
٣ - جائزة المقالة العلمية: وقيمتها (عشرة آلاف ريال) للمقالة الواحدة لثلاث مقالات علمية تكون منشورة في احدى الدوريات العلمية المحكمة وتتعلق موضوعاتها باهداف الجائزة.

الأمير سلمان بن عبدالعزيز

٤ - الجائزة التقديرية للرواد في تاريخ الجزيرة العربية: وقيمة كل جائزة منها (مئة الف ريال) وتخصص هذه الجائزة لتكريم وتقدير اثنين من الرواد من الرجال والنساء المرشحين في كل عام لجهودهم المميزة في خدمة تاريخ الجزيرة العربية.

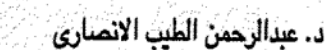
وقد وافق صاحب السمو الملكى الامير سلمان بن عبد العزيز صاحب الجائزة على تكريم أربعة من الرواد هذا العام:

- الاستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل.
- الاستاذ الدكتور عبد الله بن صالح العثيمين.
- الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بن محمد الطيب الانصاري.
- الاستاذ الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش.



د. عبدالله العثيمين





د. عبدالرحمن الطيب الانصاري

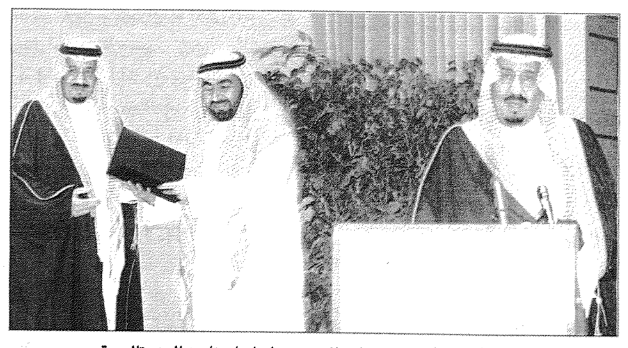
د. عبدالله أبو داهش

أما المنحة فقد غطت ثلاثة جوانب :

١ ـ منحة الدراسات والبحوث: تخصص هذه المنحة لدعم (عشر دراسات علمية ذات علاقة بأهداف الجائزة ، وتبلغ قيمة المنحة الواحدة (أربعون ألف ريال) وتخصص للاعمال البحتية الجارية غير المنتهية من تأليف وتحقيق.

٢ ـ منحة رسالة الماجستير والدكتوراة: تخصص هذه المنحة لدعم طلاب وطالبات الدراسات العليا في موضوعات تتعلق بأهداف المنحة وضوابطها، وتشمل دعم اربع رسائل مسجلة للماجستير بمبلغ قدره ١٥٫٠٠٠ ريال (خمسة عشر الف ريال) للرسالة الواحدة، ودعم اربع رسائل مسجلة للدكتوراة بمبلغ قدره (عشرون الف ريال) للرسالة الواحدة.

وقد أقيم حفل كبير تم فيه تكريم الفائزين بالجوائز والمنح ، برعاية صاحب السمو الملكي الامير سلمان بن عبد العزيز ■



سمو الأمير سلمان يرعى حفل جائزة سموه لدراسات تاريخ الجزيرةالعربية

جائزة أبها

□ هذه الجائزة تهتم بالجوانب الثقافية والأدبية والفكرية والفنية والتعليمية والوطنية والتاريخية.. وهي جائزة سنوية تعقد اعمالها في مدينة أبها حاضرة المنطقة الجنوبية في المملكة العربية السعودية.. وهي برعاية صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل.. ويصحب الجائزة جدول متكامل من الندوات والمحاضرات واللقاءات.. وتعد الجائزة إثراء للحركة الفكرية والأدبية والفنية في المملكة.

قيمة هذه الجائزة في مجملها (مليونان وخمسمائة ألف ريال) منها (مليون وخمسمائة الف ريال) مقدمة من **صاحب السمو الملكى الامير خالد الفيصل أمير منطقة عسير**.. و(مليون ريال) مقدمة من **صاحب السمو الملكى الامير فيصل بن خالد بن عبد العزيز نائب أمير منطقة عسير**.

والجائزة تقدم لأربعة فروع هي: (الخدمة الوطنية - الثقافة - التعليم الجامعي - التعليم العام).

والجائزة لهذا العام ١٤٢٧هـ جاءت تحت شعار (احترام النظام) الذي تم اختياره شعاراً لملتقى أبها لهذا العام ١٤٢٧هـ..

فرع جائزة ابها للثقافة ٢٠٠ر٢٠٠ ريال.

ويشترط ان تكون الموضوعات المطروحة للمسابقة في هذا الاطار:



الأمير خالد الفيصل

مجالات الجائزة ومقدارها:

أولا : الشعر الفصيح:

ديوان شعري متميز (مخطوط) أو مطبوع في نفس العام (٢٠ر٠٠٠) ريال.

ثانيا: القصة القصيرة :

مجموعة قصصية متميزة (مخطوطة) أو مطبوعة في نفس العام (٢٠ر٠٠٠) ريال.

ثالثا : الرواية والمسرحية:

رواية أو نص مسرحي (مخطوطة) أو مطبوعة في نفس العام (٢٠ر٠٠٠) ريال.

رابعا: الدراسات الإنسانية والأدبية والعلمية:

بحث علمي موثق عن (احترام النظام) وأثره في حياة المجتمع السعودي (٢٠ر٠٠٠) ريال.

خامسا: الفن التشكيلي:

ثلاث لوحات على ألا يزيد مقاس اللوحة عن ١٢٠ سم كأطول ضلع لها وتكون ذات إطار واخراج جيد (١٨ر٠٠٠) ريال.

سادسا : الكاريكاتير :

اعمال لا تقل عن عشرة رسوم كاريكاتورية للمشارك (١٨ر٠٠٠) ريال.

شروط وايضاحات عامة :

١- الجائزة مفتوحة للجنسين من السعوديين



منظر من عسير

وأبناء دول مجلس التعاون الخليجي والعرب المقيمين بالمملكة.

٢ ـ يفضل أن تتضمن الأعمال الفنية شيئاً من الجديد الذي لم يسبق عرضه.

٣ ـ تقبل الترشيحات من الجامعات والأندية الأدبية وجمعية الثقافة والفنون وفروعها بالمملكة ومن المراكز الثقافية المعترف بها ومن الشخصيات الاعتبارية، ويجوز أن يتقدم الفرد بنفسه للمشاركة .. وستقدم شهادة تقديرية للجهة التى فاز مرشحها مع دعوة ممثلها لحضور الملتقي.

٤ ـ تقدم سيرة ذاتية مفصلة عن المشارك مع صور المستندات والوثائق المثبتة لها.

٥ ـ ترفق ثلاث نسخ من الأعمال المقدمة ما عدا الأعمال الكاريكاتورية.

٦ ـ ألا تكون الأعمال المقدمة قد سبق التقدم بها لنيل جائزة أخرى.

٧ ـ الترشيحات والأعمال المقدمة (البحوث ـ الشعر ـ الرواية ـ القصة القصيرة) مع عنوان المتسابق كاملا بما في ذلك الهاتف والفاكس ترسل أو تسلم إلى (نادي أبها الأدبي ـ ص.ب ٤٧٨ ـ أبها) هاتف (٠٧٢٢٦٤٢٣٠) فاكس (٠٧٢٢٦٢١٦٥). أما (الفن التشكيلي والكاريكاتور فتسلم إلى مركز الملك فهد الثقافي بأبها (قرية المفتاحة التشكيلية) هاتف: (٠٧٢٢٤٩٥٩٥) ص.ب ١٢٢٩ أبها ـ في موعد أقصاه نهاية شهر ربيع الأول ١٤٢٧هـ.

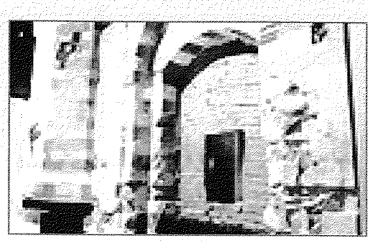
وتتولى أمانة الجائزة فيما يختص بالتحكيم وأي ترتيب آخر ولا تعاد الأعمال المقدمة سواء فازت أم لم تفز ■

المتحف الوطني السعودي

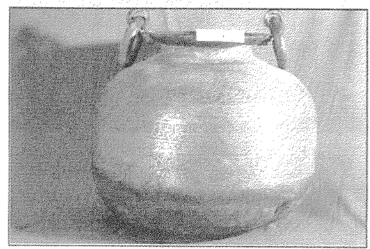
المتاحف تشكل أحد الروافد الحضارية التى تعتمد عليها الأمم في تسجيل تاريخها في شتى المجالات ، فمن خلالها تستطيع التعرف على الحصاد المعرفي والتاريخى والحضارى على مدار القرون الماضية.

ومن هنا ادركت المملكة العربية السعودية منذ البداية بأن المتاحف هي اهم الاساليب والطرق التى تحافظ من خلالها الأمم والشعوب على ماضيها العريق وحاضرها المشرق، وهي نافذة يطل من خلالها ابناء الحضارة المعاصرة والاجيال القادمة على ما انجزه الآباء والاجداد من اعمال جليلة خلدت جهودهم.

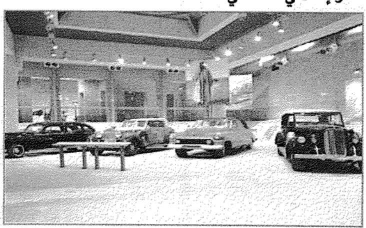
ويسعدنا في هذه الصفحات ان نقدم للقارئ صورة من قريب لاعمال ومقتنيات هذا المتحف.



ـ المتحف من الداخل .



ـ قدر إسلامي ، نحاسي.



ـ سيارات الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بدارة الملك عبد العزيز.



مصطفى محمد مصطفى

جـــدة

وعندما نتحدث عن المتحف الوطنى السعودي ونتجول داخله، ونرى ما نقشته القرون الماضية من تاريخ وتراث يشهد له بالفخر والاعزاز.. نجد انماط الحياة القديمة للحضارات المتعاقبة من بداية الانسان والكون الى توحيد المملكة، فتفيض النفس اكباراً واعجابا بهذا التراث الحضارى العظيم.

** يقع المتحف داخل مركز الملك عبد العزيز التاريخى، في وسط مدينة الرياض، ويعد من اهم المراكز الحضارية السعودية .. انشىء المتحف الوطني، ليكون معلما وطنيا على مستوى المملكة العربية السعودية، ليساهم في إثراء مسيرة التعليم، والتوعية الثقافية، وتطوير الانتماء العريق، وليكون رسالة خالدة.. وقد روعي في تصميم المتحف المعايير الهندسية العالمية مواكبا لحركة التطور، مستخدما افضل وسائل العرض الحديثة.. ويمتاز المتحف بمنهجية معالجته وتفسيره للتاريخ البشري مستمدا من الحقائق الثابتة التى يقدمها الاسلام.

تبلغ مساحة المتحف سبعة عشر ألف متر مربع من الجانب الشرقي لمركز الملك عبد العزيز التاريخي، في حين تصل المساحة الإجمالية لمبناه، المكون من طابقين ثمانية وعشرين ألف متر مربع، ويوفر المتحف بيئة تعليمية حديثة لشرائح مختلفة من المجتمع، ولمستويات متعددة، ولقد تنوعت المعروضات لتشمل القطع الأثرية والوثائق، والمخطوطات، ولوحات العرض، بالإضافة إلى

ـ المتحف الوطني .

استخدام وسائل العصر المتعددة، فضلا عن الأفلام الوثائقية والعلمية.

ويمتاز المتحف بتكامل معروضاته، وبتقديم موضوع متسلسل يصور بداية خلق الكون، الى العصر الحديث، ويدور محوره الأساسي حول الجزيرة العربية، كما تنفرد كل قاعة من قاعات المتحف الرئيسية بتقديم عرض موضوعي مستقل ومتكامل، ويتكون المتحف من ثمان قاعات عرض رئيسية مرتبة ضمن تسلسل تاريخي مضطرد، يصل إليها الزائر بحسب تصميم معماري، يراعى ترتيبها الزمني، كما يحتوي المتحف على قاعتين للعروض، دائمة ومؤقتة، فضلا عن المكاتب الإدارية والمخازن والمرافق الخدمية العامة لزوار المتحف، والعاملين فيه.

وقد افتتح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن العزيز ـ رحمه الله ـ مركز الملك عبد العزيز التاريخى في التاسع عشر من شوال سنة الف واربعمائة وتسعة عشرة بمناسبة الاحتفال بمئوية المملكة.



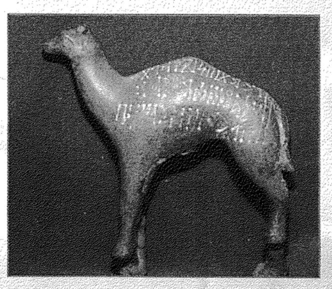
ـ زمزمية الفاو، من الفخار، دائرية الشكل.



ـ رأس أسد نجران، قبل ٢٥٠٠ عام من البرونز.



ـ دينار مصر ١١٦٨ هجري من الذهب



ـ دمية جمل من نجران، الفترة بين ٤٠٠ قبل الميلاد ـ ٤٠٠ الميلادي.

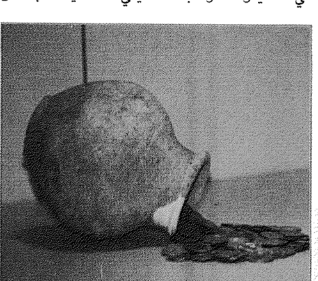
القاعة الاولى: الانسان والكون :

القاعة الأولى تظهر معروضاتها بحسب تسلسلها الموضوعي، فتبدأ بموضوع نشأة الكون وتكوُّن الأجرام السماوية والنظام الشمسي. ثم يتم التركيز على كوكب الأرض، حيث توضح المعروضات التغيرات التى تتم في كوكب الأرض وتشرح وسائل العرض نظرية حركة الصفائح التكوينية التى تفسر تكون القارات، وبشكل اكثر تفصيلا الصفيحة العربية، ويتتابع الموضوع لاستعراض نشأة المعادن والصخور وأنواعها والدورة الصخرية والعوامل البيئية والجيولوجية والمناخية المؤثرة فيها، بالاضافة الى استعراض الثروة المعدنية في أراضي المملكة العربية السعودية.

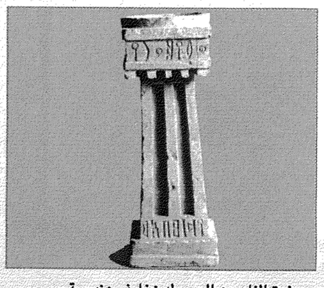
يأتي بعد ذلك علم الأحافير الذي يعنى بدراسة أنماط الحياة القديمة من حيث تاريخها وبيئات معيشتها وهو يتحدث عن الأزمنة القديمة، وعلم طبقات الأرض والعصور الجيولوجية وتأثير التغيرات البيئية في الحيوانات والنباتات، يلي ذلك عينات لبعض



ـ صخرة تيماء، خمسمائة سنة قبل الميلاد من الحجر عليها كتابات بالخط الآرامي.



ـ من معروضات المتحف



ـ مبخرة الفاو من الحجر له زخارف هندسية.



- جرة الفترة العباسية، القرن الثاني ـ الثالث الهجري.



- من معروضات القاعة الاولى (الانسان والكون).



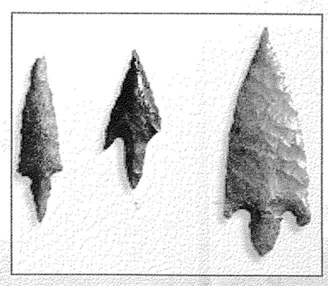
- من معروضات القاعة الاولى (الانسان والكون).

الحيوانات المنقرضة التى استوطنت الجزيرة قديما، ومنها (الإكثيوسور)، وهو أحد الزواحف المائية التى انقرضت قبل نحو مائتي مليون سنة، ومن تلك العينات أيضا (فيلة الماستودون) التى كانت تجوب شبه الجزيرة العربية قبل حوالي خمسة عشر مليون سنة مضت، ويكتمل الموضوع بشرح نظرية تكون النفط من بقايا الكائنات الحية عبر ملايين السنين والكيفية التى تجمع بها في مكامنه، كما أن هناك عرضا شاملا عن بيئات المملكة العربية السعودية، يشمل: البحار والجبال والأودية والهضاب والصحارى.

وتختتم القاعة بمعروضات عن العصور الحجرية بمراحلها الثلاث مثل بعض الأدوات التى كان يستخدمها إنسان تلك الفترة، الذى عاش في الأزمنة الغابرة قبل تدوين التاريخ.

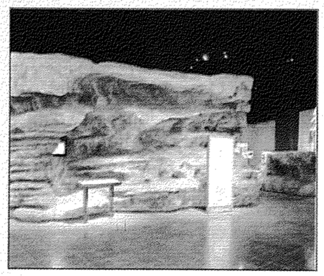
ومن وسائل العرض:

- فيلم عن نشأة الكون ـ فيلم عن تحرك الصفائح القارية ـ ثلاثة أفلام عن الزلازل والبراكين وعوامل



- رؤوس رماح الربع الخالي، العصر الحجري الحديث ٧٠٠٠ ـ ٩٠٠٠ قبل الميلاد من حجر الصوان.

التعرية ـ ستة افلام عن البيئات المختلفة في المملكة العربية السعودية ـ فيلم عن تصنيع الأدوات الحجرية وآخر عن استخدامها ـ ثلاث حاسبات آلية مستقلة تحوي برامج تفاعلية عن البيئات ـ شرائح عرض شفافة عن الرسوم الصخرية الأثرية.



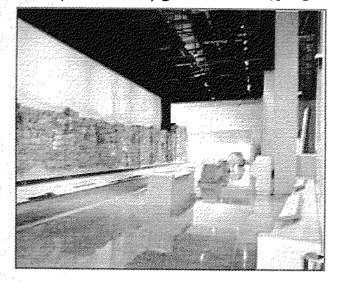
ـ من معروضات القاعة الاولى (الانسان والكون).

القاعة الثانية :الممالك العربية :

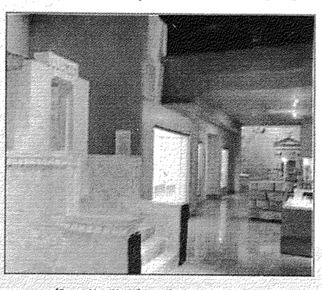
قاعة الممالك العربية تمثل عصر الممالك العربية القديمة في الفترة الممتدة من الألف السادس قبل الميلاد إلى حوالي القرن الرابع بعد الميلاد من تاريخ الجزيرة العربية، وتغطي هذه القاعة ثلاثة عصور متتابعة من الحضارات العربية القديمة التى سادت في جزيرة العرب وهي:

ـ الممالك العربية المبكرة: مثل حضارة دلمون، ومدين، وقرية، وتيماء.

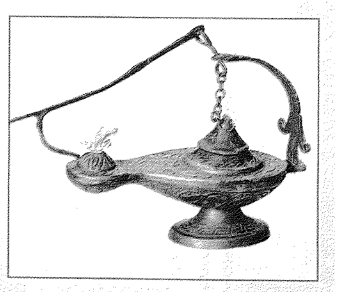
ـ الممالك العربية الوسيطة : حيث ازدهرت مدن مثل: دومة الجندل، وتيماء، وتاروت.



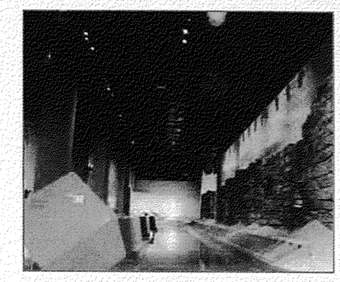
ـ من معروضات القاعة الثانية (الممالك العربية).



ـ من معروضات القاعة الثانية (الممالك العربية).



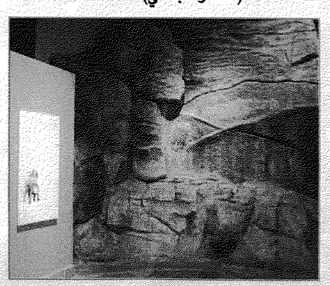
ـ مصباح المدينة المنورة ، الفترة العباسية.



- من معروضات القاعة الثانية (الممالك العربية).



القاعة الثالثة (العصر الجاهلي).

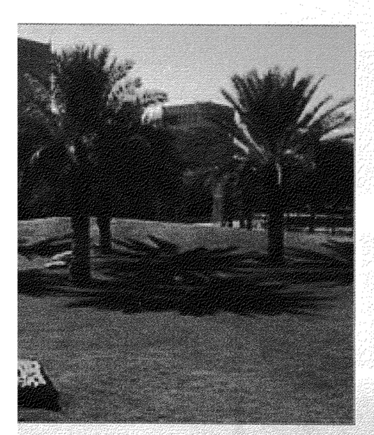


- من معروضات القاعة الثالثة (العصر الجاهلي).

- الممالك العربية المتأخرة : التى ازدهرت في الأفلاج، ونجران.

ويبدأ عرض هذه القاعة بموقع خصص لفجر التاريخ في الجزيرة العربية يحوي آثاراً ضخمة من ألواح صخرية عليها نقوش لحضارات متعددة تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، كما تعرض فيه آثار تشرح تطور الكتابة بداية بالكتابة الرمزية التى ظهرت في منطقة ما بين النهرين من أرض العراق تعود الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد وزامنها ظهور الكتابة الهيروغليفية في مصر ثم ظهور الابجديات الأولى في الفترة بين ٢٥٠٠ - ١٥٠٠ قبل الميلاد.

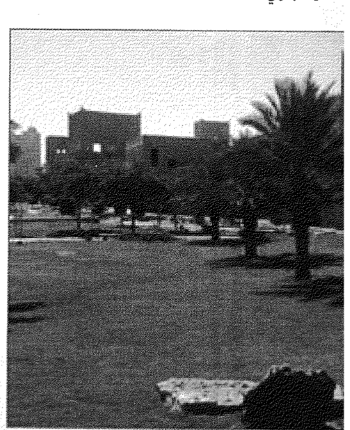
يهتم الجناح الأول في القاعة بالممالك العربية



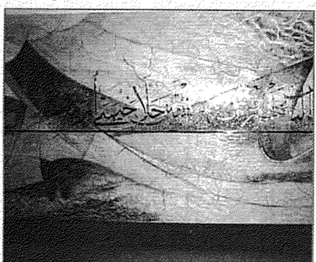
المتحف من الخارج

المبكرة مثل حضارة مدينة مدين، التى تتمثل معروضاتها في صناعات خزفية فزخارف ورسوم أثرية ونماذج أخرى لحضارات في قرية وتيماء بالإضافة إلى نبذة عن الطرق التجارية القديمة.

أما الجناح الثاني فيتناول فترة الممالك العربية الوسيطة التى ازدهرت في الفترة (٨٠٠ ـ ٥٠٠) قبل الميلاد، واشتهرت مدن منها: تيماء، والفاو، ودومة الجندل، وتوجد في القاعة مجسمات لمبان من تلك الفترة تمثل بعض المدن المشهورة وأجزاء من مبان ومقابر أثرية، وتختتم القاعة بجناح الممالك العربية المتأخرة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، مثل ثاج والأفلاج ومدينة نجران الشهيرة بنشاطها الزراعي والتجاري.



ـ من معروضات القاعة الثالثة (العصر الجاهلي).



ـ من معروضات القاعة الرابعة (البعثة النبوية الشريفة).



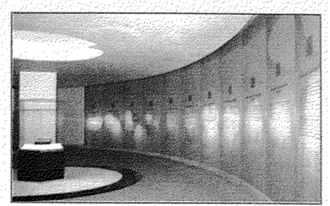
ـ من معروضات القاعة الرابعة (البعثة النبوية الشريفة).

ويتم العرض على شكل :

- شرائح عرض شفافة متحركة بالإضافة إلى عرض شفافيات ومؤثرات صوتية فوق سور تيماء، مجسمات ثلاثية الأبعاد على برنامج الحاسب الآلي لبعض المواقع الأثرية مثل مدائن صالح، تيماء القديمة، قرية الفاو.

القاعة الثالثة: العصر الجاهلي :

تمثل فترة الجاهلية من عام ٤٠٠ ميلادي الى البعثة النبوية المباركة .. حيث توضح أحوال القبائل العربية، والاثار، والعقائد، والحياة اليومية، والعادات والتقاليد، وأسواق العرب، وتطور الخط العربي.



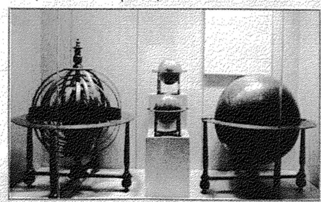
- من معروضات القاعة الرابعة (البعثة النبوية الشريفة).



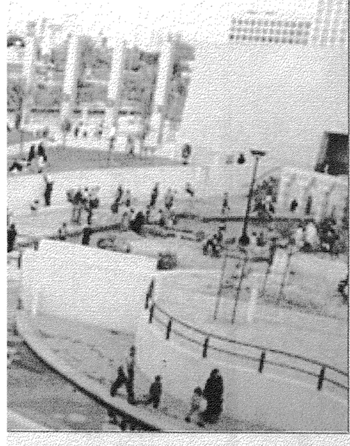
- من معروضات القاعة الخامسة (الاسلام والجزيرة العربية).



- من معروضات القاعة الخامسة (الاسلام والجزيرة العربية).

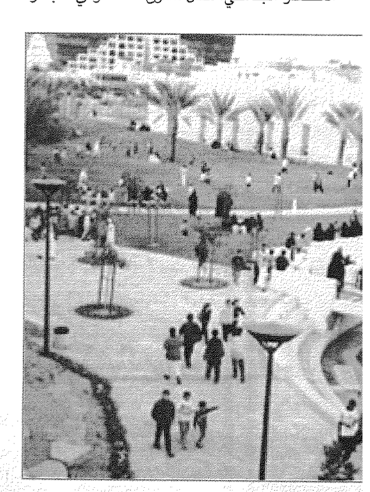


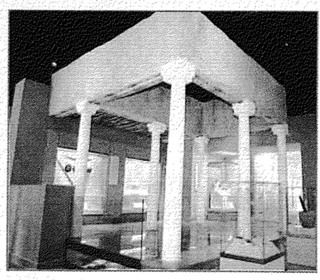
- من معروضات القاعة الخامسة (الاسلام والجزيرة العربية).



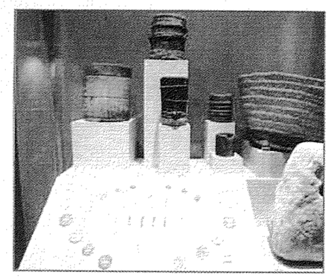
المتحف من الخارج

وأول ما يُشاهد في هذه القاعة صور ومعروضات ومنحوتات تبين الوضع الذى كان سائدا في العصر الجاهلي، ومن أهم المعروضات (الآطام) وهي حصون بناها سكان المدينة لحماية أنفسهم وممتلكاتهم، يلي ذلك معروضات من الآنية والأسلحة التى يعود تاريخها الى الفترة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين، ثم عرض للمدن المهمة في العصر الجاهلي مثل مكة المكرمة، ويثرب، وخيبر، ونجران، والخضرمة، ودومة الجندل. كما تشمل القاعة معروضات تبين شكل الحياة الاجتماعية اليومية التى كانت سائدة في العصر الجاهلي بالإضافة إلى نموذج عن نظام الري. وتتضمن القاعة قسما يرمز للأسواق المشهورة في العصر الجاهلي، مثل سوق عكاظ، وذي المجاز،

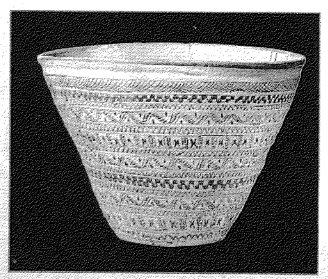




ـ من معروضات القاعة السادسة (الدولة السعودية الاولى والثانية).



ـ من معروضات القاعة السادسة (الدولة السعودية الاولى والثانية).



ـ آنية تيماء، القرن التاسع قبل الميلاد من الفخار.

ونجران، وحباشة. وفي نهاية هذه القاعة هناك معلومات عن حادثة الفيل، التى وقعت في السنة التى ولد فيها الرسول [صلى الله عليه وسلم] عام ٥٧١م، بعد ذلك ينتقل الزائر عبر سلم كهربائي يصعد بالزائر الى الطابق الأول حيث القاعة الرابعة.

ويتم التوضيح بزيارة تخيلية على برنامج حاسب آلي يوضح نظام الري - قراءة مسجلة للمعلقات العشر ترافق النصوص المعروضة على برنامج حاسب آلي.

القاعة الرابعة: البعثة النبوية الشريفة :

تمثل الفترة المعاصرة لميلاد الرسول [صلى الله عليه وسلم] الى تاريخ هجرته الى المدينة المنورة، وتبدأ القاعة بصورة لجبل الرحمة، ثم شجرة نسب الرسول [صلى الله عليه وسلم] وآل بيته، ثم تستعرض لوحات القاعة سيرة النبي [صلى الله عليه وسلم] من بداية نشأته في بني سعد ثم رحلته الأولى إلى الشام في صغره، ثم عمارة قريش للكعبة بعد أن تهدمت بعض جدرانها بفعل السيل، ثم مبعث الرسول [صلى الله عليه وسلم] والأحداث التى جرت بعد ذلك، ويوجد في نهاية القاعة جسر على جداره لوحة من السيراميك المزين برسوم تجريدية تحكي أبرز أحداث هجرة النبي [صلى الله عليه وسلم] بداية من خروجه من مكة الى غار حراء في جبل ثور، ثم مروراً بطريق الساحل ومحاولة الكفار اللحاق به وقصة سراقة بن مالك المشهورة ثم مرور النبي [صلى الله عليه وسلم] وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه بخيمة أم معبد، ثم وصوله الى قباء وتأسيس مسجد قباء قبل أن يصل إلى المدينة المنورة.

وهناك (مؤثرات صوتية رمزية توحي بأحداث السيرة يسمعها الزائر أثناء عبوره جسر الهجرة النبوية الشريفة).

القاعة الخامسة: الاسلام والجزيرة العربية :

تمثل تاريخ الجزيرة العربية في الفترة الممتدة من وصول النبي [صلى الله عليه وسلم] مهاجرا الى المدينة الى ما قبل قيام الدولة السعودية الأولى. وتشمل صدر الاسلام وعهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية وفترة الدويلات المستقلة ثم العهد المملوكي والعثماني، ومن المعروضات في هذه القاعة آثار من مدينة الربذة، ونماذج من الأسلحة الإسلامية والمسكوكات والكتابة في العهود الإسلامية المختلفة والعلوم الإسلامية، والموضوع الأول في هذه القاعة يختص بالعهد المدني من سيرة الرسول [صلى الله عليه وسلم] الذى يبدأ من وصوله [صلى الله عليه وسلم] الى المدينة المنورة وينتهي بفتح مكة المكرمة.

ثم يأتي عصر الخلفاء الراشدين وجهودهم في الفتوحات الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية وحفظ القرآن الكريم وجمعه، ثم تستعرض أهم الملامح في الدولة الأموية والحياة في عهدها وفيها معروضات لآنية ومسكوكات كانت متداولة في تلك الفترة ونماذج لطرز البناء، كما خصصت منطقة مستقلة من القاعة تعرض الحضارة الإسلامية وازدهار العلوم في العهدين الأموي والعباسي بشكل عام، يلي ذلك موضوع الدولة العباسية الذي يشمل معروضات معمارية، ومجسمات

تبرز النواحي المعمارية في الربذة وقصور المدينة وميناء عثر والمابيات وكلها مدن مهمة ازدهرت في الجزيرة العربية في العهد العباسي، وضمن جناح مستقل يعرض فن الخط العربي وتاريخ تطوره ونماذج لأنواع الخطوط العربية من خلال عدد من الشواهد والنقوش الحجرية التى يرجع بعضها الى القرن الثاني الهجري، ويختص القسم الأخير في القاعة بفترة المماليك والعثمانيين حيث يشتمل على مجسمات لمبان اثرية مثل قلعة الأزلم.

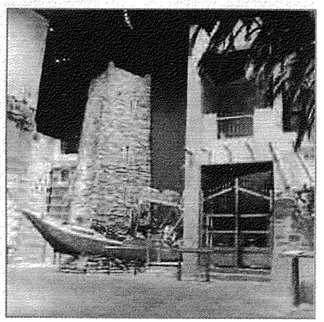
ويعرض المتحف زيارة تخيلية لمدينة الربذة على برنامج حاسب آلي في قاعة عرض ـ فيلم عن تطور العلم والحضارة وإسهامات العلماء المسلمين ـ ثلاثة مجسمات ثلاثية الأبعاد لمواقع غزوات بدر وأحد والخندق، تسلط عليها مؤثرات بصرية وسمعية تشرح أحداث تلك الغزوات.

القاعة السادسة: الدولة السعودية الاولى والثانية :

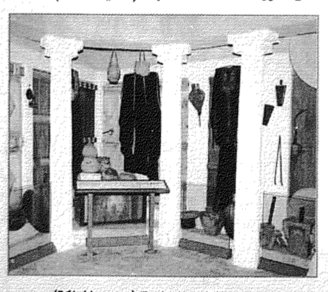
تقدم القاعة عرضا متكاملا للدولة السعودية الأولى فتظهر حالة الجزيرة العربية في بدايات القرن الثاني عشر الهجري، ثم عرض عهد الإمام محمد بن سعود، يلي ذلك معروضات تبين العادات والحياة الاجتماعية التى سادت في تلك الفترة ويتبع ذلك استعراض لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والميثاق الذي عقده مع الأمير محمد بن سعود حاكم الدرعية، كما يشمل الجناح عرضاً لمدينة الدرعية تبين ظهور الدرعية وموقعها ومجسماً كبيراً للدرعية يظهر شوارعها ومساجدها وأسواقها ومزارعها.



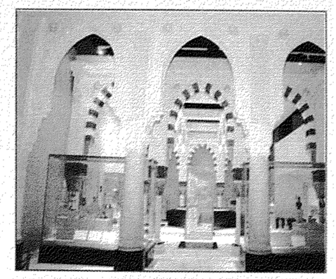
ـ من معروضات القاعة السابعة (توحيد المملكة).

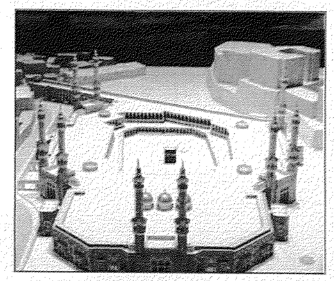


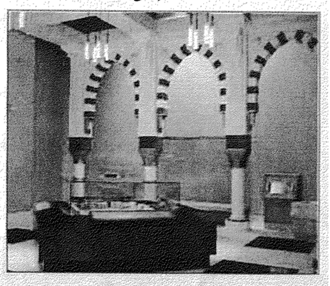
ـ من معروضات القاعة السابعة (توحيد المملكة).



ـ من معروضات القاعة السابعة (توحيد المملكة).


- من معروضات القاعة الثامنة (الحج والحرمان الشريفان).


- من معروضات القاعة الثامنة (الحج والحرمان الشريفان).


- من معروضات القاعة الثامنة (الحج والحرمان الشريفان).

ثم تستعرض القاعة تاريخ الدولة السعودية الثانية من خلال بعض الوثائق والمعروضات التى تشير الى قيام الدولة السعودية الثانية على يد الإمام تركي بن عبد الله، واختيار الرياض عاصمة.. وفي الجناح مجسم يظهر الرياض آنذاك، وأسوارها، وأنماط أبنيتها، وشوارعها، ومعروضات تتكون من بوابة قديمة من الرياض ونماذج أسلحة ومعدات حربية، وتختم هذه القاعة معروضاتها ببعض الوثائق والصور التى تبين جانباً من حياة الملك عبد العزيز بعيداً عن مدينته التى نشأ فيها، وما عاناه من الشدائد في الفترة التى سبقت استرداده للرياض.

القاعة السابعة: توحيد المملكة :

تمثل الدولة السعودية الحديثة التى أسسها الملك عبد العزيز رحمه الله بداية من استرداده مدينة الرياض في الخامس من شوال عام ١٣١٩هـ. وتحوي العديد من المعروضات إضافة إلى قاعة فيلم توحيد المملكة، وتعرف القاعة بجهود الملك عبد العزيز التى بذلها في توحيد المملكة منذ استعادة مدينة الرياض وانتقاله بعد ذلك إلى توحيد نجد ثم الأحساء ثم عسير وحائل ثم الحجاز ومنطقة جازان وباقي مناطق المملكة، ويبدأ عرض القاعة بنشاط الملك عبد العزيز في توطين القبائل البدوية في هجر حديثة، ويلي ذلك معروضات أخرى عن الحياة اليومية في مدينة الرياض ونجد ومعلومات تاريخية مكتوبة عن الحياة الاجتماعية في الحضر وعن الحياة في البادية والمناطق الزراعية، كما تستعرض القاعة السمات الاجتماعية والتراثية لسكان نجد والحجاز والمنطقة الشرقية وحائل وعسير وتهامة، كما تقدم القاعة عرضاً وثائقيا لاكتشاف النفط في

المملكة العربية السعودية، وأثر ذلك في نهضة البلاد إضافة إلى بعض المعدات القديمة المستخدمة في استخراج النفط.

ويتم عرض (فيلم عن توحيد المملكة يعرض ضمن قاعة دائرية مجهزة بمؤثرات حديثة - ثلاثة أفلام عن قصة اكتشاف البترول وتطور صناعة النفط في المملكة).

القاعة الثامنة: الحج والحرمان الشريفان :

تمثل تاريخ الحرمين الشريفين ورحلة الحج عبر القرون، وأول ما يظهر في القاعة مجسم لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة.. ثم عبر ممر دائري تعرض طرق الحج القديمة من خلال مجسَّمات وشواهد أثرية لعلامات الطرق، ومواد أثرية خلفها الحجاج وخرائط لأهم طرق الحج القديمة التى تبدأ بطريق الحج الشامي، ثم طريق الحج العراقي المشهور بدرب زبيدة، ثم طريق الحج المصري، وأخيرا طريق الحج اليمني بالإضافة إلى موانيء وطرق الحجاج البحرية، ثم ينتهي الممر الى جناح الحرم المكي الشريف ، الذي يبدأ موضوعه بالمواقيت المكانية، ويتوسط الجناح مجسم للحرم المكي الشريف بعد التوسعة السعودية الثانية في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - رحمه الله - وتتنوع المعروضات لتشمل نماذج أثرية وأدوات حديثة لصناعة كسوة الكعبة المشرفة بالإضافة الى اثار حجرية ومشغولات نحاسية من عمارات

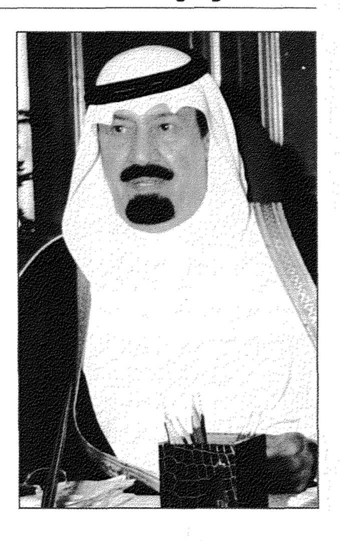


- لوحة جدارية الفاو، القرن الثاني - الثالث الميلادي.

المسجد الحرام القديمة ويعرض الجناح نموذجاً لكسوة الكعبة المشرفة يتمثل في ستارة الكعبة بالإضافة إلى احد أبواب الكعبة الأثرية ويستعرض الجناح تاريخ مكة المكرمة والكعبة المشرفة.

اما بالنسبة لجناح الحرم المدني الشريف فيحوي مجسماً للحرم المدني الشريف بعد التوسعة السعودية الثانية، كما تحوي خزائن الجناح قطعاً معمارية ونقوشاً قديمة من آثار عمارة المسجد القديمة بالإضافة إلى مصاحف ومخطوطات قديمة وآنية ومسارج أثرية استخدمت لخدمة عمار المسجد النبوي الشريف، ويعرض الجناح تاريخ عمارة المسجد النبوي الشريف منذ أن أسس قواعده رسول الهدى سيدنا محمد {صلى الله عليه وسلم} وعمارته المتعاقبة عبر العصور الإسلامية الى عصرنا الحديث ثم ينتهي جناح الحرم المدني الشريف الى ممر دائري يستعرض تاريخ رحلة الحج عبر العصور الإسلامية المتعاقبة.

كما نود الاشارة الى ان المتحف له انشطة عديدة (تثقيفية وتعريفية) منها:
رسالة المتحف .. وهي نشرة فصلية تصدر عن المتحف صدر منها حتى الآن مجموعة من الأعداد منها (التربية المتحفية). مشروع المتحف الوطني لثقافة الطفل ٢٠٠٤م
اعجوبة الرمال (دليل الاسرة للمتحف الوطني ... ١٤٢٤هـ
وهذا بالاضافة الى الندوات والمعارض التي يقوم بها المتحف .



تبايعك العروبة وهي تزهو

أيا ملكا غدا قطبا رفيعا
أبانت مجد رفعته الأناة
ويا من يخدم الحرمين عزا
ويا من زينته المكرمات
أتاك الشعب من كل الفيافي
تبايعك النفوس الطيبات
ف «عبد الله» للإسلام حصن
منيع لا تزعزعه العداة
فجاز بعدله حقبات سبق
كبت فيها الجياد الصافنات
نبيل الأصل ذو همم وحزم
نمته لنا نفوس زاكيات
سليل مهذب، طهر، زكي
همام للخطوب به انبتات
أخو همم سمت قمم المعالي
فأمست دونهن النيرات
تشيد للرشاد به مقام
وقامت للسداد به قناة
فذلل كل إرهاب بعزم
تزول به الجبال الشامخات
وأحيى للفلسطيني أمالا
وقد أودى بمهجتها الممات

مبادرة وليدة حكمة
وإلهام تليها بادرات

ليرجع للفلسطيني ديارا
قد اغتصبت وساكنها الطغاة

تهاب شبا عزائمه الرزايا
وتخشى من علاه النائبات

لكل من خلال علاه حسن
وأحسنها العزائم صادقات

ربيع المجد، خصب الجود، ندب
وصول الرحم إن قطعت صلات

سليل أكارم هم للبرايا
رعاة لا تقاس بهم رعاة

بحور فاض منهم كل خير
ومن جدواهم اخضر النبات

فللجانين حبهم نجاة
وللناجين قربهم حياة

وهم لصفات كل هدى صفات
وهم لذوات كل ندى ذوات

و«عبد الله» ابن بني سعود
له أنوار علم مشرقات

محمد المثلوثي

تونس

همام همه فيض الأيادي
وهمته المزايا الباهرات

و«عبد الله» واصل نهج «فهد»
فضاقت دون عزمته العداة

بدت منه المآثر ليس تحصى
وأكثرها كنوز خافيات

سمت بين الفعال له فعال
وفاقت في الصفات له صفات

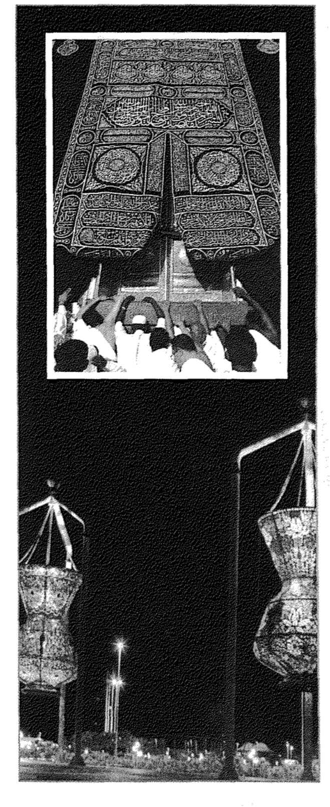
وزانت عرش كل علا وعلم
مناقب كالكواكب نيرات

له الأمراء دانت حين جاءت
تبايعه المشائخ والولاة

أطاعت أمره العظماء حتى
أطاعته الأمور الجامحات

هو البحر الذي تهمى يداه
إذا ونت الغيوث الممطرات

تبايعك العروبة وهي تزهو
كما تزهو بزينتها الفتاة





مـــلأت كُـــؤوسي بـالـهَـــوى ودنَـاني

فـعكفْتُ أفـرغُـهـا بلا حُـسْـبـانِ

ونصـبتُ مِن لألائهـا لي خـيْـمـةً

ونسـيتُ في أحْـضـانـهـا أحـزاني

وحـملتُـهـا حُلُماً وشـوقـاً في دمي

وطبـعـتُـهـا في مُـقلتي ولسـاني

وعـزفتُ تضْـحـيـتي لهـا أُنشـودة

وجـعلتُ إخـلاصي لهـا عُنْواني

مـا ذُقْتُ أشـهى من رحيقِ حديثـهـا

ينسـابُ رقْـراقـاً إلى شـِريـاني

***

يـا أنْتِ يـا بحْـــراً تطاول مـــدُّهُ

بلَّتْ عـــذُوبَتُـــهُ صـــدى الشُّطآنِ

لم تُنْجب الدُّنْيـا كـمـثْلِكِ حُـرة

حـــسناء في حُلل من الإيمان

تهفُـو الجُمُـوعُ إلى رحابك خُـشـعاً

وقُلُوبُهُم ظمـأى إلى الإحـسـانِ

في كلِّ أرض ينتـــمي لك بالندى

قـلبٌ وتَـهـــتِفُ بـالـعـطـاء يـدان



أحمد سالم باعطب
جـــدة

الحُبُّ أنت رســـمت لي أبعـــادهُ
فـــعـــرفتُ مـــيـــلادي به ومكاني

وأذنْتُ أن تغْـزُو طُيُـوفُك مُـهْـجـتي
أنَّى تشـاءُ وتَسـتَـبـيح زمـاني

وتقــود أخـيلتي إليك أسـيـرة
وتجـوب إحـسـاسي بلا اسـتـئذان

إن لفـني ليلُ النَّوى بعـــبـــاءة
من جلْده وبحــضنهِ أضـــواني

تعـتلُّ سـاعـاتي فـيـثـقُلُ خطوُها
وتشبُّ نارُ الشـوقِ في أجــفـاني

فـإذا مُناي البـيضُ شـاحـبـةُ الرؤى
وقـصـائدي ضـربٌ من الهـذيان

***

يا أجـمل الأحـلام في دنيـا الهَـوىَ
يا أقــدَسَ الأســمــاء في الأوطانِ

هـاروتُ لنْ يقــوَى بكلِّ طقــوسِــهِ
في السِّحْر أن يمحُوكِ من وجداني

يا مـوطناً مـا في الوجـود كـمـثله
وطنٌ يصـُـونُ كـرامــة الإنســانِ

حـمل الرِّسـالة والقـداسـة والهُـدى
وأضـــاء منهُ مـشـــاعل القـــرآنِ

تنـأى عن الفـوضى وإنْ شـغُـفتْ بهـا
أممٌ تقـدسُ شـرعـة الحـيـوان

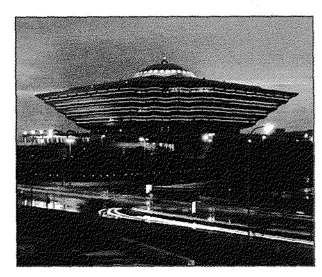
تهــوي القلوبُ وهي رضـــيَّـــةٌ
تخـتـــالُ في رغــد وفي اطمــئنان

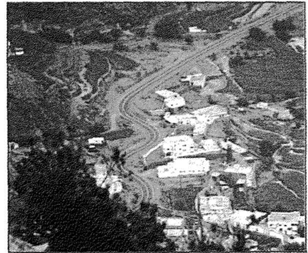
***

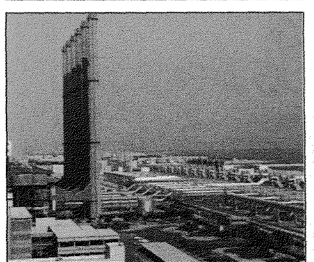
يا مكَّـتي كلُّ المدائن والقُـــرى
إلاكِ تغْــرقُ في دُجى النســيــان

شمسُ الحضارة منكِ أشرق ضوؤُها
فــالمشــرقــان إليك يســتــبــقــان

وأنا بحــبِّك مُــدْمنٌ بلْ مُــدنفٌ
فــلأنتِ تاريخي وأنتِ كــيــاني







وطني - فديتُكَ - خالقي أوصاني
بالذود عن وطني مدى الأزمان
فلقد رواك جدودنا بدمائهم
فوهبتهم من أنفس الأثمان
جسدي ثراك .. ومن ثراك ترعرعت
أجسادنا يا أقدس البلدان

* * *

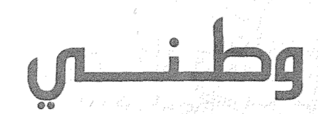
وطني وفخري إنني أحيا هنا
في مهبط التنزيل والقرآن
وبقرب خير الأنبياء محمد
صلى عليه الله في الفرقان
وطني وفخرك أن فيك رسالة
ختمت بحق سائر الأديان

* * *

صفحاتك الغراء تبقى كوكباً
فتضيء تاريخاً بلا عنوان
كل الحضارات التى قد عشتها
قبل الرسالة في طوى النسيان
قد كنت إظلاماً فصرت مشعشعاً
بالأمر من رب لذي الأكوان

* * *

وطني .. فإن الله قيّض نخبة
جعلتك نبراساً على الأوطان





مروان المزيني

المدينة المنورة

عبد العزيز ومن أتى من بعده

قد جسدوا التشريع في الأركان

واذا بعبد الله يسعى سعيهم

كيما تعيش برفعة وأمان

* * *

وطني بنوك بهم وفاء خالص

سكن القلوب بوافر الإحسان

ولهم نشيد نابع من حبهم

في مدح تربك راقص الألحان

ولهم بريق ساطع ما مثله

من نورك المغزول بالألوان

* * *

قف يا زمان فأنت فينا شاهد

لتقول ما شاهدته .. بعيان

ولتعلم الدنيا بأن بموطني

خير البقاع ومالها من ثان

وبها يزيد الفضل أضعافاً لمن

تبع الطريق على هدى الرحمن

* * *

الكعبة الغراء قبلتنا التي

نهفو إليها عند كل أذان

ولمن تضلّع زمزماً فبشربها

تُقضى حوائج ذلك الإنسان

ولواقفي عرفات يوم حجيجهم

وعد من المنان بالغفران

* * *

ولطيبة الشماء في جنباتها

سكنُ النبي، وروضة بجنان

وبها قباء وركعتان بعمرة

من غير ترحال مع الركبان

وبها البقيع ورحمة موصولة

لمن استفاض الروح من جثمان

* * *

وطني .. ولو خيّرتُ كل الأرض .. لا

ما كان مثلك سائر الأوطان

وطني ـ فديتك ـ لا عدمتُ خطاي في

حلل من الديباج والتيجان

وطني وددت العمر أن تبقى هنا

في باطن الأوداج والشريان

* * *

في ظل أفياء الهدى وبظلّه

نُسقى به من رحمة الرحمن

منهجية التواصل في مقدمات التفاسير

□ المقدمة خطبة الكتاب، وهي العتبة التى يمر القارىء عبرها إلى مجاهل الكتاب وبواطنه، ولم تكن المقدمة في موقع البداية في المصنفات إلا لكون المقصد منها بيان المنهج أو رسم معالم الكتاب لهدي القارىء نحو قراءة حسنة إيجابية[1].

ولما كان الخطيب يلقي في الناس خطبته يرمي عبرها إلى التنوير والتوجيه، كانت المقدمة - وهي خطبة الكتاب في عرف القدماء - وقفة لتوجيه القارىء وتنويره بما يمكن أن يتسلح به من أدوات أو معارف تفتح له آفاق المعنى والدلالة بين دفتي الكتاب، كما تقدم له إفادات وإشارات إلى دوافع التأليف وخصائص المنهج، وربما حرصت المقدمة على بيان تسمية المؤلف والمقاصد من التأليف.

إنها قول أو خطاب واصف يقدم نفسه «بوصفه هرمينوطيقا أولية» - بتعبير ((dominique julien تطرح سلطة المؤلف - القارىء، وتجعل نفسها صلة وصل بين الذات الكاتبة صاحب سلطة النص، وبين القارىء المفترض، تساعد في التعرف على محيط النص والإلمام بمقاصد مؤلفه وكيفية تلقيه من قبل القراء.

إن ممارسة هذا الخطاب أصيلة في الثقافة الإسلامية العربية، تكاد تشكل شكلا ثقافيا قائما بذاته، تظهر تجلياته في مقدمات المصنفات والرسائل والمدونات الشعرية وكتب النقد والفقه وغير ذلك من الحقول المعرفية في التراث الإسلامي العربي.

وقد تطورت هذه الممارسة الثقافية في الكتابات العربية الحديثة على غرار الكتابات الغربية لتأخذ أبعادا جديدة تنسجم والسياق الثقافي المعاصر وبالنظر الى مجمل المقدمات من حيث الوظائف المسندة إليها في التأليف العربي بشكل عام، نجدها لا تكاد تخرج عن إحدى الوظائف الآتية:

١ - الوظيفة التعريفية حيث يتم التعريف بالكتاب أو بصاحبه، أو بأسباب تأليفه.

٢ - الوظيفة التحليلية النقدية وتخص المقدمات التى تبدي ملاحظات وإشارات حول مضامين الكتاب وأبوابه، وتنبه إلى قيمتها العلمية والثقافية.

٣ - الوظيفة التوجيهية وذلك في المقدمات التى تحدد وجهة التأويل والقراءة في الكتاب.

٤ - الوظيفة التجنيسية حين ترمي المقدمة إلى بيان جنس الكتاب أو خصائص نوعه.

٥ - الوظيفة الميتالغوية وتحول المقدمة إلى خطاب نقدي حول المكونات الفنية أو الثقافية أو المنهاجية خاصة في الكتابات الإبداعية.

٦ ـ الوظيفة الفكرية وذلك حين توجه المقدمة خطابا ذا حمولة ومقاصد تعكس موقفا ما تجاه قضايا ثقافية أو سياسية أو اجتماعية.

فإذن يفترض منذ البداية أن المقدمة تمثل وساطة في القراءة بين القارىء والمؤلِّف (بفتح اللام). إنها ممارسة مرتبطة بوجود المؤلف غير منفصلة عنه، توجد حول النص وتدور في فضاء المصنف وليس خارجه، وهي بذلك جزء من النص تمده بقوة قصدية وظيفية تصير ملازمة له. ومن هذا المنطلق يمكن النظر إلى المقدمات بشكل عام على أنها خطاب ينطوي على استراتيجية يشيد بها المؤلف العلاقة المفترضة بين النص والقارىء، ولا ريب في أن هذه الإستراتيجية في القراءة تكتسي أهميتها وقيمتها المعرفية لما يتعلق الأمر بخطاب المقدمات في تفاسير القرآن الكريم بوصفها تؤدي وظيفة الوساطة في فهم كلام الله عز وجل والتعامل معه.

وعليه سأحاول التركيز على نماذج من التفاسير القديمة لتحديد معالم «ميثاق القراءة» الذي يؤسسه المفسرون عبر مقدماتهم وهم يرمون إلى الاهتمام بالقارىء ومخاطبة فكره وقلبه في سبيل تواصل أفضل. وسأخص بالنظر مقدمات التفاسير الآتية:

ـ جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفي سنة ٣١٠هـ.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في

د. أحمد المنادي

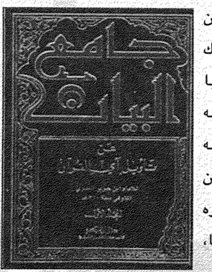
المغرب

وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري، المتوفي سنة ٥٣٨هـ.

ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ، المتوفي سنة ٦٧١هـ.

١ ـ مقدمة «جامع البيان» وهاجس التواصل :

يبدو الإمام الطبري في مقدمة تفسيره أكثر وعيا بأهمية المقدمة بوصفها فضاء يرسم فيه مجمل المكونات المعرفية للمنهجية التى اتبعها في بناء تفسيره للقرآن الكريم. فعلى عادة المؤلفين قديما، كان لابد من استهلال الكلام بعد بلاغة الحمدلة والشكر، بمسألة دوافع التأليف ومقاصده، وتأتى الاستجابة للقارىء في زمان المؤلف وما يحتاجه من معرفة لمواجهة كل تحديات عصره في مقدمة هذه الدوافع «ونحن في شرح تأويله (أي القرآن الكريم) وبيان ما فيه من معانيه منشؤن إن شاء الله ذلك كتابا مستوعبا لكل ما إليه الحاجة من علمه جامعا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيا،



المقدمات جسر تواصل بين القارىء والنص المقروء

ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة في ما اتفقت عليه الأمة واختلافها في ما اختلفت فيه منه»[٢].

إن إغراء القارىء عند الطبري يقوم على استراتيجية أهم عناصرها:

- الحاجة إلى التفسير (سوسيولوجيا القراءة في النظريات الحديثة).
- الشمولية في التفسير (الموسوعية).
- توحيد القراءة (وذلك ببيان إجماع الأمة واختلافها).
- تحقيق الاكتفاء في مجال القراءة (إذ يصير بإمكان القارىء الاستغناء عن غير كتاب الطبري في مجال التفسير).

إننا بإزاء مقدمة منهجية تشير إلى الأهداف الكبرى التي يتوخاها المؤلف من مشروعه، وهي أهداف ترمي بالدرجة الأولى إلى التواصل مع القارىء وتزويده بالمعرفة التى تعوزه في تعامله مع القرآن الكريم وفي تمثل معانيه وتنزيل مقتضياته، وبيان ما يشترط في القاريء ليكون تلقيه للخطاب القرآني ولقراءته له في مستوى التلقي الجيد.

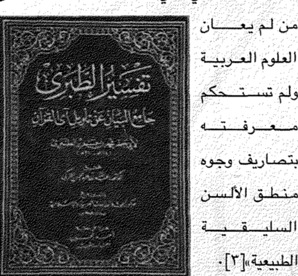
** شروط التواصل الجيد من منظور الطبري:

يعتقد الطبري في مقدمة تفسيره أن مصدر سوء الفهم في تلقي القرآن الكريم ماثل في غياب جملة من المواصفات والشروط التى يحصل مع غيابها الالتباس والتشويش في عملية التلقي والتواصل. ولعل أهم هذه الشروط:

أ- معرفة العلوم العربية:

ويرتبط هذا الشرط بطبيعة لغة القرآن الكريم وما تحمله من أوجه دلالية وبلاغية وإعجازية.

وقد جاءت مختلف المعارف في التراث الإسلامي العربي لخدمة تفسير القرآن الكريم وشرحه وتأويله، مما جعل كل الخطابات التفسيرية التى أنشئت حول النص القرآني وتحديدا عند المفسرين مجالا لتقاطع حقول معرفية مختلفة وتداخلها، فصار بذلك علم التفسير علما موسوعيا يوظف مدونات معرفية كثيرة لتقديم دلالات النص القرآنى إلى القارىء بشكل يتماشى ومقاصد المفسر، ولذلك كانت هذه المسألة أول ما بدأ به الطبري في مقدمته بعد الإشارة إلى دواعي التأليف «وإن أول ما نبدأ به من القيل في ذلك الإبانة عن الأسباب التى بها البداية أولى، وتقديمها قبل ما عداها أحرى وذلك البيان عما في آي القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان العلوم العربية ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية»[٣].



ب ـ البيـــان :

يعد البيان في تصور الطبري آلية التواصل الفعال عند الإنسان، لأنه به يتواصل مع الأشياء في محيطه ويعبر عن أفكاره ومشاعره وبلوغ أهدافه وتحقيق كل حاجياته. وكلما كان الكلام قائما على أساس من البيان كان وصوله إلى فهم السامع أسهل وأيسر. فلولاه ما تواصل الناس وما أبانوا عن إراداتهم، ولذلك اعتبره الطبري نعمة عظيمة وفضلا من الله على عباده.

«إن من عظيم نعم الله على عباده وجسيم منته على خلقه ما منحهم من فضل البيان الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون وبه على عزائم نفوسهم يدلون ، فذلل به من الألسن وسهل به عليهم المستصعب، فبه إياه يوحدون وإياه به يسبحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون وبه بينهم يتحاورون فيتعارفون ويتعاملون»[٤].

وعلى أساس البيان يكون التفاضل بين الناس في درجات التواصل ومستوياته، وبما أن البيان قاعدة التواصل فإن أعلى مستوياته ما كان يعكس مراد المرسل ويصل إلى فهم المرسل إليه دون أي تشويش، «فلا شك أن أعلى منازل البيان درجة وأسنى مراتبه مرتبة أبلغه في حاجة المبين عن نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه»[٥].

إن درجات التأثير في الخطاب ترتبط بمستوى البيان عند المتكلم وحدود سلامته من عوائق التواصل، ذلك أن الناس في البيان متفاوتون، فقد «جعلهم جل ذكره في ما منحهم من ذلك طبقات ورفع بعضهم فوق بعض درجات، فبين خطيب مسهب وذلق اللسان مهذب، ومعجم عن نفسه لا يبين، وعَيي عن ضمير قلبه لا يعبر، وجعل أعلاهم فيه رتبة وأرفعهم فيه درجة أبلغهم في ما أراد به بلاغا وأبينهم عن نفيه به بيانا»[٦].

ينم هذا الكلام عن طبيعة الرؤية التى يحتكم إليها الطبري في نظرته إلى التلقي والتواصل، إنها رؤية بيانية تؤطرها الفلسفة العامة التى ينظر بها من خلال ثقافته العامة وشخصيته الفكرية الى الكون والإنسان والحياة والمجتمع، «إنها رؤية بيانية تتفاعل وتتداخل في تكوين مفهومها عناصر لغوية ودينية ومذهبية»[٧].

ولا شك أن البلاغة العربية بمختلف أبوابها لم تنشأ في معزل عن الفضاء الثقافي المشحون بالأبعاد الدينية والمذهبية والثقافية سمة العصر لذا كان للاختلاف والمغايرة الأثر الجلي في خطابات البلاغيين وتلقيهم للنصوص، الأمر الذي امتد إلى حقل التفسير ليتأسس بدوره على القراءة المغايرة.

ت ـ مراعاة المرسل إليه :

حظي المرسل إليه في العملية التواصلية باهتمام مركزي في الثقافة الإسلامية العربية، وهيمن على تفكير المؤلفين خاصة في الحقول المعرفية المرتبطة بالنص القرآني، فيتم التركيز عليه

المقدمة عند الطبري تركز على الموسوعية وتحقيق الاكتفاء

إفهاما وتأثيرا، مما جعلهم يحرصون على الانسجام مع أفق انتظاره وتوقعاته، ويسخرون لذلك كل الوسائط الممكنة لغوية كانت أم سيميائية.

ولذلك يأتي إفهام المتلقي في درجة أعلى من وظائف الكلام، وما دامت النصوص الدينية موجهة إلى المتلقي بقصد الفهم والتمثل، لزم أن يكون القرآن الكريم أسمى أصناف الكلام وأكثرها تأثيرا وفعالية في المتلقين على الإطلاق، «فإن كان ذلك كذلك، وكان غير مبين منا عن نفسه من خاطب غيره بما لا يفهمه عنه المخاطب، كان معلوما أنه غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحدا من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولا برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه، لأن المخاطب والمرسل إليه إذ لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء، إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئا كان به قبل ذلك جاهلا»[٨].

التلقي والتواصل عند الطبري رؤية بيانية تؤطرها رؤيته للكون والانسان والحياة والمجتمع

وإذا كان المرسل إليه محل التكليف والمستهدف في الخطاب القرآني، فإن الطبري يتوجه بالدرجة الأولى إليه بحيث يكون الخطاب على قدر كاف من الوضوح والبيان لتحقيق المراد والقصد، أي التأثير في المتلقي وتحصيل الفائدة، وتبعا لذلك يأخذ المتلقي موقعه المركزي ضمن استراتيجية التواصل، وهو ما يفسر تأكيد الطبري على مفاهيم تقريب المعاني ووضوح الخطاب، بل «يشترط شروطا في الخطاب الشارح أو اللغة الواصفة، ومن ثم كان يلح على أن أولى العبارات أن يعبر بها عن معاني القرآن أقربها إلى سامعيه»[٩].

ث ـ معرفة أساليب لغة العرب وألسنها :

يقصد بالأساليب طرق التعبير الممكنة التى يختارها العرب في لغتهم لأداء المعنى، ومعروف أن اللغة العربية زاخرة بكثير من الظواهر الأسلوبية التى تفيد تماسكها وانسجامها على مستوى تصريف المعنى وبناء الدلالة، بحيث يتم توظيف وسائل وآليات لغوية وأسلوبية لتأسيس علاقات دلالية بين أجزاء الكلام وعناصره.

ولما كانت لغة القرآن الكريم موافقة للغة العرب تركيبيا وأسلوبيا ودلاليا، كان لابد أن تكون بدورها حافلة بكل المظاهر المختلفة لأساليب اللغة العربية، وفي هذا السياق يقول الطبري: «فإن كان ذلك كذلك فبين إذ كان موجودا في كلام العرب الإيجاز

والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار والتردد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكتابة عنها، والإسرار في بعض الأوقات والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر وعن العام في المراد بالخاص الظاهر.. وتقديم ما هو في المعنى مؤخر.. أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد {صلى الله عليه وسلم} من ذلك في كل ذلك له نظير وله مثيل وشبيه»[١٠].

إن الوضوح والإنسجام المثبتين للقرآن الكريم مطلوبان في كل نص شارح أو مفسر له درءا لكل اضطراب وتفكك وغموض، وسعيا إلي الإبانة والإفهام، وتبعا لشرط المعرفة بأساليب اللغة العربية، يشترط الطبري في المتلقي معرفة إضافية بلغات العرب وألسنها.

وقد اضطر إلى الوقوف طويلا على بيان لغات العرب انطلاقا من قول رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» مستفيضا في ذكر النصوص والأخبار بغرض إثبات وحدة اللغة في الخطاب القرآني وانسجامها مع ألسن العرب، وحتى إن وردت ألفاظ يشتبه في أنها من الفارسية أو الرومية أو الحبشية، فإنما ذلك من قبيل الألفاظ المشتركة بين اللغات الأخرى واللغة العربية.

وهنا يمكن أن نتصور صعوبة الأمر بالنسبة للمتلقي، إذ كيف له أن يعلم بالألسن السبعة التى نزل عليها القرآن الكريم؟ وحتى لا يقع الاعتراض على شرط معرفة اللغة العربية دون بقية ألسنها، يزيل الطبري كل التباس في الموضوع قائلا: «فإن قال لنا قائل فهل لك من علم بالألسن السبعة التى نزل بها القرآن الكريم وأي الألسن هي من ألسن العرب؟ قلنا أما الألسن الستة التى قد نزلت القراءة بها فلا حاجة بنا إلى معرفتها لأن لو عرفناها لم نقرأ اليوم بها مع الأسباب التى قدمنا ذكرها»[١١].

القراءة المغايرة واحدة من سمات العطاء الفكري لذلك العصر

ج ـ معرفة مستويات الدلالة في القرآن الكريم:

إن الحديث عن مستويات الدلالة في القرآن الكريم يعني وجود مراتب في تلقي النص القرآني، فبالرغم من كونه أعلى درجات البيان مطلقا إلا أنه ـ حسب الطبري ـ ليس في مستوى واحد من الفهم والقراءة.

وتبعا لذلك يمكن تصنيف المتلقي حسب مراتب الفهم وأوجه التأويل الآتية:

ـ وجه تعرفه العرب من كلامها، إذ تكفي معرفة اللغة العربية وأساليبها لتأويل صنف من النصوص القرآنية، ذلك «أن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن وذلك إقامة إعرابه ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم»[١٢].

كشاف الزمخشري جاء منسجما في منهجه ومقاصده مع النظام الثقافي الذي ينتمي إليه

- وجه يحتاج في المتلقي إلى واسطة في التأويل، إذ «لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله [صلى الله عليه وسلم] له بتأويله بنص منه عليه أو بدلالة قد نصبها دالة على تأويله»[١٣].

- وجه خاص بالله تعالى دون غيره، ولا يجوز الخوض فيه، «وإن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار»[١٤].

بهذه الأوجه الثلاث يمكن تصور العناصر الأساسية في منظور الطبري لنظرية التأويل.. ففيها إقرار بأن الدلالة في الخطاب القرآني مرتبطة بطبيعة المتلقي ومقامه، ومن ثم لابد من مراعاة حدود اشتغال آلية التأويل أو إعمال الرأي من جهة المتلقي. ويترتب عن عدم مراعاة المتلقين لحدود مجالات التأويل شبهة القول بالظن في دين الله، بحيث إن «ما كان تأويل آي القرآن الكريم الذى لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله [صلى الله عليه وسلم] عليه أو بنصية الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه وإن أصاب الحق فيه فمخطيء فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه»[١٥].

٢ـ الزمخشرى والقارىء النموذجي :

يستمد أبو القاسم الزمخشري شرعية تأليفه للكشاف من القارىء، استجابة لحاجته وإلحاحه، لذلك لا يمكن الحديث عن دواعي التأليف عند الزمخشري إلا باستحضار قراء عصره، وكأنه ينظر إلى تفسيره بوصفه ضرورة واقعية تقتضيه متطلبات الجمهور.

إنها سنة دأب عليها المؤلفون في التراث الفكري العربي، يستند إليها المؤلف في تبرير خطابه المنتج وإضفاء المشروعية عليه، وربما تستبطن دواعي التأليف عنده الانتقاص من المصنفات التي من جنس التفسير في زمانه «ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد»[١٦].

إن متطلبات المتلقين الذين انتصبوا أمام المؤلف، لا شك ستؤثر في تنظيم الزمخشري خطابه التفسيري، الأمر الذي جعل الكشاف منسجما في منهجه ومقاصده مع النظام الثقافي الذي ينتمي إليه (المنحى الإعتزالي).

** مواصفات القارىء الجيد عند الزمخشري :

يفترض الزمخشري أن التلقي يكون على مراتب



من حيث مؤهلات المتلقي ومقدراته المعـرفـيـة والمنهـجـيـة، والمتلقي الجـيـد في نظره يتجسد من خلال صفتين أساسيتين:

أ- القارىء العارف :

وهنا نكون بصدد الشرط المعرفي في المتلقي، فلا يتصور أن يتعاطى التفسير والتأويل إلا من هو في مرتبة الخاصة من المهتمين المتخصصين، مهتما بسائر العلوم تحقيقا وحفظا مع القدرة المنهجية على إعادة النظر والنقد في كل قراءة، ناهيك عن الضلوع في علم الإعراب.

ويحتل علما المعاني والبيان الأولوية في سلم التحصيل المعرفي، وهو الأمر الذي اشترطه في من يتصدى للنظر في القرآن الكريم، لما فيه من الحقائق المحجوبة والمعاني العميقة الشيء الكثير «فلا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحـقـائق، إلا رجل قـد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات.. فارسا في علم الإعراب»[١٧].

ب- القارىء الكاشف :

وهنا نكون بإزاء الشرط النفسي الذي لا يقل أهمية عن الشرط المعرفي. فثمة غرائز خلقية لابد منها للكشف عن حقائق النص وأسراره ولطائفه، وضمان مقبولية الخطاب لدى القراء وتفاعلهم معه.

وعملية الكشف هي القيمة المضافة في التفاضل بين أصناف المتلقين ومراتبهم «وإنما الذي تباينت فيه الرتب .. وعظم فيه التفاوت والتفاضل .. ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر ومن لطائف معان تدق فيها معان للفكر، ومن غوامض أسرار محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنهم من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم»[١٨].

إن وظيفة الكشف عن كل هذه المعاني لا تنقاد إلا لمن كانت حالته النفسية وطبائعه الخلقية مهيأة لذلك، من قبيل الإحساس النقدي وسلاسة الفكر وصفاء الطبيعة وجودة القريحة، والقدرة على فك شفرة الرموز والإيماءات، وهذه الصفات لا تكون ذات جدوى إلا بالممارسة والتطبيق، فتنشأ عند صاحبها الدربة والممارسة على أساليب اللغة وفنونها،

مواصفات القارىء الجيد عند الزمخشري: العارف الكاشف

القرطبي يقوم منهجه على الاتجاه التأصيلي المعتمد على السلف في التأويل

لذلك يشترط في المتلقي أن يكون «مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراكا للَّمْحَة وإن لطف شانها، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزا جاسيا ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر»[١٩].

٣- القرطبي ومستويات القراءة :

يحصر الإمام القرطبي القراءة في مقدمة تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» في مستويين اثنين: القراءة النبوية والقراءة العالمة.

أ- القراءة النبوية :

وهي القراءة الخاصة بالرسول [صلى الله عليه وسلم] بوصفه الواسطة المثلى في فهم النص القرآني حيث جعل الله إليه «بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا، وتحقيق ما كان منه محتملا، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه»[٢٠].

ب- القراءة العالمة :

وهي التي من اختصاص علماء الأمة لما أوتوا من العلم والمعرفة بكلام الله عز وجل، ولكن تبقى قراءتهم دون القراءة النبوية من حيث الإفهام والإبلاغ عن المراد في الخطاب القرآني إيضاحا وتبيانا «ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] استنباط ما نبه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم»[٢١].

إن تصور القرطبي لمسألة تلقي النص القرآني وقراءته جعلته ينزع في منهجه نحو الاتجاه التأصيلي معتمدا على جهود السلف في التأويل، ومن شأن ذلك أن يطمئن المتلقي المفترض لتقبل القراءات التي يشيدها في تفسيره، خاصة إذا علمنا ما للتأصيل من أهمية في مقبولية المعرفة عند المسلمين، ولذلك أخذ على عاتقه أن يكتب تفسيرا يتضمن لطائف الخطاب القرآني ومسائل إعرابه ثم بيان أحكامه وأسباب نزوله مبينا ما أشكل من ذلك «بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف»[٢٢].

ومما يحقق شرعية خطاب القرطبي وتفسيره ما سيكتشفه المتلقي من سد لثغرات كتب التفاسير السابقة كالإبهام ومشاكل التخريج والإسناد. لذا اشترط القرطبي على نفسه في تفسيره «إضافة الأقوال الى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب

الحديث، ليبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام»[٢٣].

إن تجاوز القصور المفترض في مصنفات حقل التفسير، وتبديد مخاوف المتلقين تجاه ما يتلقونه من معرفة في كتب التفاسير، يمثل قوام استراتيجية الإغراء في الخطاب المقدماتي للإمام القرطبي.

خاتمـــة :

على سبيل الخاتمة، يمكننا القول إن التأمل في الخطاب المقدماتي لتفاسير القرآن الكريم وما يحمله من إشارات ومفردات تتعلق بوضعية المتلقي ومواصفاته وشروط التلقي، تكشف لنا عن اهتمام كبير لدى المفسرين بأهمية التواصل وضرورته لضمان التفاعل بين النص القرآني والنص المفسر من جهة والقارىء من جهة أخرى. ويمكن أن نستنتج من مقدمات النصوص الثلاث التى انطلقنا منها ما يلي:

- التركيز على الوظيفة البيداغوجية للخطاب المقدماتي في التفسير.

- رصد مختلف الإشكالات الفكرية والثقافية واللغوية المستحكمة في عصر المفسر، ومن ثم الحديث عن طبيعة القارىء النموذجي المفترض، وفقا لسجالات العصر.

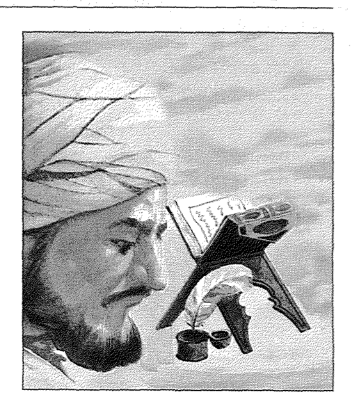
- التركيز على الإعداد الروحي والنفسي للقارىء وتأهيله من أجل بناء خطاب تفسيري يستجيب لتوقعاته وانتظاراته.

- الاهتمام بطبيعة الذخيرة التي يواجه بها المتلقي النص من قبيل الحديث عن الشروط النفسية والمعرفية والمنهجية.

- إعطاء الشرعية الواقعية والعلمية للتفسير انطلاقا من رصد النقص الذى يعتري الخطابات التفسيرية الغيرية (الإغراء لتقبل البديل) ■

الهوامش :

(١) لقد أدرك النقاد والدارسون المحدثون أهمية المقدمات فأفردوا لها دراسات لعل أهمها كتاب «جيرارجنيت» الموسوم «العتبات».
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م ص ٠٣.
(٣، ٤، ٥، ٦) م ن ص ٠٤.
(٧) محمد المالكي: دراسة الطبري للمعنى، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، سنة ١٩٩٦م ص ٤٦.
(٨) جامع البيان ص ٠٥.
(٩) محمد المالكي ص ٠٥٩.
(١٠) جامع البيان ص ٠٦.
(١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥) م ن ص ٢٣، ص ٢٦، ص ٢٦، ص٢٦، ص ٠٢٧.
(١٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل .. ط ١ ، دار الفكر بيروت ١٩٧٧م ص ٠١٨.
(١٧، ١٨، ١٩) م ن ص ١٦، ص ١٤، ص ٠١٧.
(٢٠) الجامع لأحكام القرآن، ط ٢ دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٤م ص ٠٢.
(٢١، ٢٢، ٢٣) م ن ص ٢، ص ٣، ص ٠٣.



الريادة العلمية عند المسلمين

لقد فجر الإسلام تاريخا نسب إليه في العصر الوسيط، واهتم المؤرخون بتتبع حركات الفتوح الإسلامية التى وصلت إلى حدود الهند شرقا وإلى جنوب فرنسا غربا.. على أن التاريخ الإسلامي ليس فتحا عسكريا فحسب بل هو إلى جانب ذلك حضارة متسعة باتساع الفتوح فيما بين الشرق والغرب[١].

فالإسلام الذي نادى بالتوحيد استطاع أن يشعر ذلك العالم المشتت الأطراف بوحدته، وأن يجعل هذه البيئة المترامية الأطراف تشعر بأنها تُكَوِّن حضارة واحدة يربطها سمط واحد؛ ومن الإسلام نشأت الحضارة العربية، ومن الحضارة العربية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات: سوريانيون وفرس وصائبة ومسيحيون ونساطرة ويونانيون وأقباط وعبرانيون وأتراك وذميون. ولكن بلسان عربي وفي ظل الدين الحنيف[٢].

ومن هذا المزيج الإنسانى كان الفكر الإسلامي إنسانيا أكثر منه إسلاميا!

والحقيقة أن نسبة هذا الفكر للإسلام نسبة تفتقر للدقة العلمية؛ فالإسلام منهج إلهي محدد بكتاب سماوي معجز، ومطلوب من المسلمين جميعا أن يسيروا في حياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية وفق ذلك التوجيه القرآني، إلا أن المفروض شيء والواقع شيء آخر. وكما حدث بعض الانحراف عن المنهج الإسلامي السياسي بحيث وقعت حروب بين المسلمين، فقد كان الفكر الإسلامي مرتبطا بتراثهم القومي قبل الفتح، أكثر منه ارتباطا بالقرآن والسنة.

وساعد على هذه السقطة أن المسلمين نظروا للقرآن كمعجزة موجهة للعرب فقط، فهو معجز للعرب فقط، ونسوا أن القرآن معجز للإنس والجن في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وأن نهايات العلوم قد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، كما أن منهجه العلمي التجريبي لم ترق إليه أيّ نظرية أو أيّ اجتهادات إنسانية؛ ولا أدل على ذلك من أن عصرنا

العلمي الراهن لا يستطيع أن يخالف ما جاء في القرآن الكريم من حقائق علمية..! ولو اتخذ المفكرون الأوائل من القرآن الكريم رائدا لوفروا على أنفسهم وعلى الإنسانية قرونا من البحث والرقص على أنغام السابقين من اليونان والهنود..![٣].

إسلامنا .. دين العلم والمعرفة :

لقد كان أول أثر من آثار القرآن في الفكر الإنساني اهتمامه الواسع بالعلم. قال الله تعالى: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} (سورة العلق آية/١)، فهذا أول خطاب إلهي إلى النبي {صلى الله عليه وسلم}، وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم[٤]، لأنه شعار دين الإسلام؛ ذلك أن العلم أساس التقدم والتعاون، وتبادل الخبرات والمنفعة، وقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف!.

تأمل القرآن الكريم وتدبر آياته، تجده يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون وأحداث الماضي.

ولقد اشتمل القرآن الكريم على ستة آلاف ومائتين وستة وثلاثين آية.. منها سبعمائة وخمسون آية كونية وعلمية.. احتوت أصولا وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة وما وراء الطبيعة والأحياء والنبات والحيوان وطبقات الأرض، والأجنة والوراثة والصحة الوقائية والتعدين والصناعة والتجارة والمال والاقتصاد.. إلى غير ذلك من أمور الحياة.. واحتوت باقي الآيات على الأصول والأحكام في المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب، في السلم والحرب وفي سياسة الحكم وإقامة العدل والعدالة الاجتماعية وكل ما يتصل ببناء المجتمع.. ذلك أن القرآن من العمق والاتساع والعموم



أ.د. محمد السيد علي بلاسي
أكاديمي. خبير دولي - عضو اتحاد كتاب مصر

والشمول.. بما يقبل تفهم البشر له.. أيا كان مبلغهم من العلم وبما يفي بحاجاتهم في كل عصر، ويتجاوب مع أهل البداوة في يسر، ويبهر في عمقه أهل الحضارة الذين صعدوا في سلم الرقي وبرعوا في فنون العلم والمعرفة..!

ولقد حث الإسلام المسلمين على طلب العلم، والتفقه في الدين، والبحث الدقيق في كل مجالاته وفنونه وفروعه، وأن يتحملوا المشاق في سبيل تحصيله وتعلمه، وأن يبذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم في طلب المزيد منه.

الحض على العلم :

لقد كان النبي {صلى الله عليه وسلم}، يشجع طلاب العلم، ويرحب بهم؛ فرحا بهم، وبما يراه {صلى الله عليه وسلم}، من حفاوة الملائكة بهم وحبهم لهم، ويعلن ذلك في صراحة حينما أتاه صفوان بن عال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي {صلى الله عليه وسلم}، وهو في المسجد متكيء على برد له أحمر، فقلت له: يارسول الله جئت أطلب العلم فقال: «مرحبا بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب» (رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد).

ويؤكد رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، على المسلمين طلب العلم بأسلوب آخر من أساليب

المسلمون بكل أجناسهم وأعراقهم ساهموا في إنتاج حضارة إسلامية واحدة موحدة.

الترغيب المحبب الذي اختص به رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، وهو لا يقول إلا حقا، فيقول لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي ألف ركعة» (رواه ابن ماجه بإسناد حسن)[٥].

لذا فإن من أعظم الواجبات على المسلمين أن يكلفوا جماعة منهم للتفقه في الدين، قال الله تعالى: {.. فلولا نَفَرَ من كل فِرْقَة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون} (سورة التوبة/ آية١٢٢).

يقول المراغي: وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامي المراتب مالا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص[٦].

وإذا كان نشر العلم من أهم الفروض الإسلامية، فإن من كتم علما أوجب الله سبحانه وتعالى بيانه للناس: فإنه يستحق الطرد من رحمة الله ويلجم يوم القيامة بلجام من نار. ففي الأثر: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، «من عَلِمَ عِلْماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» (رواه أبو داود والترمذي وغيرهما).

أرأيت إلى هذه الدعوة الصريحة الملحة لإزالة «الأمية» من المسلمين بواسطة المتعلمين حيال إخوانهم في الدين، فما تجد دينا دعا إلى العلم والتعلم بكل الأساليب كما دعا الإسلام أبناءه ومريديه، ذلك لأن العلم هو سبيل الخير والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة[٧].

مما أفاد الإسلام به العلم :

لم يكن الإسلام دينا بالمعنى التقليدي للدين، وإنما هو نظام جديد لا يكتفي بمعالجة القضايا التى عالجتها الأديان من قبله من تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فحسب أو تنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه في داخل مجموعة صغيرة، وإنما نراه يلجأ إلى العقل ليحرك به الوعي الذاتى للفرد ويدفع به إلى الاستقلال في الرأي[٨] ، لذا نجد أن الإسلام قد سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته مسلكا يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر.

قال تعالى: {فلينظر الإنسان مم خلق} (سورة الطارق آية/٥).

وقال : {أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء} (سورة الأعراف آية/ ١٨٥).

وقال : {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون} (سورة يس آية/ ٤٠).

وقال : {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب} (سورة آل عمران آية/١٩٠).

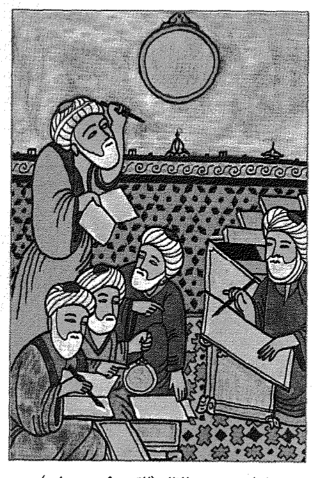
هذا الضرب من الآيات الكريمة فيه بعث العقل على النظر في الكون؛ وقد كان لذلك أثره في نمو الحياة العقلية[٩]؛ حيث إن مجال استعمال العقل في الإسلام فسيح وعميق عمق الآيات التى خلقها الله في الأرض وفي السماء ودُعي الإنسان إلى التفكير فيها[١٠].

مواكبة التعليم للدعوة الإسلامية :

ولقد بدأت الحركة التعليمية مع بداية الدعوة الإسلامية بصورة متواضعة تتفق وبداية الدعوة في مكة المكرمة، حيث كان الرسول {صلى الله عليه وسلم}، يجتمع بأصحابه المؤمنين بدعوته في دار الأرقم بن أبي الأرقم أو في بيته ليعلمهم ويرشدهم ويدعم إيمانهم بالله وبمستقبل الدعوة.

وحينما انتقل الرسول {صلى الله عليه وسلم}، الى مهاجره الشريف في المدينة المنورة، وأخذت دعوته {صلى الله عليه وسلم}، في الذيوع والانتشار؛ شهد مسجد قباء ثم المسجد النبوي الشريف - بعد أن بناه {صلى الله عليه وسلم}، - كما شهدت مرابع هذا البلد الطيب: دوحة العلم والمعرفة وهي تنمو بسرعة فتمتد أغصانها الخضراء الظليلة في كل اتجاه وهي محملة بأشهى الثمار.

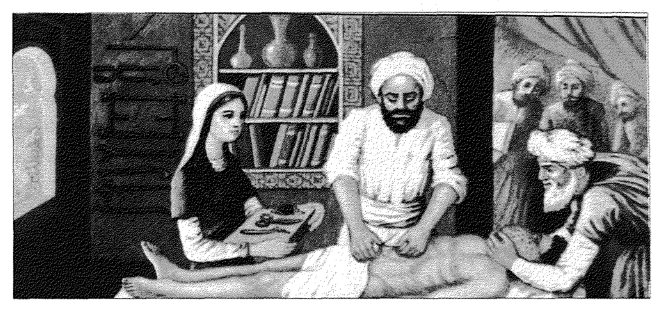
ولحق الرسول {صلى الله عليه وسلم}، بالرفيق الأعلى بعد أن ضرب أروع الأمثال وأنبل الأهداف، بكلماته الحية، وأعماله الخالدة لكل الأجيال القادمة.



علماء يدرسون الفلك (القرن ٩هـ - ١٥ م)

وتوالت الأيام وتتابعت السنون ومراكز الثقافة والمعرفة في المجتمعات الإسلامية تتعدد منابعها وتتنوع روافدها، فانتشرت حلقات التدريس في المساجد والجوامع وفي منازل ودور الأئمة والعلماء، وكان المسجد النبوي أول جامعة إسلامية يلتقي المئات والألوف من الطلاب فيها حول حلقات التدريس التى يتصدر كل حلقة منها أحد كبار العلماء الذين عرفوا باطلاعهم الواسع وثقافتهم العميقة وقدرتهم على اجتذاب المتعلمين والتأثير فيهم. وهي الطريقة التى كانت متبعة في

أهل الباطل من الأعاجم زعموا أن القرآن للعرب فقط.



رسم يوضح إجراء الزهراوي لإحدى العمليات الجراحية

كافة أنحاء العالم الإسلامي إلى عهد قريب، وقد ساعدت هذه الحلقات مع امتداد الأيام سواء ما كان منها في المساجد أو في دور العلماء، ساعدت الكثيرين من الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، وأرباب المهن والصناعات على أن يصبحوا مع مرور الزمن على درجة كبيرة من العلم والمعرفة، ولقد أصبح هؤلاء العصاميون من طلبة العلم الذين كانوا رغم أميتهم وكفاحهم يملأون المجالس التي يحضرونها علما وأدبا وثقافة واسعة ومتعددة الجوانب بطريقة تدعو إلى الإعجاب والإكبار[١١].

الحقائق العلمية الواردة في القرآن الكريم لم يتجاوزها العلم التجريبي اليوم.

مسيرة العلم عند المسلمين عبر التاريخ :

لقد ظلت العناية بالعلم والعلماء هكذا منذ فجر الدعوة الإسلامية، حتى كان عصر الدولة الأموية، فقد كان خلفاء هذه الدولة يعدون أنفسهم حماة للعلم ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزا تشع منه الثقافة والعرفان.. بدأت بعصر معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول ثم خالد بن يزيد بن معاوية المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب، وازدهرت في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

ونشطت حركة الترجمة نشاطا واسعا في عصر الرشيد والمأمون، وراسل المأمون ملك الروم وأرسل إليه جماعة من العلماء؛ للحصول على الكتب النادرة من علوم الأوائل، واجتمعت في عاصمة الخلافة العباسية أهم كتب الفلاسفة والعلماء من الأغارقة في مختلف الفروع من طب ورياضيات وفلكيات وطائفة من الكتب العلمية والحكمية (الفارسية والهندية والسريانية) فتسنى لطلاب المعرفة والعلم في العالم العربي أن يهضموا في سنوات قليلة ما أنفق اليونان وسواهم القرون في إنشائه.

وقد كانت الكتب تُهْدَى إلى الخلفاء على سبيل الاسترضاء، ولكن هارون الرشيد لما فتح عمورية وأنقرة حمل معه إلى بغداد كل ما وجد فيها من المخطوطات واقتدى به ابنه المأمون.

وكان العلماء - آنئذ - يلحفون في طلب المخطوطات بلا هوادة، وقد حدثنا حنين بن إسحاق عن مخطوط عرف باسم (في البرهان) بقوله: إنني بحثت عنه بحثا دقيقا وجبت في طلبه أرجاء العراق وفلسطين ومصر إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لكني لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق.

وفي غضون حكم المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) وصلت الجهود الثقافية الجديدة قمتها؛ فلقد كان المأمون من مفاخر الدولة العباسية علما وأدبا وفضلا ونبلا، ولقد وجه عنايته للعلم وأكرم العلماء وأعلى مجالسهم، وانصرفت همته أيما انصراف إلى نقل العلوم والصناعات من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية؛ حيث عد ذلك من آكد أعماله وأنبل أغراضه، رغبة في رفع شأن أمته وإعزاز جانبها.

كما أنشأ الخليفة المأمون في بغداد سنة ٨٣٠م معهدا رسميا للترجمة مجهزا بمكتبة أطلق عليه اسم «بيت الحكمة»، فكان هذا المعهد - من وجوه كثيرة - أعظم المعاهد الثقافية التى نشأت بعد الفتح الإسكندري والتي أسست في القرن الثالث قبل الميلاد[١٢].

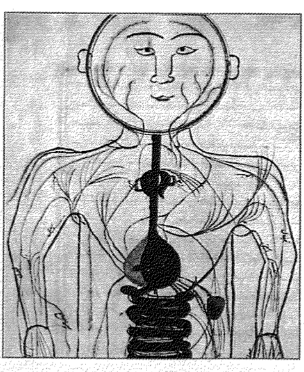
وفي عهد المأمون نبغ علماء كثيرون وحكماء وبلغاء وكتاب، ممن كانوا فخر الزمان وحلية الدهر، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم - في مختلف العلوم والفنون - شيد الأوربيون حضارتهم الماثلة أمامنا الآن[١٣].

وفي حدود سنة ٨٥٦م جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد.

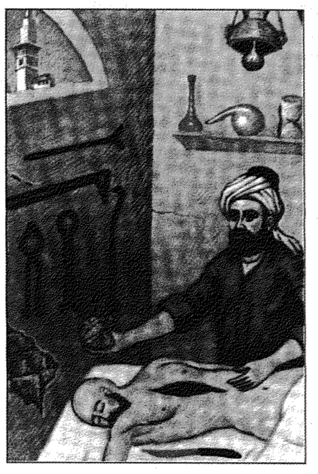
وقد استفادت مجالس العلم من التطور العلمي والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العصر.. ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد، انتقل مركز الثقل إلى الممالك والدويلات الشبيهة بالمستقلة فالديلم كانت لهم مجالس علم ثم السلاجقة ثم الغزنيون والساسانيون.

مجال استعمال العقل عند المسلمين أوسع وأعمق مدى.

ومن هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات أبي الفضل جعفر في عشرينيات القرن الرابع الهجري.. ومجلس أبي عبد الله الحسين بن سعدان في سبعينيات القرن نفسه، وكان مجلسه حافلا بجلة العلماء والأدباء وكان يباهي بمجلسه بأمثال أبي حيان وابن مسكويه وأبي الوفاء.. ثم مجلس



رسم يوضح الجهاز الهضمي والدورة الدموية



رسم يوضح ابن النفيس وهو يقوم بعملية جراحية

السلاجقة وكان يتصدره الوزير الطغرائي العالم الشاعر.. ومجلس رابع كان يزدان بأمثال البيروني والفردوسي.

وقد بدأت هذه «الصالونات» أو الجمعيات العلمية في القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية وكانت دار الحكمة قد أنشئت بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله عام ٣٩٥هـ على غرار بيت الحكمة في بغداد ، وقد حملت إليه الكتب من خزائن القصور وحمل إليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم يُرَ مثله مجتمعا لأحد الملوك قط، وأجريت الأرزاق على من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء!.

ومن أشهر العلماء في العصر الفاطمي الطبيب ابن بطلان وعالم البصريات ابن الهيثم: استدعى الحاكم بأمر الله الأول من سوريا والآخر من العراق.

وفي تاريخ العلم عند المسلمين ستة يوضعون على القمة في قيادة الحركة العلمية وريادتها هم: المأمون، ونظام الملك، ونور الدين زنكي، والحاكم بأمر الله، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان أولغ بيك في سمرقند.

ارتبطت هذه الأسماء ارتباطا وثيقا؛ فالأول أنشأ بيت الحكمة، والثاني أسس المدارس النظامية، والثالث كان راعيا للعلوم في سوريا، والرابع أنشأ دار الحكمة في القاهرة وجلب العلماء والمخطوطات لها من الأرجاء كافة وأنشأ مرصد المقطم بإشراف ابن يونس الفلكي، والخامس حمى التراث العلمي من غوغاء التتار، والسادس هو مؤسس النهضة العلمية في الدولة التيمورية ونبغ في عصره جمشيد غياث الدين الكاشي وقاضي زادة رمى وشرع في تأسيس مرصد المراغة.

منارات العلم في الأندلس :

وفي الأندلس أصبحت قرطبة في ظل عبد الرحمن الثاني (٨٢١ ـ ٨٥٢م) مركزا هاما للرخاء الاقتصادي والنشاط الفكري جميعا وتبوأت مقاما عاليا في عهد الخليفة الأول عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ـ ٩٦١م) حامي العلوم والآداب، وبفضل تشجيع مطرد النمو أيضا تزايدت هذه النهضة في حكم ابنه وخليفته الحكم الثاني (٩٦١ ـ ٩٧٦م) الذي أبى إلا أن يكون هو نفسه من العلماء، فأرسل وكلاء عنه إلى جميع أصقاع العالم الإسلامي لابتياع الكتب واستنساخها، ووفق في جمع مكتبة غاية في

الثراء تقدر محتوياتها بأربعمائة ألف كتاب، كما كانت فهارس كتبها تملأ أربعة وأربعين جزءا٠٠ وكان يساعد الخليفة في هذا النشاط العلمي وزيره محمد بن أبي عامر المتوفي عام ١٠٠٢م، وأخيرا كان حكم هشام (٩٧٦ ـ ١٠٠٩م) الذي ازدهرت العلوم على يديه[١٤].

وحمل الأزهر الشعلة :

وليت شعري أن يظل الحال على ما هو عليه؛ فلقد انقسم المسلمون على أنفسهم في الأندلس، ومن قبل دهم التتار بغداد ـ حاضرة العلوم ـ، بل وأحرقوا ما فيها من كتب وألقوها في دجلة حتى غدت جسرا يعبرون عليه، كما قتلوا العلماء، وعطلوا المدارس، وأصبح المسلمون محكومين بقوم من غير جنسهم، كل هذا كوَّن غيوما في سماء المعرفة عند المسلمين. ولكن الله سبحانه وتعالى الذي تكفل بحفظ دينه والإبقاء على قرآنه هيأ الأزهر ليكون المكان الذى يشع منه نور العلم والمعرفة، فلقد لجأ العلماء الفارون إليه من وجه التتار، كما لجأ إليه العلماء المهاجرون من الأندلس، كلهم وجد فيه محطا لرحاله ، ومكانا صالحا لأداء رسالته.

وقد حبب الله إلى سلاطين المماليك أن يميلوا إلى العلم، وأن يقربوا العلماء ويغدقوا عليهم، فتخرج في الأزهر علماء أجلاء لا نزال ننعم بما خلفوه من دراسات واسعة شاملة في شتى ميادين المعرفة: كالسيوطي، وابن منظور، وابن هشام، والسبكي، وابن حجر.

وقد بقي الأزهر ـ كذلك ـ منارة هادية حين أطبقت الظلمات في العصر العثماني، ولعل «شوقيا» قصد إلى هذه الفترة من تاريخ الأزهر حين قال فيه:

ظلمات لا ترى في جنحها
غير هذا الأزهر السمح شهابا
قسما لولاه لم يبق بها
رجل يقرأ أو يدري الكتابا
حفظ الدين مليا ومضى
ينقذ الدنيا فلم يملك ذهابا[١٥]

وثمة أسباب أخرى لضعف المسلمين بعد حياة الازدهار العلمي الذي لم تعرف الدنيا له مثيلا في وقتها؛ ونحن نرى أن من أعظم هذه الأسباب: أن المسلمين لم يعد يستفيدون من مواقفهم، ولم يعتبروا من ماضيهم، فالأمور عندهم أصبحت وقتية تنتهي بانتهاء وقعها دون عبرة واستفادة٠٠!

ولو قلبنا صفحات ماضينا التليد، لوجدنا أن المسلمين الأوائل كانوا يطبقون مبدأ الاستفادة خير تطبيق.

ففي غزوة «حنين» ـ مثلا ـ على الرغم من كثرة الغنائم التى تركها العدو في انسحابه فإن المسلمين لم ينشغلوا بالاستيلاء على غنائم العدو بل أوغلوا في تعقبه، مستفيدين في ذلك من درس غزوة أحد.

لذلك وجدناهم في سنين قلائل يفتحون العالم وينشرون الإسلام على ربوعه، ويقيمون حضارة فريدة في وقتها دانت لها جميع الحضارات.

مجالس وحلق العلم في المساجد وبيوت العلماء فجرت نهضة علمية كانت مضرب المثل.

أما حين ترك المسلمون مبدأ الاستفادة، ماتت فيهم روح الطموح، وأسلموا راية حضارتهم إلى أعدائهم.

فالمسلمون في أثناء الحروب الصليبية كانوا يتمتعون بحضارة منقطعة النظير ومتكاملة الجوانب، مزجت تراث اليونان والإغريق والمصريين بأعظم تقدم وابتكار أضافه الإسلام إلى هذه الحضارة ـ وقت أن كانت أوربا تحيا في ظلام الجهل، وتعيش في محيط التخلف ـ إلا أن المسلمين حين لاقوا الصليبيين في حروبهم وانتصروا عليهم، ركنوا إلى الخمول والكسل، وفترت همتهم وعزائمهم، ولم يستفيدوا من موقفهم مع أعدائهم.

أما في الغرب فقد كان الأثر عكسيا، فقد عرف الأوربيون كيف يعبرون من الهزيمة إلى النصر ومن الجهل إلى العلم، ومن التأخر إلى التقدم، ومن حياة الدعة والخمول والكسل إلى حياة الجد والعمل، ومن حالة اليأس إلى حالة الطموح، فالتهموا الحضارة الإسلامية كالجائع المحروم من الطعام عندما يقدم إليه الطعام الشهي لا يبقي منه شيئا..!

في عصر النهضة العلمية. استوعب المسلمون كل علوم الغرب في زمن قياسي.

بهذا أقاموا حضارة من لا شيء.. !! ذلك لأنهم عرفوا الاستفادة ولو في أحلك الظروف؟!![١٦].

الأصل والنقل :

الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات: فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية، ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التى تميزها بين سمات الحضارة.

إلا أن البدعة الحديثة التى نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوربيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة الإسلامية بالنقل دون الإبداع، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ـ ولو كانت شرقية ـ بملكة الإبداع والتفكير الحر ولا سيما في المباحث النظرية التى يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة؛ لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوربي في أصوله الأولى، وهي الدعوى التى يسوغ بها سيادته على أمم العالمين!.

وقال منهم قائلون: إن حضارة العرب التى ظهرت بعد الإسلام كانت حضارة منقولة على أيدي الأعاجم الذين دخلوا الإسلام[١٧].

وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل: أين هي الحضارة التى أبدعت ولم تنقل؟ وأين هي الحضارة التى يقال عن جميع علمائها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى؟.

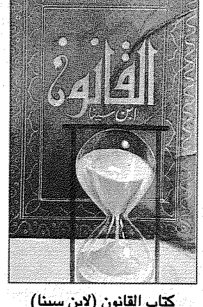
والحقيقة التى لا يشوبها شك : أن كل حضارة مبدعة ناقلة، والحضارة الإسلامية ليست بدعا في هذا المجال، وإنما اطلعت على فكر السابقين من يونان وإغريق وهنود وفرس وغيرهم من الأمم، إلا أن هذه الحضارة تميزت بهضم هذا التراث وأضافت إليه الكثير، فما من أمة تستطيع استيعاب التراث العلمي لغيرها من الأمم التى تفوقها حضارة إلا إذا

كانت قد وصلت إلى هذا المستوى من التراث.. وقد كانت الأمة الإسلامية جديرة بذلك في وقت قصير؛ ذلك لأن مظلة العلوم الفقهية وعلوم القرآن والسنة قد أمدتها بإشعاعات أسرعت في تكوين الفيتامينات للفكر العلمي الجديد[١٨].

أما عن الفرية القائلة بأن الحضارة الإسلامية ظهرت على أيدي غير العرب، فنقول مجيبين عليهم: إن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، ما دام الجميع قد دخل تحت مظلته، والحضارة الإسلامية قد اشترك في تكوينها المسلمون من جميع الأجناس وكان للأمم الأعجمية ـ حقا ـ قسط كبير في بناء صرحها في مختلف العلوم والدراسات، إلا أنه ينبغي أن يُعلم أن هذه الأمم الأعجمية لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التى يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة.

ومن الثابت أنه ليس كل ما انتقل على أيدي الحضارة الإسلامية عربيا محضا في الأصول والفروع، ولكن حسبها أنه لم ينقطع على أيديها، فاتصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث، فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها، وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات[١٩]، كما أن ابتكارات الحضارة الإسلامية في شتى مجالات المعرفة ـ مما لا يتطرق الشك إليه ـ دليل على أن حضارة الإسلام مبدعة وليست ناقلة ـ فحسب ـ كما يزعم المغرضون الحاقدون!

ومضات من ابتكارات المسلمين[٢٠]:



كتاب القانون (لابن سينا)

أولا: في الرياضيات:

أ ـ الجبر: اخترع العرب اختراعا، ونقلته أوربا باسمه، والخوارزمي هو أول من ألف فيه بطريقة منظمة، واعتمدت أوربا على كتابه «الجبر والمقابلة».

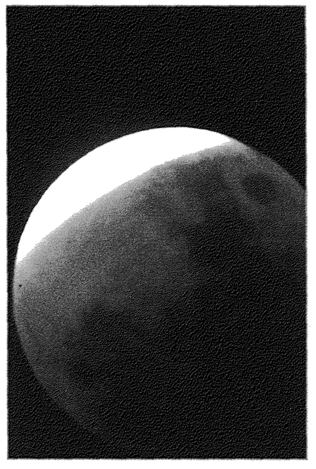
ب ـ الحساب: ابتكر العرب النظام العشري والصفر ونقلته أوربا باسمه العربي ووضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب والنسب العددية والهندسية والتناسب واستخراج المجهول والجذور.

ج ـ المثلثات والفلك: وهم واضعو علم حساب المثلثات وسهلوا حل كثير من المسائل، وربطوا بين الفلك والرياضة، ونبغ في ذلك: الطوسي، والبيروني والخازن.

د ـ الطبيعة والميكانيكا: عالج ابن سينا سرعة الضوء والصوت، ويعتبر ابن الهيثم في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور وهو من أئمة علم الضوء.

ثانيا: الكيمياء:

بطلها جابر بن حيان، فقد عرف عمليات التبخير والتقطير والترشيح والتكليس والتبلور، وحضَّر كثيرا من المواد الكيمائية مثل نترات الفضة وكبريتور



خسوف القمر

الزئبق، وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية، واشتهر الرازي بالطب والكيمياء، وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى، وكان لمعرفته بالكيمياء أثر في طبه، وقد حضَّر الأحماض كحامض الكبريتيك والكحول.

مؤلفات العرب الطبية لازالت أوربا تعتمد عليها حتى اليوم.

ثالثا : الطب :

لقد عرف العرب المستشفيات، وعنوا بالطب عناية فائقة، ويحدثنا التاريخ: أنه قد دعي إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر بالله، وهم غير الأساتذة الثقات الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم.

هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية في أوربا تحرم صناعة الطب، لأن المرض - في زعمهم - عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجورا عليه بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعهد الإيمان، عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد، وهو إبان الحضارة الأندلسية.

وكانت مؤلفات العرب في الطب هي عمدة المؤلفات التى اعتمدت عليها أوربا ولازالت في مجال الطب كمؤلفات ابن سينا والرازي وابن الهيثم وغيرهم.

فهذا قبس من ابتكارات المسلمين في بعض العلوم، وهناك ابتكارات للمسلمين - في شتى مجالات العلوم - لا يكفي لحصرها مجلدات، تلك التى عليها أوربا في حاضرها بعد ثباتها العميق!.

ولعل هذا كله يلغي تلك الفرية القائلة: بأن حضارة الإسلام كانت حضارة ناقلة وليست مبدعة.

ولا يسعني أخيرا - إلا أن أسوق قول المستشرقة الألمانية المنصفة «زيغريد هونكه»: وإننا لندين - والتاريخ شاهد على ذلك - في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوما من الأيام قاتما كالحا باهتا، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبته بالعبير العابق، وأحيانا باللون الساحر، وزادته صحة وجمالا وأناقة وروعة[٢١] ■

الهوامش :

(١) د. أحمد صبحي منصور: تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية (كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية.. جامعة الأزهر)، (المقدمة: ص أ)، (بدون ذكر الطباعة والتاريخ).

(٢) د. أحمد سعيد الدمرداش: مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ، (دراسة منشورة في مجلة «المنهل» السعودية)، (الحلقة الأولى) العدد ٤٥٠، جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ، ص ١٢٣.

(٣) د. أحمد صبحي منصور: تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، (المقدمة: ص أ، ب ـ بتصرف).

(٤) الشيخ الصابوني : صفوة التفاسير، من أعلام المفسرين (٢٠)، ص ٥٨١، ط. دار الرشيد بسوريا.

(٥) لمزيد من التفصيل راجع: مجلة «الهداية» البحرانية، العدد ١١٣، رجب سنة ١٤٠٧هـ، ص ٣٨ ـ ٤١، مقال: كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟: لطفي نصر.

(٦) تفسير المراغي: جـ ١١ ، ص ٤٨.

(٧) لطفي نصر: كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ مجلة «الهداية»، العدد ١١٣، رجب سنة ١٤٠٧هـ، ص ٤١ وما بعدها.

(٨) د. أحمد الدمرداش: مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ، مجلة «المنهل»، العدد ٤٥٠، جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ، (الحلقة الأولى)، ص ١٢٣ ـ بتصرف ـ .

(٩) عبد الرحمن البهلول: الإسلام دين العلم والمعرفة، مجلة «منبر الإسلام» القاهرية، العدد ٢٧، السنة ٤٥، رجب سنة ١٤٠٧هـ، ص ٧٢، ٧٣، ـ بتصرف ـ .

(١٠) د. أحمد صبحي: تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، ص ٨ ـ بتصرف يسير ـ .

(١١) عبد الرحمن البهلول: الإسلام دين العلم والمعرفة، مجلة «منبر الإسلام» عدد رجب سنة ١٤٠٧هـ، ص ٧٥ ـ بتصرف ـ .

(١٢) د. الدمرداش : مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ، مجلة «المنهل»، عدد رجب سنة ١٤٠٧هـ، (الحلقة الثالثة)، ص ١٣٨، ١٣٩ ـ بتصرف ـ .

(١٣) عبد الرحمن البهلول: الإسلام دين العلم والمعرفة، مجلة «منبر الإسلام» عدد رجب سنة ١٤٠٧هـ، ص ٧٥ ـ بتصرف ـ .

(١٤) د. الدمرداش : مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ، مجلة «المنهل» العدد ٤٥٢ ـ رجب سنة ١٤٠٧هـ، (الحلقة الثالثة)، ص ١٣٩ ـ ١٤١ ـ بتصرف ـ .

(١٥) د. علي محمد حسن العماري: التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث، ص ٢٨، ٣١، ط. الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، سنة ١٣٩٩هـ، فراجعه تجد تفصيلا.

(١٦) د. محمد السيد علي بلاسي: لابد أن نستفيد؟! مجلة «البريد الإسلامي» (وهي مجلة فصلية تصدر عن دار تبليغ الإسلام بمصر) العدد ٧ ـ ٩ سنة ١٤٠٤هـ، ص ١٣، ١٤.

(١٧) عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٢٨، ٢٩، بتصرف ط ٢ دار المعارف ١٩٦٣م.

(١٨) د. الدمرداش: مسيرة الفكر العلمي، مجلة «المنهل»، عدد رجب سنة ١٤٠٧هـ، (الحلقة الثالثة) ص١٣٨.

(١٩) العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٣٠ ـ ٣٣ ـ بتصرف ـ ط٢، دار المعارف ١٩٦٣م.

(٢٠) لمزيد من التفصيل راجع: المرجع السابق ص ٣٤ ـ ١٢٩. تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية: د. صبحي منصور، ص ٨٨ ـ ١٠٥.

(٢١) زيغريد هونكه: شمس الدنيا تسطع على أوربا، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال الدسوقي، ص ٢٠، ط ٦ سنة ١٤٠١هـ، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

العباس ابن الأحنف

اضاءة

هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي، (١٣٠ - ١٩٢هـ)، بغدادي، شاعر غزل رقيق، من بني حنيفة.. نشأ وتربى في بغداد وتوفي بها، وقيل بالبصرة، عاش عيشة الترف، دون أن يتردَّى في الخلاعة والمجون.. جميع شعره في الغزل العفيف.

□ **يعد هذا الشاعر نسيج وحده بين شعراء العصر العباسى، وهو ينتسب الى أسرة عربية تمتعت بحظ وافر من الغنى وعلو المنزلة في دولة بنى العباس، وقد هيأته نشأته في أحضانها للترفع في حياته، والتفرد في فنه، كان مولده في أوائل العقد الثالث من القرن الهجرى الثاني، فعاش حياة تختلف عن حياة معاصريه من الشعراء الذين امتهنوا أنفسهم - أو اضطروا إلى امتهانها - أمام الممدوحين، وأولئك الذين أغرقوا أنفسهم في حماة المجون نتيجة أوضاع اجتماعية غير سوية.**

نأى العباس بنفسه وسما بها عن التدنى الذى يحط من شأنها، وقد أدت هذه الغربة الحياتية الى «غربة فنية» تجسدت في الخروج على المألوف في عصره، فلم يستنزف فنه في الأغراض المألوفة، ولم يبتذله بشعر المدح الذى احتل مساحة ضخمة من دواوين معاصريه.

لقد اقتصر ديوانه - أو كاد - على فن واحد من فنون الشعر هو الغزل، والغزل العفيف بالذات، وأثار تفرده هذا دهش الكثير من القدماء وإعجابهم، فأبو الفرج الأصفهانى يشيد به قائلا: «كان ممن إذا تكلم لا يحب سامعه أن يسكت، وهو غزل ظريف مطبوع.. له مذهب حسن، ولشعره رونق، لم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء».

كما يُروى عن بشار إعجابه بالعباس، وهو فتى واعد يتلمس طريقه في ميدان الفن الشعرى، فينظم أبياتا تشف عن البذور الأولى لاتجاهه الفني.

- يقول بشار: «مازال فتى من بنى حنيفة يدخل نفسه فينا، ويخرجها منا، حتى قال:

نزف البكاءُ دموع عينك فاستعرْ
عيناً لدمعك دمعُها مدْرارُ
من ذا يُعيرك عينه تبكى بها
أرأيت عيناً للبكاء تعَارُ؟!

ثم أطلق ابن رشيق في العمدة عبارته الذائعة: «العباس عمر العراق» يريد أنه لأهل العراق كعمر بن أبي ربيعة لأهل الحجاز، وحقيقة تأثر العباس بسلفه العظيم تأثرا واضحا، ينبىء بعكوفه على نتاجه، وتمثله تمثلا أغنى موهبته وأنضجها، وساعدها على التفرد والإجادة.

لكن الحقيقة الأخرى التى تجدر الإشارة إليها، هى أن عمر بن أبى ربيعة كان فرعا مزهرا في شجرة الغزل اليانعة في عصره، أى أن بيئته ساعدته على التفرد في الغزل والنبوغ فيه. كما نبغ فيه غيره من معاصريه، على حين أن العباس في اقتصاره على الغزل وإجادته له كان كمن يسبح ضد التيار في بيئته.

كذلك تنقل عمر بغزله بين أكثر من واحدة، كما كانت الحسية ـ أو الحضرية ـ أبرز ملامح غزله، أما العباس فكان عاشقا، ومن ثم اقتصر غزله على واحدة حالت الظروف بينه وبينها، فطوى فؤاده على الأسى، واعتصره يأس قاتل، ظل يتشكل في شعره بصور مختلفة، تذكر بالعذريين أكثر مما تذكر بابن أبي ربيعة، ولم يكن ذلك منه عجزا عن مجاراة اللاهين من الشعراء؛ فقد كانت ظروفه تيسر له ذلك الضرب من الحياة، لو أراد!.

والاقتصار على الغزل العفيف ليس مَزِيَّة في حد ذاته، وإنما الذى يثير الإعجاب هو أنه أجاده إجادة تستحق الإشادة، إذا تذكرنا أن الاقتصار على فن واحد يمكن أن يعوق خطى الشاعر، وقد يدفع به نحو

د. محمد عبدالعزيز الموافى

كلية التربية - المدينة المنورة

الإملال، ولكن ابن الأحنف استطاع أن يفترع من هذا الفن صورا بديعة ثرية، جعلت هذا التفرد مزيّة تحسب له، لا معوقا يصطدم به.

ثم كان لتجربته ـ التى زادها الحرمان اتقادا ـ أكبر الأثر في تلك الصور التى تحمل بصماته، وتوحى بمقدرته الفنية:

أتأذنون لصب في زيارتكم؟!
فعندكمْ شهواتُ السمع والبصر!
لا يُضمرُ السوء إن طال الجلوسُ به
عفُّ الضمير، ولكن فاسقُ النظر!

ولننصت إليه في تصويره الرائع لتلك الخلجات النفسية في فترة من فترات علاقته بالمحبوبة كفَّت خلالها عن لومه ومؤاخذته:

لوْ كنتِ عاتبة لسكَّن روعتى
أملى رضاك، وزرتُ غيرَ مُراقب
لكنْ مَللْتِ، فلم تكن لي حيلةٌ
صدُّ الملول خلافُ صدّ العاتب

حقا إنه لموقف جدير بالإعجاب والتقدير، لهذا الشاعر المحب العفيف، الذى سار ضد تيار عارم، واستطاع أن يشق لنفسه طريقا متميزاً وسط هذا التداخل والاختلاط، وهنا تظهر أصالته؛ لأن العفاف

قوة سلبية، والتغنى به لا يوائم طبيعة البشر إلا إذا كان صاحبه ذا قوة روحية تقتلع جذور الشهوات وتسمو بالنفس إلى الطهر الذى حث عليه الدين.

وهذا ما وجدناه لدى ابن الأحنف، على الرغم مما يقوله علماء النفس من قوة الغريزة لأنها اقتحام وانتهاب، وضعف العفة لأنها زهد وانسحاب!.

وربما تحقق له ذلك لأن عفته لم تكن عفة العاجز، حتى تعد علامة من علامات الضعف، بل كانت عفة القادر العازم على التسامى، والذى لم يتخذ إلهه هواه، فظل ينفِّس عنه بتلك الآهات المعذبة والضراعات الحزينة الدامعة التى تجسدت في مثل هذا التشكيل اللغوى البديع:

أيها الراقدون حولى أعينُونى
على الليل، حسبة وانتجارا
حدثوني عن النهار حديثاً
أوصفوهُ، فقد نسيت النهارا

ولكن .. من التى توجه إليها العباس بغزله العفيف؟ وكيف سارت وانتهت تجربته؟.

تردد في ديوان ابن الأحنف ذكر أسماء عديدة لنساء تغزل بهن: فوز، ظلوم، زلفاء، نسرين، نرجس، ضياء، سحر، ذات الخال.. ونلاحظ أن الاسمين الأولين اختصهما بالذكر في معظم شعره، كما أحاطهما بظروف متشابهة، فكلتاهما مدنية الأصل، عاشت فى بغداد فترة ثم ذهبت إلى الحجاز، كذلك نجد أن علاقته بهما، ونوع شكواه منهما، وشحنات عاطفته الموجهة إليهما ـ كل ذلك يتقارب إلى حد بعيد، وقد يوحى بأنهما اسمان/ قناعان لشخصية واحدة.

لكن تعدد أسماء المحبوبات دعا النقاد القدماء إلى القول بأنه ارتبط فعلا بحب هؤلاء النسوة! ونحن نظن أن العباس لم يحب إلا واحدة فقط، وهب لها عمره ووقف عليها شعره، وربما يدعم هذا الظن أن ابن الأحنف في مضامين غزله يذكرنا بأسلافه العذريين، ومن ثم فمن الصعب تصور حبه لكل هذا العدد الذى ذكره في شعره، وعلى ذلك فهى أسماء كثيرة لمحبوبة واحدة، وتعدد الأسماء ليس سوى قناع يخفى به اسمها الحقيقى، على حد قوله: «كتمتُ اسمها كتمان من صان عرضه»:

فسميتُها فوزاً ولو بحتُ باسمها
لسمَّيْتُ باسْم هائل الذكر أشنع

وقوله :

كتمتُ اسم الحبيب عن العباد
ورددُتُ الصبابة في فؤادى

وأصرح من هذا قوله :

وإذا سُئلتُ عن التى شغفتْ
قلبى ، وكلتُهمُ إلى أخرى

وقوله :

فكاذبٌ من رمى بالظن غيركمُ
وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدَقَا

وقوله :

ولقد كنيْتُ عن اسمها
عمداً، لكى لا تغضبا

وكما لاحظنا، نالت «فوز» و«ظلوم» قسطا وافرا من اهتمام الشاعر، وتشابهت ظروف علاقته بهما، وبخاصة في تركهما بغداد الى الحجاز.

أصبح القلب بالعراق وأمسى

بالحجاز الهوى، فكيف النعيم؟!

أليس من المعقول - إذن - أن تكون المحبوبة واحدة ليس غير؟! وبخاصة أنه يرحل وراءها الى الحجاز، ويعيدان ماضى أيامهما السعيد.

ترى من تكون تلك المحبوبة؟ وهل يعقل أن تكون - كما قال بعض القدماء - جارية يمكن أن يتملكها بالشراء؟.

إن النظرة الفاحصة تؤدى إلى أن هذه المحبوبة هى إحدى بنات الأسر العريقة، بل قد تكون «علية بنت المهدى» وأخت الرشيد[١].

وتتبع شعر العباس في المحبوبة، وتعقب سيرتها؛ يكاد يؤكد ذلك، فهى مدنية استوطنت العراق، هاشمية، ذات جدار أسرى عريق، محوطة بعدد وفير من الخدم، من العسير الوصول إليها، تضع عصابة على رأسها، تراسل الحبيب بالأشعار، تزوجت هاشميا ثم أرملت بعد وفاته..

غداة رأيتُ الهاشمية غدوة

تهادى حولها من العين ربربُ

وقوله :

وكأن نسوتها الكواعب حولها

زُهرُ الكواكب حول بدر أزهر

وقوله :

هى الشمسُ مسكنُها في السماء

فَعَزٍّ الفؤاد عزاء جميلا

والديوان مليء بما يدعم ذلك كله.. لكن منزلة المحبوبة، ويأس العباس من أن يصهر الى بيت الخلافة، قد القى بظله على تلك العلاقة الفريدة، وحدد نتائجها سلفا، وإن كان قد أثمر في الوقت ذاته تلك الثروة الشعرية البديعة:

فصرنا حديثا لمن بعدنا

تُخبر عنا القرونُ القرونا

الهوامش :

(١) انظر العشاق الثلاثة: الدكتور/ زكى مبارك، المطبعة العصرية، بيروت (د.ت) ص ١١١. وانظر العباس بن الأحنف: الدكتورة/ عاتكة الخزرجى، بغداد ١٩٧٧م، ص ٩١ - ٩٣. وقد أشار الدكتور/ مبارك تلك الإشارة الذكية السريعة، لكنه لم يقف عندها، ليعللها ويلقى عليها مزيدا من الضوء. أما الدكتورة/ عاتكة فقد تعمقت هذه الملاحظة بتفصيل وتدقيق، حددت بعدهما اسمها. ثم تتبعنا كتب التراث ووقفنا فيها على ملاحظات تؤكد ما ذهبت إليه الباحثة. من مثل كونها كانت شاعرة، وتصوغ الألحان الجيدة، وأنها كانت تضع دائما عصابة على رأسها؛ حيث كان في جبينها فضل سعة، وكذلك مراسلتها بالأشعار، وفارق السن بينها وبينه.. وغير ذلك مما يطول ذكره. انظر الأغانى (دار الكتب) جـ ١٠ ص ١٦٢، ١٦٥، ١٧٥. وجـ ١٧ ص ٦٩، ٧١. والعمدة (دار الجيل بيروت ١٩٧٤) ٣١١/١.

بين شاعرين : دراسة نقدية بين لاميتي شوقي وطوقان





اضاءة

أحمد شوقي:

١٢٨٥ - ١٣٥١هـ / ١٨٦٨ - ١٩٣٢م

- ولد في مصر وعاش في حمى القصر، تلقى دراسته الأولى في مصر، ثم أوفده الخديوي الى باريس لدراسة الحقوق، وعندما عاد أصبح شاعر القصر، وغدت داره وكرمة ابن هانئ، منتدى للادب والشعر. وفي بداية الحرب العالمية الأولى نفاه الإنكليز الى الأندلس ، فأقام في برشلونه، وتأثر بالتاريخ العربي الإسلامي، وشهد حضارة العرب الزاهية، فحدث التحول الكبير في نفسيته، ولما عاد إلى مصر عام ١٩١٩م أصبح شاعر الشعب، فشارك في الثورة المصرية، وغنى الثورات الوطنية في الأدب العربي، وانشد أعذب أغاني القومية العربية والوحدة.

كان ذا نفس شعري لا يضارع وقد جمع شعره في أربعة دواوين سميت الشوقيات ثم طبعت مؤخراً «الشوقيات المجهولة» ونجد فيها كلها أغراض الشعر كافة، وله سبع مسرحيات ست منها مأساة وواحدة ملهاة، بويع بإمارة الشعر العربي عام ١٩٢٧م.

اضاءة

إبراهيم طوقان :

١٣٢٣ - ١٣٦٠هـ / ١٩٠٥ - ١٩٤١م

- إبراهيم بن عبد الفتاح طوقان: شاعر غزل، من أهل نابلس بفلسطين، قال فيه أحد كتابها: عذب النغمات، ساحر الرنات، تقسم بين هوى دفين، ووطن حزين.

- تعلم في الجامعة الامريكية في بيروت، وبرع في الأدبين العربي والإنكليزي وتولى قسم المحاضرات في محطة الإذاعة بفلسطين نحو خمس سنين وانتقل إلى بغداد مدرساً، ثم عاد إلى بلده نابلس مريضاً، وتوفي بالقدس، كان وديعا مرحا له ديوان شعر مطبوع.

□ المعلمون عظماء وأنصاف عظماء: فنصف العظيم موهوب في فن التعبير عن ذاته .. أما العظيم فموهوب في فن اثارة الآخرين، ليحقق ذاته.

إن الموازنة نوع من النقد، وهى كذلك نوع من الوصف، فالذى يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليهما بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذى يضع شعره في الميزان وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعهده ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن ما يقول، فإن الشاعر إنما يؤدى «رسالته» إلى جيل خاص في قطر خاص، ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتذوقها بوجدانك مع أن بينك وبينه مئات الفروق وهو لم يعش معك ولا لك وإنما خضع في شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان، وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة ولكنها ضرورية، يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته وأن يفنى في شخصية الشاعر الذى يدرسه، بحيث يبصر بعينه ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه ليسبر اغوار نفسه وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء.

والآن ندخل في بحث شيق هو الموازنة بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والماثلة كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن دراج في معارضة أبى نواس، والبارودى في معارضة أبى نواس.

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذا كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعا من السباق في عالم البيان.

د. مـــروان العطيـــة

ســـوريـــا

ولنبدأ بالموازنة بين لامية شوقى «قم للمعلم وفه التبجيلا» ولامية طوقان «شوقى يقول: وما درى بمصيبتى» فإن لهاتين القصيدتين أثراً في أندية الأدب ومجالس التربية، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين الرائعتين من روائع الشعر الرفيع.

لقد استوقفتنى طويلا قصيدة شوقى وقد عظم قدرها في نفسى وارتفعت منزلتها في العيون وغشيت جلالتها الأبصار وقد حفظها الصغير والكبير وهذه عظمة تتصاغر عندها الهمم، ويخفض لها جناح الضعة وتملأ الصدور هيبة واجلالا.

ـ يقول الشاعر أحمد شوقي[١]:

قُم للمعلم وَفِّه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا[٢]
أَعَلِمْتَ أشرف أو أجل من الذى
يبنى وينشىء أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم
علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته
وهديته النور المبين سبيلا
وطَبَعْتَه بيد المعلم تارة
صدىء الحديد وتارة مصقولا[٣]
ربَّوا على الإنصاف فتيان الحمى
تجدوهُمُ كهف الحقوق كهولا
فهو الذى يبنى الطباع قويمة
وهو الذى يبنى النفوس عدولا
ويقيم منطق كل أعوج منطق
ويريه رأياً في الأمور أصيلا

فنحن نجد في هذه الأبيات المختارة من قصيدة شوقى الوصف الصحيح والصورة الصادقة، إن

شوقيا يبدع القريض ليقذف الكلمة الحكيمة وتلك احدى سماته، وجمال هذه الأبيات يرجع إلى ما فيها من صدق وأصالة، فشوقى يشعر بالمهمة العظيمة الملقاة على كاهل المعلم ويحس بصعوبتها، ويجد الشبه بين رسالة المعلم وما دعا إليه الرسول [صلى الله عليه وسلم] من ضرورة العلم والتعلم، لذلك يحل المعلم محل التبجيل والتقديس، ونظرة شوقى وإن كانت مثالية فهى نظرة واقعية صائبة نحسها ونعيشها نحن معشر المعلمين.

وعجبت من الشاعر إبراهيم طوقان في رده ومناقضته لقصيدة أمير الشعراء لأنه مارس مهنة التعليم، وعجز عن حملها وأدائها، فقد ضاق ذرعا بتلك المهنة، ثم ساءت صحته فترك التعليم فيما يقولون، ألذلك يقف هذا الموقف القاسي من المعلم ومن قصيدة شوقي..ذلك ما سنكشفه بعد قليل.

يقول الشاعر ابراهيم طوقان:[٤]

(شوقى) يقول: وما درى بمصيبتي
«قم للمعلم وفه التبجيلا»[٥]
أقعد فديتك هل يكون مبجلا
من كان للنشء الصغار خليلا
ويكاد (يفلقنى) الأمير بقوله
«كاد المعلم أن يكون رسولا»
لو جرب التعليم (شوقى) ساعة
لقضى الحياة شقاوة وخمولا
حَسْبُ المعلم غصة وكآبة
مرأى (الدفاتر) بكرة وأصيلا
مئة على مئة إذا هى صلّحت
وجد العمى نحو العيون سبيلا
لا تعجبوا ان صحت يوماً صيحة
ووقعت ما بين «البنوك» قتيلا
يا من يريد الانتحار وجدته
إن المعلم لا يعيش طويلا

ألست معى بأن الشاعر ابراهيم متحامل كثيراً في قصيدته على المعلمين ومهنتهم السامية التى هى مهنة الأنبياء، نسي أن المعلم معطاء مثل النحلة، وحكمته التربوية مثل عسلها المصفى يتجول في حقول الحياة مفتح العين والقلب والعقل يقرأ مئات الكتب في مئات الحقول وبلهفة واخلاص وتواضع وانتباه، يحاور أفكارها، لتمنحه مادة منها يكوّن عصير الحكمة التربوية، كما تكوّن النحلة عسلها غذاء وشفاء.

ونحن نرى أن أبيات شوقي فيها القوة والجزالة والحكمة بالإضافة للمغزى البعيد السامى، كما نرى أن أبيات طوقان عادية في ألفاظها ومعانيها وهى نزوات نفسية، هى نزوات الطائر المحبوس في القفص، وهو مع ذلك يتوثب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء.

وأنفاس شوقي في هذه القصيدة أنفاس حر لا يدرك وقدها إلا من ذاق التعليم وجربه وعاشه بكل انفعالاته وعواطفه، وشعر شوقي في هذا النص ككل شعره يمتاز بالوضوح والسهولة والصدق وجزالة الأداء في غير عيّ أو حصر، وفي غير تعمية أو لجج، بل الفكرة واضحة والأداء سهل مباشر ولكنه يرتفع في اشاراته المختلفة ودقة بنائه إلى درجة من الاحكام واللمح البصير وكلها سمات تدل على خبرة الشاعر بفنه ووعيه بمسؤليته وقدرته على أداء ما يريد في عصره وبيئته.

والآن، وبعد أن دافعنا عن رأى شوقي في المعلم، لنقف وقفة متمهلة مع الشاعر طوقان والحديث معه ذو شجون ونقول له: ما هكذا تورد يا سعد الابل... وإن قادة السياسة والحرب لجأت قديما الى المعلم أرخميدس ليدفع بعقله المثقف أخطاراً تداهم كيان وطنه... وإن قادة السياسة والحرب لجأت حديثا إلى المعلمين في أمريكا لكى يدافعوا عن بلادهم خط التخلف في مجال علم الفضاء، إن الاهتمام بالعلم حديثا يفسر أهمية الشخصية (المعلمية) بمعانى الثقافة التى وحدت بين الكلمة والآلة.

صحيح أن المعلم في رأى طوقان لا يعيش طويلا ولكن بجسمه فقط، أما أفكاره، وأما روحه، وأما

أثاره، فستعيش طويلا وستخلد على مر الأيام والأزمان في أذهان طلابه وتلاميذه، سوف تتجدد حياة المعلم في حياة الأطباء والمهندسين والمدرسين الذين تخرجوا من تحت يديه وهذا هو الخلود.

وقد يصدق قول طوقان بأن العمى سوف يدب سريعا إلى عيون المعلمين ولكن في رأيي إن المعلم رغم عماه سوف يبقى مبصرا من خلال عيون طلابه وتلامذته، وسوف يظل مفتح العين عبر الأفكار والمعانى التى غرسها في أذهان الأجيال الصاعدة، وعجيب قول طوقان عندما حمل على المعلم لأنه يعايش الصغار وهذه نظرة لا أراها صحيحة فما من أب في الدنيا وما من عظيم في الحياة إلا وعاش مع الصغار وربّى الأولاد، أما المعلم فهو أعظم من كل هؤلاء لأنه في هذا الزمان خاصة هو الأداة الوحيدة لتنوير العقول وتفتيح الأذهان، وأخيراً إن المعلمين في رأيي على أضرب:

فضرب منهم (في القصة) وهم العظماء الذين قدموا للأجيال أشياء لا تنسى لأنها طبعت في عقولهم ونقشت في أذهانهم إذ أن هؤلاء المعلمين عجنوا هذه الأشياء بعرقهم وجملوها بعصارة ذهنهم وفكرهم وعطروها بعطر قلوبهم وروحهم وهم الذين فرضوا أنفسهم في ساحات التعليم، معلمين ناجحين بارعين، لا ترى طالبا إلا ويشير إليهم بالبنان ولا ترى تلميذا إلا ويطأطىء رأسه أمامهم تقديراً واحتراما من ناحية ويشمخ برأسه عالياً اكباراً واجلالا من ناحية أخرى ولا يدور اسمهم على لسان الا ويسبغ على هذا الاسم أجل صفات الثناء وأعظم آيات المديح.

هؤلاء العظماء هم الذين اختاروا مهنة التعليم الشاقة - وأظنها أشق من الأعمال الشاقة - هواية ورغبة وحبا ورسالة، ومثلهم الأعلى الأنبياء وحاديهم أحاديثهم وأقوالهم وسيرهم وما أقل هذا الصنف في رأيي بين المعلمين.

وضرب منهم في السفح وهم انصاف العظماء الذين أوتوا مواهب وقدرات واستطاعوا بفضل هذه المواهب والقدرات أن يشقوا طريقهم التعليمي بنجاح وأن يعايشوا هذه المهنة بشيء من الكفاءة مع شيء من التعب وبذل الجهد إلا أنهم يبقون أقل منزلة وأدنى مكانة عن سابقيهم.

وضرب منهم في الحضيض وهؤلاء هم الكادحون الذين أكرهوا على هذه المهنة الشاقة وأرغموا على اختيارهم لها لأن سبل الحياة قد سدت في وجههم فلجؤوا إليها لا عن رغبة ولكن لضيق ذات اليد، ولأنها أقصر السبل فولجوا غمارها متعبين ودخلوا أغوارها كارهين. وقد عجزوا عن حمل تبعاتها ومسؤولياتها فأخفقوا فيها ولم يستطيعوا مواكبة ركبها وسقطوا في الطريق:

إذا ضاقت بنا سبل المعالى
وأفلسنا نصير معلمينا

هذا الصنف في رأيي كثير بين المعلمين.. وأظنهم السبب في اخفاق التعليم في بلادنا إضافة الى أسباب أخرى.. وإذا ما جالست هذا الصنف فإنك تشعر أنهم يحملون هموم الدنيا كلها فتأوهاتهم وزفراتهم تتقطع لها نياط القلوب، وأظن شاعرنا طوقان واحدا من هذا النوع من المعلمين، لذلك حمل هذه الحملة الظالمة على شوقى وعلى المعلمين.. ناسيا أن المعلمين قادة الشعوب في الأمم التى تحترم نفسها.

الهوامش :

(١) ألقيت هذه القصيدة في حفل قام به نادى مدرسة المعلمين العليا.

(٢) ديوانه ج ١، ص ١٨٠.

(٣) طبع السيف: صاغه - صدىء الحديد: أى غير مجلو ولا مصقول.

(٤) مارس ابراهيم مهنة التعليم في المدرسة الرشيدية «بالقدس» وضاق ذرعا بتلك المهنة، ثم ساءت صحته فترك التعليم.

(٥) ديوانه ص ١٠٦.



□ خلق الله تعالى الأرض وأودع فيها كل أسباب الحياة وأمدها بالنواميس التى تكفل لها حفظ توازنها، قال تعالى: ﴿والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾[١]، فبقي ذلك التوازن مصونا لملايين السنين، حتى ظهر الإنسان وتطورت حضارته مشيعة في الأرض كل ألوان الفساد والخراب، يقول تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾[٢].

هذا الفساد عانت منه كل الأوساط الطبيعية من البحر إلى البر لتصبح شيئا فشيئا غير ملائمة لإيواء الحياة مما أضر كثيرا بالتنوع البيولوجي فانقرض كثير من الكائنات الحية واندثر العديد من المنظومات البيئية، والغريب في الأمر أن ذلك الإفساد يحدث بحجة إقرار التنمية وتحقيق التقدم وإصلاح أحوال الناس، ليصدق قوله تعالى: {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون}[٣].

وتعتبر ظاهرة التغير المناخي من أخطر أوجه وتجليات هذا الإفساد، وتنتج عن الانبعاث الغازي الناتج عن مختلف الأنشطة الصناعية والسوسيواقتصادية للإنسان.

التغير المناخي.. الخطر المحدق بالأرض

وقد صادقت أخيرا روسيا على بروتوكول «كيوطو»، المحدد لظروف وآليات الحد من هذا الانبعاث، ولكنه بالتزامن مع ذلك، ومرة أخرى ترفض الولايات المتحدة قبوله جملة وتفصيلا.. لتتناسل الأسئلة من جديد بشأن هذه الظاهرة وتأثيراتها المستقبلية وعواقب رفض أكبر قوة صناعية في العالم الانخراط في الجهود الدولية الرامية الى مكافحتها، ويبرز هذا الموضوع بعض المعطيات العلمية الخاصة بهذه الظاهرة، وكرونولوجيا المجهودات الدولية بخصوص مكافحتها، وأيضا عواقبها المستقبلية.

١.تعريف وكرونولجيا[٤] :

نعني بالتغيرات المناخية مجموع الظواهر المناخية الملاحظة منذ عقد السبعينيات من القرن الماضي المرتبطة بالأنشطة الصناعية المسببة للانبعاث الغازي.

- بعد اكتشاف مفعول «البيت البلاستيكي» (Effet de serre) من طرف Fournier سنة ١٨٢٧م قدم السويدي Svante Arrhenius سنة ١٨٩٦م فرضية مفادها أن ارتفاع نسبة انبعاث غاز ثنائي أوكسيد الكربون في الهواء يمكن أن يحدث ارتفاع حرارة الأرض.

- في سنة ١٩٧٢ تحرك علماء المناخ وأطلقوا برنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNUE) بعد قمة الأمم المتحدة حول الإنسان والبيئة بستوكهولم.

- سنة ١٩٧٩م تم عقد مؤتمر جنيف حول المناخ.

د. أحمد صدقي

المغـــرب

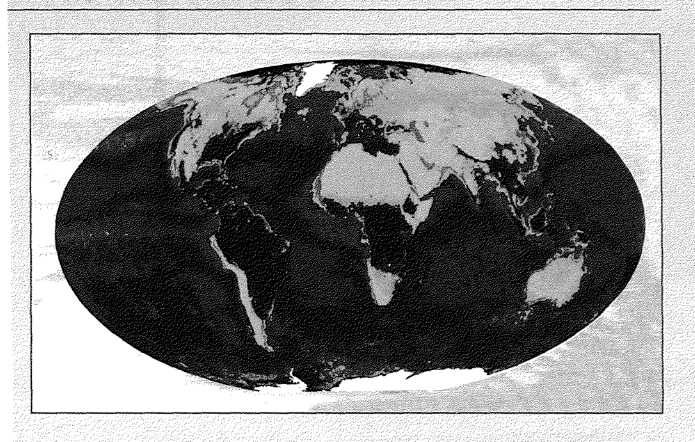
- بعد ذلك أصبح يتضح شيئا فشيئا كون انبعاث الغازات (CO_2 «ثنائي أكسيد الكربون» وCH_4 «الميثان» وN_2O «بروتوكسيد الأزوت») يعتبر مسؤولا عن ظاهرة الانحباس الحراري.

- سنة ١٩٨٨م تأسست «المجموعة العالمية حول التغير المناخي GIEC» التي وضعت الأوراق المقدمة لمؤتمر جنيف (١٩٩٠م) الذي انبثقت منه دعوة المجتمع الدولي لاتخاذ الاحتياطات والتدابير المستعجلة للحد من انبعاث الغازات المسؤولة عن الانحباس الحراري.

- سنة ١٩٩٢م في قمة الأرض ب «ريو» وضع مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية مشروع Agenda 21 الضخم الذي يهدف الى الدفع بالتنمية المستدامة خلال القرن ٢١[٥]. وخلال نفس القمة التزمت ١٧٨ دولة بخفض نسبة الانبعاث الغازي وإقراره في مستوى لا يضر بالمناخ.

- سنة ١٩٩٥م أكدت (GIEC) أن حرارة الأرض ترتفع سنويا بمعدل ٠,٣ الى ٠,٦°C خلال قرن واحد، وأن الإجراءات المعلنة خلال قمة «ريو» غير كافية.

ظواهر التغير المناخي في العالم نتيجة مباشرة لعبث البشر بالثوابت الكونية.



ـ سنة ١٩٩٧م انعقد المؤتمر العالمي الثالث ب «كيوطو» اليابانية: (قمة الأرض الثانية) وخلاله رفضت الولايات المتحدة الخضوع لمقترح الاتحاد الأوروبي القاضي بخفض الانبعاث الغازي المسبب للانحباس الحراري بنسبة ١٥٪ في حدود ٢٠١٠م وتم الاتفاق على نسبة ٢ر٥٪ في حدود سنة ٢٠١٢، ولكن بعض الدول الصناعية لم تحترم التزاماتها في ذلك[٦]. ومن غريب الصدف أن الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب كان سباقا الى إثارة ملف التغيرات المناخية في المحافل الدولية منذ سنوات (١٩٨٧ ـ ١٩٨٨م)[٧].

(قمم الأرض) أصبحت مثل (قمم العالم المتخلف) لا تجد احتراما من الدول الصناعية.

ـ سنة ٢٠٠٠ انعقد بلاهاي المؤتمر السادس لمقاومة الانحباس الحراري ولم يتمكن من وضع نص نهائي متفق عليه، كما أن المؤتمر المنعقد بنيويورك سنة ٢٠٠١م سجل رفض الولايات المتحدة الامريكية الإذعان لمقتضيات بروتوكول «كيوطو».

٢ ـ نتائج التغير المناخي[٨] :

إن تركيز CO_2 و N_2O وCH_4. في الهواء عرف ارتفاعا مهولا خلال القرن العشرين نتيجة كثافة الأنشطة الصناعية والسوسيواقتصادية ويساهم CO_2 في الانحباس الحراري بنسبة ٧٥٪، أما ٢٥٪ المتبقية فيشترك فيها كل من CH_4 و N_2O. وتسجل فرنسا أقل نسبة للانبعاث الغازي مقارنة بالدول الصناعية نتيجة استخدامها للطاقة النووية في الإنتاج الكهربائي.

تقرير سري وُجِّه لأمريكا مفاده ان التغير المناخي خلال عقدين سيؤدي الى قتل الملايين.

إن التغير المناخي سيؤدي مستقبلا إلى ارتفاع منسوب مياه البحر بنسبة قد تصل الى cm٩٥ سنة ٢١٠٠ وذلك نتيجة ذوبان الكتل الجليدية القطبية بفعل ارتفاع حرارة الأرض مما سيشكل خطرا حقيقيا على التجمعات البشرية المستقرة في المناطق الساحلية، كما أن هذا التغير المناخي سينتج عنه ارتفاع ملوحة الأراضي الزراعية ووتيرة انجرافها وستزداد بسببها حدة بعض الظواهر المناخية كالنينو والعواصف والأعاصير، وكل ذلك ستكون عواقبه كارثية بتدمير الكثير من المنظومات البيئية وانتشار العدوى ببعض الأمراض، وسيشهد العالم أحوال مناخية غير عادية:

- جفاف حاد في المناطق المتوسطية وأمريكا وإفريقيا وجنوب آسيا وأستراليا.
- تساقطات مهولة في شمال كل من أوروبا وأمريكا وآسيا.

وتشير بعض الدراسات أن هذه التخمينات بدأت تتحقق في الواقع بحيث سجل سنة ٢٠٠٣ تضرر ٢٥٤ مليون شخص من الكوارث الطبيعية مقابل ٩٠,٠٠٠ فقط سنة ١٩٩٠م[٩].

وقد توقع تقرير سري وجه للإدارة الأمريكية، أنه في العقدين القادمين سيخلف التغير المناخي كوارث ضخمة ستودي بأرواح الملايين، وحذر من أن العديد من المدن الأوروبية ستغرق في غضون ٢٠٢٠م، وأن بريطانيا سيغطيها صقيع جليدي بشكل كامل، وأن نهر «ساكرامنتو» سيحول كاليفورنيا إلى منطقة بحرية وكل ذلك سترافقه موجة من الصراعات والحروب حول مواقع الحياة الآمنة، هذا التقرير خلف زوبعة في صفوف الأوروبيين الذين حملوا أمريكا كامل المسؤولية بسبب تقاعسها عن التدبير الجدي لملف التغيرات المناخية[١٠] ■

الهوامش :

(١) سورة الحجر الآية/ ١٩.

(٢) سورة الروم الآية/ ٤١.

(٣) سورة البقرة الآية/ ١١.

(٤) Changements climatiques - Collection Microsoft @ Encarta @ 2004.

(٥) تم تعريف التنمية المستدامة ب: «تنمية تستجيب لمتطلبات الحاضر دون الإضرار بحق أجيال المستقبل في الاستجابة لمتطلباتهم» وذلك من طرف لجنة Bruntland الأممية سنة ١٩٨٧م.

(٦) مجموعة من المؤلفين، المفيد في علوم الحياة والأرض، كتاب التلميذ، السنة ١ الثانوي الإعدادي، الدار المغربية للكتاب ٢٠٠٣م.

(٧) Dominique Dron, Menaces sur terre, nouvel observateur, 26 sept - 2 oct 2002.

(٨) Changements climatiques - Collection Microsoft @ Encarta @ 2004.

(٩) عن جريدة التجديد (المغربية)، عدد ١٠٠٧، ٢٠ ـ ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤م.

(١٠) نفس المرجع عدد ١٠٠٧، ٢٠ ـ ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤م.



نفايات المصانع تهدد أجيال المستقبل

□ أعجب ميراث للقرن العشرين ذلك الكم الهائل من النفايات الكيميائية الذي تقذفه مئات الآلاف من المصانع في أرجاء المعمورة. وهو ميراث عجيب لأنه سم زعاف يهدد أجيال المستقبل بالوبال والهلاك، وأعجب من توريث السموم غفلة إنسان اليوم وقلة اكتراثه بما سوف يجري لذريته من بعده.

وقضية توريث السموم ليست مسألة للبحث العلمي بحيث تترك للمشتغلين بالكيمياء وحدهم، بل هي قضية متشعبة الجوانب متعددة الأبعاد، ولا تقل الجوانب البيئية والأخلاقية لهذه القضية أهمية عن الجوانب العلمية والفنية.

على السطور التالية ننظر الى الجوانب المختلفة لقضية توريث السموم، تنبيهاً للخطر وإيقاظاً للضمائر.

يمكن أن نطلق على القرن العشرين اسم «عصر الكيمياء» فقد انتشرت المصانع في هذا القرن انتشاراً مذهلا بحيث لم تعد مقصورة على بلد دون بلد أو دولة دون دولة، وقد أصبح تقسيم البلدان إلى دولة صناعية وأخرى غير صناعية من مخلفات الماضي التى نطالعها في سجلات التاريخ.

وتتعامل شتى المصانع المنتشرة في أنحاء المعمورة في عشرات، بل مئات، المواد الكيميائية، ومن هذه المواد ما أمكن إنتاجه مؤخراً - أي لم يكن معروفاً من قبل، ومثل هذه المواد الكيميائية الجديدة لها منافع جمة، ولكنها في ذات الوقت تخلق مشاكل عدة، أهمها عدم معرفة أفضل طريقة مأمونة لحفظ تلك المواد وللتخلص منها دون أثر ضار على البيئة.

د. عبدالرحمن عبداللطيف النمر

القاهـــرة

وقد كانت الكيمياء الجديدة مصدر كوارث عديدة، ما يزال بعضها قريب العهد.. فمثلا انفجر مصنع «اكميزا» (Icmesa) للمواد الكيميائية في يوليو عام ١٩٧٧م، وكان يقع ذلك المصنع في مدينة «سيفيزو» (Seveso)، وهي مدينة صغيرة في شمال إيطاليا، ونتيجة الانفجار اتحدت بعض المواد الكيميائية وكونت مركباً عالي السمية اسمه «ديوكسين» (Dioxin) وعلى الرغم من إخلاء المدينة من ساكنيها بعد الانفجار، إلا أن الآثار السامة لهذا المركب «ديوكسين» الذي انتشر على هيئة سحابة ضخمة لفَّت المدينة عقب انفجار المصنع، بدأت تظهر على سكان المدينة المنكوبة بعد شهور من الحادثة، وقد تراوحت آثار التسمم بالمركب «ديوكسين» بين ظهور طفح جلدي مستعص على العلاج، إلى الإصابة بالغثيان والقيء المتكرر، إلى الإصابة بالدوار ونوبات الإغماء (نتيجة التأثير على الجهاز العصبي) إلى ولادة أطفال مشوهين.

كذلك امتدت الآثار السامة للمركب «ديوكسين» إلى الحيوان والنبات، وحتى الى التربة، في المدينة الإيطالية المنكوبة «سيفيزو» فأتت على الأخضر واليابس، وعلى الرغم من تقويض البيوت وإحراق الأثاث وحرث التربة، في محاولة للتخلص من المركب السام «ديوكسين»، فما تزال مدينة «سيفيزو» (أو بالدقة مكانها إذ لم يعد باقياً من معالم المدينة شيء بعد تسويتها بالتراب) معلنة «منطقة خطر» يحظر دخولها إلا على أفراد حماية البيئة المكلفين من قبل الحكومة الإيطالية بوضع طبقة سميكة من الأسمنت على سطح أرض المدينة للحيلولة دون تصاعد أي مقدار من المركب السام إلى الهواء، وحتى أفراد حماية البيئة لا يقضون في العمل في المدينة المنكوبة أكثر من أربع ساعات كل يوم، يرتدون أثناءها ملابس خاصة للوقاية من السم الذي انتشر.

وانفجارات المصانع ليست النوع الوحيد من الكوارث البيئية التى يُبتلى بها الإنسان في عصر الكيمياء، فهناك كارثة أخرى وقعت في الولايات المتحدة لا تقل شؤماً ولا فداحة عن كارثة «سيفيزو» فخلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين قامت شركة امريكية تختص في التخلص من النفايات الصناعية بدفن آلاف الأطنان من المواد الكيميائية حول وبالقرب من «قناة الحب» (Love Canal) ، وهي منطقة قريبة من شلالات نياجرا. وفي عام ١٩٥٣م، بيعت تلك الأراضي لمؤسسة للإسكان قامت بإنشاء عدة دور سكنية في الموقع، وفي أواخر السبعينيات ظهرت وتفشت بين السكان عدة أمراض بصورة وبائية.

ما جرى في ذلك الموقع السكني هو أن مياه الأمطار أدت الى تذويب المواد الكيميائية المدفونة في التربة، وهذه بدورها طفت إلى السطح وتسربت عبر منافذ التربة الى الهواء داخل البيوت وخارجها، وقد ترتب على استنشاق السموم المتصاعدة من التربة حدوث إجهاض بين النساء الحوامل، وولادة أطفال مشوهين، فضلا عن ارتفاع معدل الإصابة بأمراض الرئتين إلى مستوى وبائي، وقد أُخْلي الموقع السكني من مائتين وخمس وثلاثين أسرة كانت تعيش فيه، وأعلن الموقع منطقة كوارث.

انفجار مصنع (اكميزا) في ايطاليا أدى الى اخلاء المدينة من ساكنيها بسبب غاز (ديكسون) السام.

كوارث التسمم بنفايات المصانع دفعت أولي الأمر في كثير من البلاد إلى إصدار القوانين لحماية الناس والبيئة من السموم الكيميائية التى تفرزها وتنفثها المصانع. إلا أن هذه القوانين تبقى قاصرة في كثير من الأحوال، وأظهر ما يكون القصور في ناحية تصريف نفايات المصانع

السامة، فأغلب القوانين تركز على التخلص المأمون من النفايات السائلة التي يجري صرفها من المصانع الى مجاري المياه الطبيعية مباشرة، مثل الأنهار والبحار والمحيطات، كما أن أبخرة المصانع تنفث في الهواء من السموم ما يقع وراء طائلة القانون، ثم إن التعبير بعبارة «التخلص المأمون» التي تنص عليها أغلب قوانين حماية البيئة، تعبير غير دقيق.

ففي ضوء المعرفة المتاحة اليوم، وفي ضوء ما هو معروف عن خصائص مادة معينة يراد التخلص منها، فقد يكون في وضع تلك المادة في وعاء مصمت من الصلب أو الأسمنت ثم دفن ذلك الوعاء في باطن الأرض، ما يمكن وصفه بأنه تخلص مأمون وفق القانون! ولكن الحقيقة العلمية أن كثيراً من المواد الكيميائية التي تدفن على النحو المذكور في باطن الأرض، قد تتعرض نتيجة انفجارات أو حوادث طبيعية مثل الزلازل والبراكين، الى الدخول في اتحاد كيميائي مع عناصر أو مواد أخرى في الطبيعة، بحيث قد ينتج في النهاية مركب أعلى سمية من المادة الأصل التي أريد التخلص منها، وعلى ذلك، فإن ما يعتبر مأموناً في ظل القوانين الحالية قد لا يكون مأموناً بالمرة في المستقبل غير البعيد.

بالقرب من شلالات نياجرا دفنت المصانع الامريكية مواد كيميائية تسربت مع مياه الامطار، وتسببت في امراض مستديمة لسكان المنطقة.

من جهة أخرى، فإن التقدم الصناعي المذهل الذي يشهده النصف الثاني من القرن العشرين أدى إلى إنتاج عشرات المواد والمستحضرات الجديدة تماماً. والمعروف عن خصائص هذه المواد جد قليل، بالتالي فإن آثارها السامة لا تتضح إلا بعد فترة من استعمالها، علاوة على ذلك فإن الطرق المأمونة للتخلص من تلك المواد السامة أو من نفاياتها تبقى غير معروفة.

من أمثلة الحقول التي شهدت تقدماً صناعياً واسع الخطى في عمر قصير نسبياً، صناعة تكرير البترول، وصناعة المواد الكيميائية المستخدمة في حقل الزراعة مثل محسنات التربة والمبيدات الحشرية، والصناعات الثقيلة، ومن أمثلة المواد الجديدة التي ظهر لها تأثير سام قوي المبيد الحشري «ديلدرين»، والمادة المستعملة للعزل في الأجهزة الكهربائية والتي تعرف اختصارا بالحروف (P0ly Chlorinated Biphenyls PCBS).

وقد اتضح مؤخرا أن مادة (PCBS) تسبب السرطان وتؤدي الى التشوهات الخلقية عند الأجنة، كما اتضح أن تلك المادة، مثلها مثل المبيد الحشري «ديلدرين»، من المركبات الكيميائية الثابتة، أي التي لا تتغير طبيعتها بمرور الزمن، ومعنى ذلك أن هذه المواد تبقى سامة إلى زمن لا نهائي لا يحيط بعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.. وعند التخلص من تلك المواد، كائنة ما كانت الطريقة، فإنها تكون قنابل موقوتة من السموم في بيئة الإنسان.

وفوق كل ما تقدم، فإن قوانين حماية الإنسان والبيئة من نفايات المصانع والسموم الكيميائية، تبقى غير موجودة في كثير مما يسمى بلاد العالم الثالث، والمؤسف والمؤلم، فضلا عن غياب مثل هذه القوانين، هو تحول كثير من تلك البلاد التي غابت فيها قوانين حماية البيئة إلى مقبرة للنفايات السامة من مصانع ما يسمى البلاد المتقدمة، وفي ظل هذه الأوضاع، تبرز مسألة التخلص من عادم الصناعة السام كقضية أخلاقية ذات أبعاد دولية.

والأدهى والأمر من دفن السموم في بعض بلاد العالم الثالث، الحيلة الذكية التي لجأت إليها بعض البلاد الصناعية المتقدمة بإنشاء مصانعها في بعض بلاد العالم الثالث، والدعوى الرائجة وراء ذلك هو رخص الأيدي العاملة في البلاد الفقيرة، وقد يكون في ذلك شيء من

الحقيقة، إلا أن الدافع المستتر ـ والله أعلم بالسرائر ـ هو إمكانية التخلص من العادم السام في مواقع المصانع مباشرة، دون الوقوع في الحرج الأخلاقي الناشيء عن تصدير سموم المصانع إلى مقابر النفايات في العالم الثالث، وإذا انبرى مدافع للدفاع عن نوايا البلاد المتقدمة في إنشاء مصانعها في البلاد المتخلفة والفقيرة التي تغيب فيها قوانين حماية الإنسان والبيئة، فإن الرد عليه يكون ببساطة شديدة هو أن النوايا إذا كانت نبيلة حقا، لاجتهد أصحاب تلك المصانع في إلزام أنفسهم بالتخلص من النفايات السامة بطريقة لا تعود بالضرر على البلاد والعباد.

تدوير السموم:

مهما تفتق ذهن الإنسان على حيل ووسائل للتخلص من النفايات الصناعية السامة، فسوف يبقى عنصر الخطر موجودا، على الأقل مع بعض المواد إن لم يكن مع كل المواد، ولعل الحل الأمثل هو تدوير المواد الكيميائية السامة، أي إعادة استعمالها بدلا من دفنها في مقابر تجعل منها قنابل موقوتة تهدد أجيال المستقبل.

استخدمت شركة «باير» في المانيا الغربية طريقة تدوير العادم الصناعي السام للتخلص من حامض الكبريتيك، بدلا من إعدامه بالدفن، وتستفيد الشركة الألمانية التي تختص في إنتاج العقاقير من الحامض في عشرات العمليات الكيميائية، وفعلت شيئا مماثلا الشركة البريطانية «آي سي آي» ICI، إذ استخدمت نفايات مصنع للبلاستيك وآخر للألياف الصناعية كوقود لمحطة الطاقة الخاصة بها، ومما يذكر أن شركة ((ICIواحدة من كبرى الشركات الصناعية البريطانية التي يغطي نشاطها حقل الكيمياء الصناعية بوجه خاص.

ومما قد يفيد في عملية تدوير السموم الصناعية ما يسمى اليوم «تبادل الأيونات» ((Ion exchange وهي عملية كيميائية أمكن الوصول إليها بفضل التقدم المذهل في حقل الكيمياء الصناعية، وعن طريق تبادل الأيونات يمكن تغيير الطبيعة الكيميائية لمادة ما بحيث تصبح أقل ضررا وسمية، وحتى غير سامة على الإطلاق.

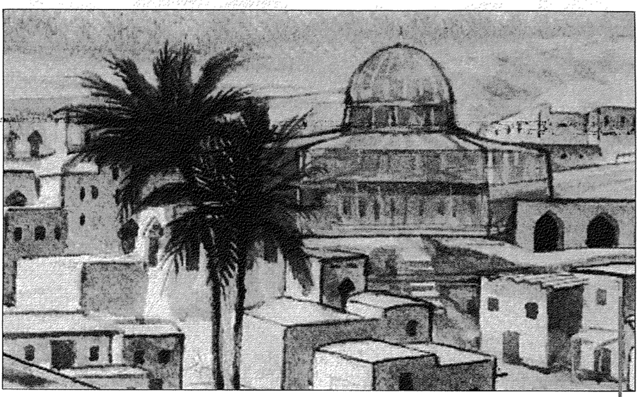
دول العالم الثالث غدت المكان المناسب لدفن مخلفات المصانع الكيميائية.

على أن إعادة استعمال النفايات الصناعية السامة واللجوء الى تبادل الأيونات من الحلول المستحدثة التي تحتاج إلى مزيد بحث وتجريب، والى أن يتحقق ذلك يمكن اللجوء الى ما يسمى «تمييع السموم» (أو معادلة السموم).

ويشير هذا التعبير الى معالجة المادة السامة بطريقة تحولها إلى مادة غير سامة قبل التخلص منها، مثال ذلك معالجة مركبات «سيانيد» بغاز الأكسجين قبل إعدامها بالدفن، ومركبات «سيانيد» عالية السمية، ومعالجتها بغاز الأكسجين يؤدي إلى تكوين مركبات عضوية غير سامة يمكن إحراقها أو دفنها.

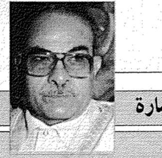
وعلى الرغم من أن تمييع السموم قد يبدو حلا مثاليا في ظل الموقف الراهن، إلا أنه حل له تكاليفه الباهظة، وهذا اعتبار له أهميته في عالم يجري وراء الربح ويتكلم بالأرقام، وخلافا لاعتبار التكلفة العالية، فإن تمييع السموم غير ممكن التطبيق مع كل مادة سامة يراد التخلص منها، وإذن فإن مشكلة التخلص من العادم الصناعي السام تبقى قائمة بشكل ما.

ونخلص من جميع ما تقدم إلى أن نفايات المصانع تهدد الإنسان وبيئته، والتخلص من المواد السامة في تلك النفايات عملية معقدة لها جوانبها العلمية والعملية، ولها كذلك أبعادها الاقتصادية والأخلاقية، وإذا كان التقدم العلمي يحمل الأمل بتوفير طريقة مأمونة للتخلص من سموم المصانع، فإن هذا الأمل لن يتحقق قبل عدة سنوات مع التفاؤل الشديد، فهل نستمر فيما نحن عليه من دفن قنابل السموم الموقوتة لترثها أجيال بريئة لم تولد بعد؟! ■



بين رحمة الإسلام .. ودموية التوراة المفتراة

□ لقد حصر الإسلام أسباب القتال المشروع في رد عدوان الفتنة في الدين - حتى يكون الدين خالصا لله - وفي رد العدوان على الأوطان، عدوان الذين يخرجون المسلمين من ديارهم، أو يظاهرون ويساعدون على إخراجهم من الديار.. وجعل لهذا القتال ضوابط وشمائل، ازدانت بها الفروسية الإسلامية، قبل أن تعرف الإنسانية المواثيق الدولية في هذه الميادين - على النحو الذى سبقت إشارتنا إليه تفصيلا.



أ. د. محمد عمارة
مصـــر

ولأن هذه كـانت مـعـايير القـتـال في الإسلام.. وأخلاقيات فروسية هذا القتال التى التزمها المسلمون.. كانت حصيلة ضحايا كل الغزوات التى قادها رسول الله، {صلى الله عليه وسلم}، وخاضها المسلمون، على امتداد السنوات التسع التى شهدت الغزوات والبعوث والسرايا القتالية ـ في دولة الإسلام الأولى، بالمدينة المنورة ـ كانت حصيلتها ذلك الرقم المدهش في تواضعه الشديد، إن لم نقل في ضئالته و«تفاهته»..

فعلى حين أهلكت الحروب الدينية، بين مذهبين داخل النصرانية ـ الكاثوليك والبروتستانت ـ في وسط أوروبا ٤٠٪ من تعداد شعوب تلك البلاد ـ عشرة ملايين حسب إحصاء «فولتير» لم يزد ضحايا كل غزوات الإسلام وحروبه ضد الشرك واليهود في شبه الجزيرة العربية، على عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، عن ٣٨٦ من الفريقين ـ شهداء المسلمين وقتلى المشركين!!

وحتى تطمئن القلوب المندهشة من «تفاهة» هذا الرقم! ـ إذا جاز التعبير ـ فإننا نقدم الجدول الإحصائى لضحايا الغزوات والبعوث العشرين، التى سقط فيها ضحايا:

م	الغـــزوة	عدد قتلى المشركين	عدد شهداء المسلمين	تاريخ الغزوة	ملاحظـات
١	بعث عبد الله بن جحش	١		سنة ٢ هـ	
٢	غزوة بدر	٧٠	١٤	سنة ٢ هـ	
٣	غزوة السويق		٢	سنة ٢ هـ	
٤	بعث كعب بن الاشرف	١		سنة ٣ هـ	
٥	غزوة أحد	٢٢	٧٠	سنة ٣ هـ	
٦	غزوة حمراء الأسد	١		سنة ٣ هـ	
٧	بعث الرجيع		٦	سنة ٣ هـ	
٨	بعث بئر معونة		٢٧	سنة ٣ هـ	
٩	غزوة الخندق	٣	٦	سنة ٥ هـ	
١٠	غزوة بنى قريظة	٦٠٠		سنة ٥ هـ	هؤلاء قتلوا بالتحكيم جزاء الخيانة، فلا يحسب عددهم في ضحايا القتال..
١١	بعث عبد الله بن عقيل	١		سنة ٥ هـ	
١٢	غزوة ذى قرد	١	٢	سنة ٦ هـ	

م	الغـــزوة	عدد قتلى المشركين	عدد شهداء المسلمين	تاريخ الغزوة	ملاحظـات
١٣	غزوة بنى المصطلق		١	سنة ٦ هـ	
١٤	غزوة خيبر	٢	٢٠	سنة ٧ هـ	
١٥	غزوة وادى القرى		١	سنة ٧ هـ	
١٦	غزوة مؤتة		١١	سنة ٨ هـ	
١٧	فتح مكة	١٧	٣	سنة ٨ هـ	
١٨	غزوة حنين	٨٤	٤	سنة ٨ هـ	
١٩	غزوة الطائف		١٣	سنة ٨ هـ	
٢٠	غزوة تبوك			سنة ٩ هـ	
	المجمـــوع	٢٠٣	١٨٣	المجموع الكلي ٣٨٦ [١]	

بل إن الدهشة لتتزايد إذا علمنا أن عدد المساجد التى أقامتها جيوش الجهاد الإسلامي ـ وهى ذاهبة الى القتال أو وهي عائدة منه ـ قد زادت على عدد الضحايا الذين قتلوا في هذه الغزوات!٠٠ وكذلك عدد البعوث التى خرجت من المدينة المنورة لتعليم الناس القرآن الكريم والفقه في الدين قد فاقت بكثير عدد بعوث الغزو وسرايا القتال.

لقد كانت جراحات مكروهة، فرضها المشركون واليهود على رسول الله {صلى الله عليه وسلم} والذين آمنوا معه٠٠ وإذا كان القرآن الكريم يعلمنا أن اليهود هم أحرص الناس على حياة ـ حياتهم هم ـ بينما هم أحرص الناس على إبادة كل الأغيار٠٠ فإن الحرص الإسلامى إنما هو على هداية الأحياء، لإحيائهم بالإسلام٠٠ فهدف الإسلام هو الإحياء ٠٠ وليس الإفناء: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون} (الأنفال آية/٢٤).

ومع كل هذه الحقائق والأرقام المذهلة٠٠ ومع هذه الأخلاقيات التى حكمت فروسية القتال الإسلامية ومع هذه المبادىء والمعايير القرآنية التى حكمت مشروعية القتال في الإسلام٠٠ مع كل ذلك، تحدّث الكذبة عن انتشار الإسلام بالسيف والعنف والإكراه٠٠ ولا يزالون يتحدثون.

أما موقف «اليهودية ـ التوراتية» من قتال وقتل الآخرين والأغيار٠٠ فإنه ـ بإيجاز٠٠ وفي كلمات : «الإبادة لكل الآخرين ٠٠ حتى ولو كانوا لا علاقة لهم بالقتال وفنونه وقدراته٠٠ أو حتى نيته والتفكير فيه!٠٠ الإبادة لمطلق الناس وعموم النفوس٠٠ بل وللبيئة والمحيط اللذين يعيش فيهما هؤلاء الآخرون»٠٠ شريطة ان يكون اليهود على هذه الإبادة قادرين!٠٠

ولننظر كيف فاقت وتفوقت نصوص هذه التوراة - التى هى انقلاب على روح ومقاصد ومغايير توراه موسى، عليه السلام - كيف فاقت وتفوقت نصوصها على الخيال، في التشريع والتقنين لإبادة الآخرين، لا لشيء إلا لأنهم آخرون وأغيار!..

والعجيب أن هذه التوراة تورد كل أوامر الإبادة - إبادة اليهود للأغيار - باعتبارها أوامر «الرب» وفرائضه، التى بدون تنفيذها يتزايد غضبه وانتقامه!.. فرب اليهود - «يهوه» - وهو خاص بهم، وهم وحدهم شعبه وأحباؤه - هو «رب الجنود.. والجيوش».. والشرط «لكى يرجع الرب عن حمُوِّ غضبه ويعطيك الرحمة»[٢] هو أن يبيد الشعب اليهودى كل الآخرين في الأغيار.

ولذلك طفحت أسفار التوراة، وكتاب يشوع بالأوامر والوصايا التى تقول:

- «فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكارا في الكتاب، وضعه في مسامع يشوع: فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء»[٣].

- وهذا «الرب» لا تقف أوامر الإبادة لديه عند من يحاربهم اليهود، وإنما تمتد لعنة الإبادة الجماعية الى الذرية حتى الجيل الرابع!.. فـ «الرب لا يبرىء، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع»[٤].

فأين هذا من رب العالمين القادر العادل، الذى علمنا في قرآنه الكريم:

{قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء، ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} (الأنعام آية/١٦٤).

- بل إن هذه الإبادة للأغيار ترتفع في النصوص التوراتية، ومن ثم في الثقافة، التى صنعتها وصبغتها هذه التوراه، عند الجماعات اليهودية، إلى حد التقرب بها - بالإبادة - إلى هذا «الرب»: «إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا.. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحرِّمَها - (تدمرها وتهلكها) - بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تُبنى بعد.. لكى يرجع الرب عن حُمُوِّ غضبه ويعطيك رحمة»[٥].

فرحمة هذا «الرب» - يهوه - مرهونه - بإبادة الإنسان والحيوان، وحتى الطبيعة والمبانى والجماد!.

- وهذا «الرب» - يهوه - يأمر موسى بالانتقام من «المديانيين»: «وكلم الرب موسى قائلا: انتقم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين.. فكلم موسى الشعب قائلا: جردوا منكم رجالا للجند فيكونوا على مديان، ليجعلوا نقمة الرب علي مديان.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وسبى بنوا اسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم، كل أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع

حصونهم بالنار، وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم، وأتوا الى موسى وألعازار الكاهن وإلى جماعة اسرائيل بالسبى والنهب والغنيمة»٠

وعندما جاءوا إلى موسى بالسبى والنهب والغنيمة قال لهم - فيما زعموا في هذا التحريف للتوراة - «هل ابقيتم كل أنثى حية؟٠٠ فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن بمضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات»[٦]٠

- وأوامر «الرب» هذه، بهذه الإبادة الكاملة، هى عامة٠٠ وإذا لم ينفذها بنو اسرائيل فإن «ربهم» فاعل بهم الإبادة التي طلب منهم إيقاعها بالأغيار!٠٠ «وكلّم الرب موسى في عربات مو آب على أُرْدُنّ أريحا قائلا: كلّم اسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن الى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم٠٠ تملكون الأرض وتسكنون فيها٠٠ وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا في أعينكم ومناخش في جوانبكم ويضايقونكم في الأرض التى أنتم ساكنون فيها فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»[٧]٠

- ويتم التطبيق والتعميم لهذه الإبادة على كل الأغيار٠٠ فـ«سيحون، ملك حشبون»٠٠ ضربناه وبنيه وجميع قومه، وأخذناكل مدنه في ذلك الوقت، وحرّمنا (أبدنا وأهلكنا) من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال، لم نبق شاردا، لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التى أخذنا»[٨]٠

ولا عوج، ملك باشان٠٠ ضربناه حتى لم يبق له شارد، وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت، لم تكن قرية لم نأخذها منهم، فحرّمناها (دمرناها وأهلكناها) كما فعلنا بسيحون، ملك حشبون، محرّمين كل مدينة، الرجال والنساء والأطفال، لكن كل البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا»[٩]٠

وكذلك الحال - حال الإبادة العامة والتامة للأغيار من الشعوب السبعة «الحثيين» و«الحرجاشيين» و«الأموريين»، و«الكنعانيين»، و«الفريزيين»، و«الحويين»، و«اليبوسيين»، (سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرِّمهم - (تهلكهم وتدمرهم) - لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم٠٠ لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا؟ خص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض٠٠ مباركا تكون فوق جميع الشعوب، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك، ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لا يضعها عليك بل يجعلها على كل مبغضيك، وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك لا تشفق عيناك عليهم)[١٠]٠

فاليهود شعب مقدس - وحتى بهائمهم مقدسة، لا يجرى عليها ما يجرى على البشر الآخرين ولا البهائم الأخرى من الأمراض والعقم٠٠ والمهمة الإلهية المقدسة لهؤلاء اليهود هي «أكل الشعوب»

التى يدفعها «الرب» إلى هؤلاء اليهود، حاكما عليها بهذا المصير الرهيب!.

- ولن ينجى البشر والمدن من «أكل اليهود» لهم عقود ومعاهدات الصلح الذى يصالحونه لليهود أو السلم الذى يعقدونه معهم.. فـ «حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن.. فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريما - (تبيدها وتهلكها إبادة وإهلاكا)[١١].

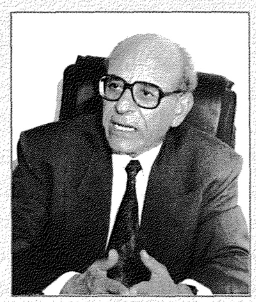
- وكذلك فعل «يشوع بن نون» تنفيذا لأمر الرب «فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها، لم يبق شاردا، بل حرَّم - (أهلك) - كل نسمة، كما أمر الرب إله إسرائيل»[١٢].

وهكذا نجد أنفسنا امام «رب» لا علاقة له بأى من صفات الكمال الإلهية.. وأمام «كتاب مقدس» لا علاقة لتحريفاته العنصرية الحقودة التى أدخلت عليه بأى معنى من معانى القداسة.. وأمام ثقافة عنصرية طفحت بها أحقاد السبى وأكاذيبه وعقده وخيالاته، لتكون المكون الأول للسلوك العنصرى الذى تواجه تجلياته الصهيونية على أرض فلسطين.. فنحن العرب والمسلمين «الأغيار»، إذا صالحنا هؤلاء اليهود، فإن جزاءنا هو «التسخير والاستعباد»، وإذا لم نصالح، فإن جزاءنا هو الخضوع للأكل اليهودى، والتحريم - (الهلاك) - الصهيوني، وذلك تنفيذا لأوامر «يهوه» رب وإله اسرائيل[١٣].

فهل رأينا فارقا - أدنى فارق - بين هذه «اليهودية - التوراتية» وبين «اليهودية - التلمودية»، تلك التى حدثنا عنها إسرائيل شاحاك؟! ■

الهوامش :

(١) ابن عبد البر (الدرر في اختصار المغازى والسير) تحقيق: د. شوقى ضيف، طبعة القاهرة ١٩٦٦م.
(٢) سفر التثنية، إصحاح: ١٣ : ١٧.
(٣) سفر الخروج، إصحاح : ١٧ : ١٤.
(٤) سفر العدد، إصحاح: ١٤ : ١٨.
(٥) سفر التثنية، إصحاح ١٢:١٣، ١٥ - ١٧.
(٦) سفر العدد، إصحاح ١:٣٠ - ٣، ٧، ٩ - ١٢، ١٥ - ١٨.
(٧) سفر العدد، إصحاح ٣٣: ٥٠ - ٥٣، ٥٥، ٥٦.
(٨) سفر التثنية، إصحاح ٢ : ٢٦، ٢٣ - ٢٥.
(٩) سفر التثنية، إصحاح ٣ : ١، ٣، ٦، ٧.
(١٠) سفر التثنية، إصحاح ٧ : ١ - ٣ ، ٦ ، ٧، ١٤ - ١٦.
(١١) سفر التثنية، إصحاح ٢٠ : ١٠ - ١٦.
(١٢) كتاب يشوع، إصحاح ١٠ : ٤٠.
(١٣) للأستاذ المهندس عادل المعلم دراسة نصية متميزة في هذا المجال، صدر منها جزءان بعنوان (التوراة والقرآن مقارنة نصية) والجزء الثانى منها خاص بالقتال في نصوص التوراة والقرآن.. طبعة مكتبة الشروق سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.


د. عبد العزيز حمودة

قضية المسرح «رؤية نقدية»

حوار مع د. عبد العزيز حمودة

□ *تظل قضية المسرح قائمة على مستوى الفعل المسرحي طالما أن هناك نجاحاً وفشلا وقضايا جادة تطرح، وأيضا هزلية تنتج، من أجل الربح المادي وتحقيق مكسب سريع، بعيداً عن المعادلة الصعبة في الفن والفكر والمتعة، واحتراماً لجمهور يعي تماماً ماذا نقدم له من قضية تخصه أو فكر لا يمسه من قريب أو بعيد، فالفرجة المسرحية صعب أن نجعلها أو نسجنها في إطار محدد لأنها مجموعة من الأفكار والرؤى والمشاعر النبيلة، فأحياناً نتركها تنسج لذاتها ثوباً أبيض شفافاً أو ثوباً كالحاً قاتما نراه أحياناً بعين فاحصة وأحياناً لا نراه، لأنه فشل أن ينجح أو يخترق أبصارنا ووجداننا.*

وبالتالي يلح علينا سؤال: كيف ننجح ونتقدم بجمهور يعشق اللعبة؟

وكيف ننأى بعيدا عن الفشل حتى لا نتوارى خلف حائط من الظلام، ونتعثر في ردهات السقوط المخزي!! نطرح الأفكار ونجني الثمار؟.

- في محاولة للاجابة عن علامات الاستفهام تلك .. كان هذا اللقاء مع الأستاذ الأكاديمي والناقد والمبدع المسرحي «د. عبد العزيز حمودة» الذى قدم لنا من قبل (علم الجمال والنقد الحديث - المسرح السياسي - المسرح الأمريكي - المرايا المحدبة - المرايا المقعرة) لكي نتحاور معه طارحين أمامه قضية المسرح بكل ما يحوط بها من علامات استفهام!!.

■ **ماذا يمثل مسرح الثقافة الجماهيرية على الخريطة المسرحية الآن، من وجهة نظر د. عبد العزيز حمودة؟**

** لا أريد أن أبدأ بما يمكن أن يعتبره البعض

صدمة أو استفزازاً، لكنني أعتقد من المتابعة لأنشطة مسرح الثقافة الجماهيرية أنه ربما يكون قد ابتعد عن رسالته الأصلية الأولى. وهي رعاية وتنمية المواهب الواعدة من مؤلفي المسرح الشبان، وفتح الطريق أمامهم للوصول الى مراكز الإشعاع الكبرى في القاهرة أو الأسكندرية، مثلا، وليس العكس. الا أن ما يحدث الآن هو نقل مسرح القاهرة ومسرح المحترفين من كتاب ومخرجين الى الأقاليم في جزء كبير منه وفي رأيي أن هذا ليس وظيفة مسرح الثقافة الجماهيرية ولكنها وظيفة البيت الفنى للمسرح الذى يجب أن ينظم بفرق مسرحية متجولة تقدم المسرح المحترف للهواة.. وما على المرء الا أن يطالع قائمة المسابقة أو المسابقات التى تعقدها الثقافة الجماهيرية بين آن وآخر ليدرك أن أكثر من نصف المسرحيات المشتركة أعمال مؤلفين محترفين في القاهرة، وفي رأيي أن هذا التحول مؤشر في منتهى الخطورة في زمن يتم فيه اختراق الثقافة الشعبية بالعالم العربي عامة من جانب القوى السياسية الأجنبية المهيمنة.

■ كيف يتم تفعيل الدور الحقيقي لمسرح الثقافة الجماهيرية لكي يصل الى السواد الأعظم من جمهور المسرح على مستوى كافة الأقاليم؟.

** أعتقد أن الإجابة وردت ضمناً عن الاجابة على السؤال السابق لأن المقصود بمسرح الثقافة الجماهيرية وهو كما قلت تطوير أو تنمية ورعاية المواهب في أقاليم مصر المختلفة، أذكر في مرحلة من المراحل وحتى فترة قريبة كانت الثقافة الجماهيرية تتباهى على المسرح الرسمى للدولة بانتماءاتها الشعبية الأصلية وتطويرها لفنون الفرجة الشعبية المختلفة مثل مسرح السامر ومسرح الجرن وتطعيمها بعناصر الدراما المدروسة، لكن ذلك أصبح شيئاً من الماضي، لا أتصور مثلا أنني استطيع أن أقدم القضية أو السلطان الحائر لتوفيق الحكيم أو الأستاذ لسعد الدين وهبة أو نور الظلام أو اتفرج ياسلام لرشاد رشدي، وهذه مجرد أمثلة خطرت دون تدبير على ذهني لجماهير مصر العريضة في القرى والنجوع، لأننا في نهاية الأمر سنفشل في توصيل الرسالة المقصودة من ناحية ونفشل في تحقيق الاستنارة المطلوبة من ناحية أخرى ونفشل أيضاً في تحقيق المتعة التى يجب أن ترتبط بفن فرجة فن المسرح.

لو أخذنا ظاهرة تكاد تختفي من الريف المصري مثل ظاهرة مسرح السامر مثلا وكيف كان في صورته البدائية لكنه بالدرجة الأولى يحقق المتعة الصافية والسخرية اللاذعة من أنماط اجتماعية بعينها وأعدنا تطوير أهداف ذلك الشكل الأدائي وتوظيفه في تحقيق استنارة حقيقية لاستطعنا مثلا أن نصل الى المتفرج وهو بالملايين مباشرة، والى اكتشاف مواهب مسرحية شعبية حقيقية تكون محطتها النهائية هي مسرح المحترفين في القاهرة وليس ما يحدث اليوم، حينما تفرض أذواق المسرح المحترف من بعيد على قطاعات غير قادرة على تذوقه أو التعامل معه.

■ هل يختلف منظور الحرية الابداعية من المبدع صاحب العمل الابداعي بما يمتلكه من خيال ورؤية فنية أو أدبية وبين المتلقى لهذا الابداع على مستوى ثقافته والتفاوت الثقافي من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر أيضا؟.

حــوار : جمــال عمــر

القاهــرة

الثقافة الشعبية في العالم العربي أصبحت مخترقة من جهات مشبوهة.

** المبدع بصفة عامة ونحن لا نتحدث الآن عن الثقافة ثقافة الحياة، يقوم بدور الريادة الفكرية بل إن هناك بين النقاد المحدثين اليوم من يحتفظون للمبدع بوظيفة النبوءة أو يصفونه على الأقل بالعراف.

هذا الدور الريادي والقيادي والتنويري يعني التسليم بأن المبدع سابق لعصره، ولديه رؤية مستقبلية تقوم على الواقع المعاش وهذه الرؤية هي ما يريد توصيله الى المتلقي الذي يفترض انه أقل وعياً والذي يهدف المبدع الى تغيير وعيه، من هذا المنطلق فإن قدر الحرية الذي يتمتع به المبدع أكبر بكثير من قدر الحرية عند المتلقي أو المشاهد، والذي نريد أن نعلمه اياه من هذا، فأعتقد أن درجة الحرية التى يجب أن يتمتع بها المبدع لا تعرف الحدود طالما انها توظف لخدمة السياق الفني أو الجمالي، وإن كانت هناك في رأيي بعض الخطوط الحمراء التى لا يجب على المبدع أن يتخطاها كأن يتعمد صدمة الذوق العام والقيم الراسخة والمتعارف عليها لمجرد الصدمة وليس التعليم.

■ الخطاب المسرحي بطرفيه المبدع والمتلقي هو عملية ديناميكية والعلامات المسرحية تلعب دوراً كبيراً في تجسيد هذا الخطاب وفي العملية التنويرية أيضا.. ماذا يعني هذا للجمهور؟ والى أي مدى يتحقق هذا على خشبة المسرح؟.

** القول بأن المسرح أو التجربة المسرحية تختلف عن التجارب الابداعية الأخرى فإنها تقوم على علاقة ديناميكية بين خشبة المسرح والمتلقى هو على وجه التحديد ما يميز المسرح أو أي من الأنواع الأدبية الأخرى القرائية أو الكتابية.. من المتفق عليه أن التجربة المسرحية هي نص يؤديه فنانون في حضور جمهور، وبدون جمهور يصبح النص نصاً أدبياً فقط وليس نصاً مسرحيا، صحيح أنه في ظل التيارات النقدية الحداثية وما بعد الحداثية الأخيرة كثر الكلام عن علم العلامات أو السميوطيقاً، في التجربة المسرحية، لكنني في حقيقة الأمر أرى أن ذلك من باب «الموضة» والجرى وراء كل ما هو جديد حتى حينما يكون ذلك الجديد جديداً على الاطلاق، فاللفظ منطوقاً أو مكتوباً اتفق على انه علامة منذ أيام «عبد القاهر الجرجاني» وقبل أن يغرقوا في الحديث عن السيميولوجيا والسيميوطيقا.. وعلم العلاقات وكل ما يقوم به الممثل على خشبة المسرح حتى لحظات الصمت وطبيعة الزي المسرحي والاستخدام الخاص للالوان، كله سلسلة من العلامات تنتظم داخل سياق يحدده الهدف الذي نريد توصيله، أو بلفظ أو حسب قول المحدثين الدلالة التى يراد توصيلها.. وأنا شخصياً حتى داخل الأوساط الأكاديمية أرفض ذلك الاستغراق الشكلي في النظريات النقدية الجديدة التى لا تقدم في حقيقة الأمر أي جديد، خاصة اذا استهوتنا تلك النظريات ودخلنا في متاهات التحليل اللغوي أو التحليل البنائي للنسق المسرحي وكيفية حدوث الدلالة ونسينا ماهية الدلالة.. ويزيد من خطورة الأمر اننا في الوقت الذي نتوقف فيه كثيرا أو طويلا عند العلامات وكيفية عملها نتحدث في انفصام غريب عن الرسالة التنويرية للأدب عامة والمسرح خاصة وما يتنافى مع ذلك الاستغراق النقدي قبل حدوث الدلالة.

■ **هل استطاع النقد المسرحي أن يواكب التغير الذي حدث في المسرح العربي؟.. وأن يخلق زمناً جديداً هو زمن القراءة الجديدة للتجربة المسرحية؟.**

** في مرحلة من المراحل كانت الحركة النقدية تقوم بدورها التوجيهي والتصحيحي للنشاط المسرحي، طبعاً كان ذلك في فترة الستينيات الذهبية، أعرف جيدا أن هناك بعض الأصوات التى بدأت ترتفع محتجة على ذلك الحنين لتلك الفترة قائلة إن المسرح المصري لم يتوقف بعد الستينيات.. وأكاد اتفق مع تلك الأصوات الى حد كبير، ولكن الحقيقة أن فترة الستينيات فيما يتعلق في العلاقة بين النقد والابداع المسرحي كانت فترة نموذجية بحق، فقد طرح الناقد الاكاديمي المتخصص ليكتب في الصحف اليومية وصفحاتها الأسبوعية والمجلات الاسبوعية والشهرية موجهاً ومرشداً وراعيا للحركة المسرحية، تلك هي الفترة التى كان يكتب فيها عمالقة كبار مثل محمد مندور ولويس عوض ورشاد رشدي، ومع تراجع العصر الذهبي خاصة بعد نكسة ١٩٦٧م تراجعت الحركة النقدية أيضاً وحدث انفصام بين الناقد الأكاديمي الموهوب ولا أقول المتقعر وبين النقد في الصحف اليومية السيارة، حينما تحول أو تحولت الصفحة بكاملها عن التخصص لمقابل نقدي مطول الى مجموعة من الأعمدة الصناديق تقدم في أفضل حالاتها عرضاً سريعاً للعرض المسرحي، وهنا حقيقة بدأت الكارثة، فقد ارتبط ذلك الاتجاه بشللية غريبة ومدمرة في نهاية الأمر وتحولت الكتابات النقدية الى عمليات «تربيطات» وترتيبات مصالح.. وأنا أعرف جيدا مؤلفين في العشرين عاماً الأخيرة يقومون بالتنسيق المحكم المنظم لما يكتب عنهم، فهذا مؤلف يتصل بنا ليتفق معنا على نشر مقالته يوم كذا، أو صحيفة كذا تتفق مع ناقد آخر وفي مكان آخر وهكذا.

لم يؤد هذا بطبيعة الحال الى نقد المجاملات غير الموضوعية فقط بل أدى الى بداية النهاية للحركة المسرحية الجادة في مصر.. هذا اضافة الى ضربات عصر المنافسة غير العادلة مع فنون الفرجة المعلبة من تليفزيون وقنوات فضائية.

■ **الموروث الشعبي يعد منبعاً ثرياً للمبدع كيف يتم استلهام هذا الموروث بشكل دلالي للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة؟.**

** العودة الى الموروث الشعبي أو التراث التاريخي بصفة عامة ليس جديداً وليس وليد الستينيات أو السبعينيات ولكننا نستطيع أن نرجع بذلك الاتجاه الى مؤسس المسرح المصري وهو توفيق الحكيم وما أكثر أعماله التى عاد فيها الى الموروث الشعبي والتراثي ولكن ما حدث أن ذلك الاتجاه بعد أن استمر في مسرح الستينيات أو على وتيرة متزايدة عند «على سالم» وقبل ذلك «رشاد رشدي» وعبد الرحمن الشرقاوي ومحمود دياب وسعد الدين وهبة وكل من كتبوا للمسرح المصري منذ منتصف الخمسينيات الا أن نكسة ١٩٦٧م أدخلت متغيرات جديدة على المعادلة المسرحية، بعد النكسة مباشرة اجتاحت العقل العربي حمى محاسبة الذات وأدرك المثقف العربي أن ما حدث على أرض المعركة كان هزيمة للعقل العربي قبل أن يكون هزيمة عسكرية.. وتنازعت ذلك العقل رغبتان رغبة محمومة في التحديث تقابلها رغبة صادقة في التمسك بمكونات الهوية القومية، تلك الرغبة الثانية على وجه التحديد هي التى أدت إلى ظهور الدعوة لتطور مسرح

المبدع اليوم يقوم بدور الريادة الفكرية. أو العراف. صاحب النبوءة.

عربي، وفسر الكثيرون في ذلك الوقت مدخل السبعينيات على وجه التحديد ممثلة في يسري الجندي وأبو العلا السلاموني وأنا الى حد كبير على أنه يعني العودة الى التراث الى إعادة قراءة للتراث، لكن اعادة قراءة التراث هنا لا تعني ما يقصده النقاد بالقراءة الجديدة التى تضيء مناطق لم تسبق إنارتها من قبل.. وجه الاختلاف أن العودة الى التراث مع تأكيده للهوية القومية كان يعني عملية ابعاد زمني للنص المسرحي هروباً من رقيب سياسي بالدرجة الأولى اصبحت يده اكثر ثقلا في تعامله مع النصوص السياسية.. وفي تلك الأبعاد الزمانية يتم تفريغ المادة التاريخية أو الاسطورية من مضمونها التاريخي بالكامل ثم إعادة ملئها أو شحنها بالموضوع السياسي المعاصر في عملية اسقاط واضحة للحاضر على الماضي، وهو ما يقبله الرقيب المثقف عن فهم وطواعية كاملين.. لكن من المفارقات اللافتة للنظر وهو ما قلته شخصياً في اكثر من منتدى علمي أننا بعد التجربة ورغم نجاح تلك الأبعاد إلى زمن ماض في اسقاط الحاضر على الماضي إلا أن النصوص التى افرزتها السبعينيات والثمانينيات اثبت انها لا توجد شكلا مسرحياً قومياً، إذ أن الذي يحدد هوية أيّ مسرح قومي ليس هو الشكل بل هو المضمون.

للمبدع درجة من الحرية تساعده لتوظيف السياق الفني والجمالي.

لقد اصبح الشكل اليوم شكلا عالمياً وليس قوميا، وقد أدركت ذلك جيداً أثناء كتابتي لمسرحية «الظاهر بيبرس» حيث استخدمت عناصر فرجه شعبية كاملة استجابة لتلك الدعوة لتطور قالب مسرحي عربي، فاستخدمت الربابة وخيال الظل والأراجوز بالمقطوعات كاملة، من خيال الظل ومن السيرة الشعبية، ومع ذلك خرجت المسرحية في نهاية الأمر في قالب لا يمكن أن اسميه بقالب عربي.

■ **قضية النص، العرض، والصراع بين المؤلف والمخرج وتحقيق إبداع كل منهما على خشبة المسرح، الى متى تظل هذه القضية قائمة دون أن تحدث خلافاً يؤدي أحيانا الى فشل العمل المسرحي؟.**

** هذه قضية خلافية منذ ظهور دور المخرج المحترف ولنقل منذ منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، كان الموقف قبل ذلك مختلفاً إذ كان التقارب بين رؤية كاتب النص ومخرجه هو القاعدة خاصة اذا أخذنا في الاعتبار أن كُتَّاب النصوص في أحيان كثيرة كانوا يقومون باخراجها على خشبة المسرح، وحينما ظهر أو جاء المخرج المتخصص الى الوجود بدأ أو فتح باب الخلاف بين رؤية المؤلف ورؤية المخرج من الناحية العلمية الصرفة.

فإن تلك القضية محسومة لصالح المخرج وتعامله مع نصوص تاريخية أي مع نص مات مؤلفه فلا يوجد مؤلف يستطيع أن يختلف مع المخرج في تفسيره أو ترجمته والتفسير أو الترجمة هي في حقيقة الأمر الوظيفة الأولى للمخرج وتعامله مع النص، واذا كان ذلك ممكناً في التعامل مع شكسبير وسوفوكل وموليير مثلا لا أرى لماذا لا يكون ممكناً مع مؤلف مازال على قيد الحياة.

اعرف أن ذلك يمثل رأياً قد لا يعجب البعض، وربما لوجدت نفسي الآن شخصياً في موقف أختلف فيه مع مخرج احدى مسرحياتي لرفضت الاستمرار في تقديم العرض ولكن القضية الآن أصبحت شبه محسومة على المستوى النقدي منذ بداية القرن العشرين، وهو ما يعني

أن النص بمجرد الانتهاء منه لا يصبح ملكاً للمؤلف ولا يصبح المحك ماذا قصد المؤلف، الى قوله هل يتحقق النص؟ وأكثر من هذا ما يمكن أن يستقرئه أو ينطق به القارىء أو الناقد أو المخرج، ولكن في نفس الوقت نرى أن الاختلاف الى حد القطيعة وارد إذ اننا في وجود المؤلف يستطيع كل من المخرج وذلك المؤلف أن يتفقا على منطقة وسط أو على قراءة وسط وليس من المعقول أن تصل الترجمة التفسيرية للنص الى حد التعارض شبه الكامل مع رؤية الفنان.. ورغم الاتفاق الى حد ما مع نفي القصدية الا اننا لا نستطيع أن ننفي أن هناك مؤلفاً أراد أن يقول شيئا وقصد اليه.

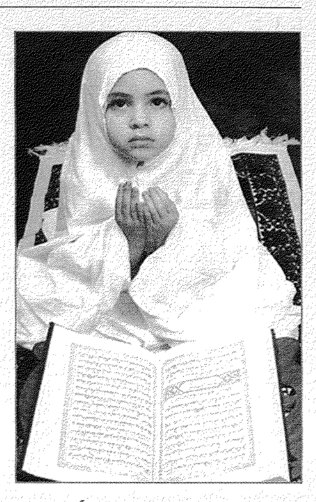
■ د. عبدالعزيز حمودة الناقد المسرحي مفردات المسرح الخاص.. هل تختلف عن مفردات مسرح الدولة على مستوى عناصر العرض المسرحي من بداية الكلمة الى الجمهور داخل صالة العرض؟.

** دعني أولا أصحح بعض المفاهيم السائدة منذ سنوات والتى ربما أكون شخصياً قد ساهمت في ترسيخها في مرحلة براءة مبكرة وتلك التفرقة المبدئية بين ما نسميه مسرح القطاع الخاص ومسرح الدولة.. وكأن مسرح الدولة قد تخصص في تقديم الفكر والثقافة اللتين أصبحتا حكراً عليه، بينما اختص مسرح القطاع الخاص بكل ما هو تافه أو مبتذل، وأنا أتحدث هنا من ناحية المبدأ الذي قد يختلف في جزئيات كثيرة منه مع التطبيق مبدئياً باستثناء ما يمكن أن نسميه المسرح القومي في بعض دول أوربا الغربية مثلا والتى لا تحصل على تمويل كامل بل على دعم محدد من الدولة.

فإن المسارح في بردواي ونيويورك وفي باريس ولندن وبرلين مسارح خاصة، ربما لا تهدف الى تحقيق ربح مادي أو تجاري لكن تهدف الى تقديم فن مسرحي راق مع تحقيق دخل يكفي لتسديد أجور الفنانين العاملين لتغطية كل النفقات..

وحينما يتحقق ذلك لاحدى الفرق المسرحية فإنها تعتبر ذلك قمة النجاح.. هذه التذكية في حد ذاتها تدفع أفراد الفرقة المسرحية الى تقديم الفن الراقي سواء كان كوميدياً أو تراجيدياً الى مخاطبة الجمهور والسعي اليه، وفي الفرق الكبرى تكون ادارة التسويق التى يوكل اليها اجتذاب الجمهور أهم إدارة في الفرقة المسرحية.. لكن ما حدث في المسرح المصري أن الدعم المادي للفرق المسرحية الذي بدأ منذ أواخر الخمسينيات تحول الى تمويل كامل، وبدل ما يؤدي ذلك الدعم الى حفز الهمم وتحقيق نهضة مسرحية كاملة أصبح دعوة الى التواكل والقاء العبء كله على الدولة، ولا يهم بعد ذلك اذا قدم المسرح موسماً مسرحياً مخفقاً أو اذا نجح في اجتذاب جمهور من المشاهدين ما دامت الدولة تدفع.. ونهاية الأمر وفي نفس الوقت وعلى الجانب الآخر من المعادلة كان المسرح الخاص مسرحاً تجارياً بالكامل لا يهدف كما تهدف تلك المسارح التى اشرت اليها الى تحقيق معادلة الفن المتميز مع الربح المعقول والمقبول الذي يكفي لبقاء الفرقة على الساحة المسرحية، بل الى تحقيق ربح مادي بالدرجة الأولى لتحقيق ثراء صاحب الفرقة ومديرها حتى لو كان ذلك يعني الابتذال وضرب القيم في الصميم ■

هزيمة [٦٧] كانت هزيمة للعقل العربي قبل أن تكون هزيمة عسكرية.



مكانة المرأة في القرآن الكريم

□ الرجل والمرأة شريكان في الحياة، ويطلق لفظ «الزوج» في اللغة ليدل إما عليهما معا أو على أيٍّ منهما. والله تعالى حينما يخاطب المكلفين بما افترضه عليهم يجعل «الانسان» أو «الناس» موضع الخطاب، وهما لفظشتان لا مذكر أو مؤنث لهما، فهما يشملان كلا من الرجل والمرأة على السواء، وهذه المساواة اللغوية قد واكبتها مساواة شرعية في كثير من الحقوق والواجبات، حتى يطلق كل منهما ملكاته، التى يمكن استثمارها، لصالح الحياة ولخير المجتمع ككل.

والذين يتشدقون - اليوم - بحقوق المرأة، ربما يجهلون أن الإسلام، متمثلا في دستوره الخالد: القرآن الكريم، قد سبق كل من تزلفوا إلى المرأة في العصر الحديث، سواء في الشرق أو في الغرب، مدعين أنهم رواد تحريرها وسدنة حقوقها، متصورين أن هذه الحقوق طارئة علينا، أو بضاعة مجلوبة إلينا من الغرب! لقد رفع الإسلام مكانة المرأة بل وأوضح القرآن الكريم أن أرومتها هي من نفس أرومة الرجل، ومن كان شأنه كذلك كان قسيما في كل شيء، له ما له وعليه ما عليه، ثم إنها أحد العنصرين اللذين تنشأ منهما الأبناء والذرية.

وفي القرآن الكريم سورة من السور الطوال باسم «النساء» يقول الله تعالى في صدرها: **{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا**



أ.د. محمد فتحي فرج بيومي
كلية العلوم - جامعة المنوفية

ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا} (النساء آية/١).

وفي هذا بيان واضح لا لبس فيه، أن الله تعالى قد خلق كلا من الرجل والمرأة من نفس واحدة، وفي التعبير القرآنى {وخلق منها زوجها} إشارة الى ذلك الأصل الواحد الذى خلق منه الله تعالى الزوجين، وإن اختلفا في بعض الخصائص؛ إذ كونهما من أصل واحد يؤدى الى الميل العاطفى والنفسى ومن ثم الى المودة والتراحم؛ وبهذا تتم النعمة ويكتمل السرور ويعمر الكون.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله تعالى: **{هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به}** (الأعراف آية/ ١٨٩).

وهنا تجدر الإشارة الى شيء مهم نستلهمه من الطبيعة الواحدة والأصل الواحد لكل من الذكر والأنثى، الواضح في هذه الآية والتى سبقتها، وهو أن علاقة الجزءين الناتجين عن شيء واحد، هى علاقة توافق وتكامل تشبه علاقة «القفل» بـ «مفتاحه» فالمساواة لا تعنى إهدار جميع الفروق بين الجنسين، وهي أيضا لا تمسخ المميزات التى تميز كل جنس عن الآخر، بل إن هذه الفروق هي التى تؤكد عملية التطابق والتكامل التى أشرنا إليها، فالسالب هنا ينجذب بحكم طبيعته الى الموجب هناك، فيحدث التكامل وتتوثق الروابط والعرى، ويتم «السكن» الذى أشار إليه القرآن الكريم، وعلى ذلك فإن المساواة التى تجعل الإناث يتنكرن لفطرتهن، ويتمردن على طبيعتهن فإنها تخرجهن من دنيا النساء، وتخفق أيضا في الوقت ذاته في أن تلحقهن بعالم الرجال، وعلى ذلك لا تجد المرأة «المسترجلة» رجلا كامل الرجولة، تهفو نفسه إليها، وبالمثل لا تجد رجلا مخنثا، يروق في أعين النساء.

ومن الوجوه التى تتمايز فيها المرأة عن الرجل ويختلفان فيها اختلافا يتماشى مع وظيفة كل منهما من الناحية البيولوجية والوظيفية، اختلافات في بعض الخصائص التركيبية والتشريحية للجسم، كتركيب منطقة الحوض، وفي توزيع الشحوم والشعر، وتركيب العضلات، وفي النسق الهرمونى المرتبط بالجنس والوظائف النوعية، وفي بعض المعايير الخاصة بالصوت، الى غير ذلك من الخصائص النوعية.

وكلها اختلافات تعزز طبيعة المرأة من حيث هي أنثى، وتميز طبيعة الرجل من حيث هو ذكر، حتى تتكامل وظيفتهما معا؛ لاستمرار بقاء النوع البشري، فهى اختلافات راجعة الى الطبيعة البيولوجية لكل منهما، ولها دواعيها لقيام كل منهما بوظائفه النوعية والفسيولوجية، ومن ثم فلا تؤثر هذه الفروق في مكانة أي منهما كإنسان، ومع

علاقة الجزأين الناتجين عن شيء واحد. هي علاقة توافق وتكامل.

كل ذلك، لن تجد فروقا جوهرية خاصة بوزن المخ أو تركيبه بشكل عام، أو فروقا في قوة الحواس، أو في المواهب والنوازع الإنسانية العامة، ولذلك فإنهما - في الإسلام - متفقان في معظم التكاليف الشرعية، إلا تحت ظروف معينة مرتبطة بوظائف المرأة النوعية.

وقبل أن نتعرض للمكانة السامية، التى وضع القرآن الكريم، والإسلام - بشكل عام - المرأة فيها، والحقوق التى خوّلها لها، فلعله من الإنصاف - ونحن في عصر يفترى فيه المفترون فيغمزون ويلمزون، ويعيدون ويزيدون حول وضع المرأة ومكانتها المتدنية في الإسلام وبلاد المسلمين - أقول لعله من الإنصاف والمفيد، في هذا السياق، أن نلقى نظرة سريعة على مكانة المرأة في الأمم التى تدين بغير الإسلام - سواء قبله أو بعده - لنرى في ضوء هذه المقارنة مقدار التكريم الذي حظيت به المرأة في ظل الإسلام.

.. **ففى بلاد الإغريق**، وهم أكثر الأمم القديمة حضارة، اعتبرت المرأة من سقط المتاع، بل إنها كانت تباع وتشترى في الأسواق، واعتبروها رجسا من عمل الشيطان، وحرموا عليها القيام بأية أعمال سوى تدبير المنزل والعناية بالأطفال، وعلى ذلك فإن الثقافة اليونانية في إبان ازدهارها لم تعط المرأة شيئا تعلو به عن مقام الأنثى في المجتمعات البدائية، وتركتها في عزلتها بالمنزل تنزوى فيه بعيدة عن مكان الزوج الذى يستقبل فيه أصحابه ويولم فيه ولائمه، وعزلتها في المجتمع من باب أولى، كما عزلتها في بيتها كلما استغنى عنها زوجها.

.. وحتى أفلاطون، في مدينتشه الفاضلة، قد رشحها خياله أن تعتبرها الأمة ملكا مشاعا تنجب النسل لمن يختارها من الرجال، وتتسلمه منها الأمة لتتوفر على تربيته: أى أن المثل الأعلى للنساء في المدينة الفاضلة أنهن حظيرة مباحة من الإناث، تؤدى وظيفة الولادة، كما تؤديها إناث الحيوان، ثم تستكثر عليهن المزايا الشخصية التى تجعلهن أمهات أفضل من أمهات الحيوان.

.. **أما في بلاد الهند**، فقد اعتبروها شرا أعظم من الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار، فشريعة «مانو» في الهند لم تكن تعرف للمرأة حقا مستقلا عن حق أبيها أو زوجها أو ولدها في حالة وفاة الأب والزوج، فإذا انقطع هؤلاء جميعا وجب أن تنتمى إلى رجل من أقارب زوجها في النسب ولم تستقل بأمر نفسها في حالة من الأحوال، وأشد من نكران حقها في معاملات المعيشة نكران حقها في الحياة المستقلة عن حياة الزوج، فإنها مقضي عليها بأن تموت يوم موت زوجها، وأن تحرق معه على موقد واحد، وقد دامت هذه العادة العتيقة من أبعد عصور الحياة

البرهمية إلى القرن السابع عشر، وبطلت بعد ذلك على كره من أصحاب الشعائر الدينية.

.. **أما اليهود** فلم يكونوا أكثر رحمة من الهنود، فقد جاء في «سفر الجامعة»: «دُرت أنا وقلبي لأعلم وأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون، فوجدت أمرّ من الموت المرأة، التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود.. رجلا واحدا بين ألف وجدت، أما امرأة واحدة فبين كل أولئك لم أجد».

وقد تواترت أقوال أناس من المؤرخين الغربيين، أن الإسلام ينقل شريعته من الشرائع التي تقدمته ولا سيما الشريعة الموسوية، ولا يتضح بطلان هذه الدعوى من شيء كما يتضح من المقابلة بين مركز المرأة، في حقوقها الشرعية، كما نصت عليها كتب التوراة، ومركز المرأة كما قررها الإسلام بأحكام القرآن.

أما في روما، فقد اجتمع مجمع كبير ، وبحث في شئون المرأة، فقرر أنها كائن لا نفس له، وأنها لن ترث الحياة الأخروية لهذه العلة، وأنها رجس يجب ألا تأكل اللحم، وأن لا تضحك، بل ولا أن تتكلم، ولذلك فقد جعلوا على فمها قفلا من حديد! هذا غير العقوبات البدنية التي كانت تُعرّض لها، باعتبار أنها أداة للإغواء ويستخدمها الشيطان لإفساد القلوب.

.. **أما في فرنسا**، فقد عقد عام ٥٨٦م اجتماع كان مدار البحث فيه حول هذا السؤال: أتعد المرأة إنسانا أم غير إنسان؟ وقد أفضى البحث إلى أنها إنسان، غير أنه مخلوق لخدمة الرجل!

.. **أما في انجلترا**، فقد أصدر الملك هنرى الثامن أمرا بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء، كما أن النساء كن، طبقا للقانون الإنجليزى العام، حتى سنة ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين، ولم يكن لهن حقوق شخصية، ولا حق لهن في تملك ملابسهن، ولا حتى في الأموال التي يكسبنها بعرقهن.

مكانة المرأة في القرآن الكريم :

كانت المرأة في بلاد العرب، قبل بعثة النبي {صلى الله عليه وسلم} ممتهنة، في كثير من أحوالها، فلم تكن لها إرادة بجوار إرادة أبيها أو وليها، فإذا تزوجت انتقلت السلطة المطلقة من الولي إلى الزوج، فلما جاء الإسلام جعل لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، وكانت قبل ذلك عليها واجبات وليس لها حقوق، كما كان الأمر بالنسبة للرقيق، فجاء القرآن الكريم وفصل في تلك القضية التي تربط الحق بالواجب، كما تسوى بينهما أمام القانون وفي الحقوق العامة؛ ذلك أنه يتفق والبديهة العقلية، قال تعالى: **{ولَهُنَّ مِثْلُ الذي عليهن**

الرجل والمرأة كل واحد منهما له ما للآخر وعليه ما عليه من الناحية الإنسانية.

بالمعروف وللرجال عليهن درجة} (البقرة آية/ ٢٢٨).

كما قرر القرآن الكريم مساواة النساء بالرجال، فيما هو من خصائص الإنسانية، فشرع الكسب للنساء كالرجال، وأرشد كلا منهما إلى تحري الفضل والخير من الأموال بالعمل دون التمني، وأنه ليس للرجل أن يسلب المرأة من العمل الذي خلقت له، كما أنه ليس للنساء أن يطمعن فيما وراء مؤهلاتهن الفطرية، حيث يقول الله تعالى: **{ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن}** (النساء آية/٣٢).

وقد بنيت حقوق المرأة في القرآن الكريم على أعدل أساس يتقرر به إنصاف صاحب الحق، وإنصاف سائر الناس معه، وهو أساس المساواة بين الحقوق والواجبات، فالمساواة ليست بعدل إذا قضت بمساواة الناس في الحقوق على تفاوت واجباتهم وكفاياتهم وأعمالهم، وإنما هي الظلم كل الظلم للراجح والمرجوح. فإن المرجوح يضيره ويضير الناس معه أن يأخذ فوق حقه، وكل ما ينقص من حق الراجح يضيره لأنه يغل من قدرته، ويضير الناس معه لأنه يحرمهم ثمرة تلك القدرة، وعلى ذلك قال أحكم العادلين في عجُز الآية/ ٢٨٨ من سورة النساء: **{.. وللرجال عليهن درجة}**.

الاختلافات التكوينية البيولوجية بين المرأة والرجل جعلت لكل واحد منهما وظيفته الخاصة به.

أما في تقرير ثواب الأعمال الصالحة، فقد سوّى القرآن الكريم بين النساء والرجال، وفي هذا يقول الله جل شأنه: **{فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض}** (آل عمران/ ١٩٥).. وقال تعالى: **{ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا}** (النساء/ ١٢٤).

كما رفع القرآن الكريم شأن المرأة عن أن تكون متاعا، يورثُ كما تورث الأموال، وفرض لها حرية في ذاتها وأموالها، فقال تعالى: **{يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن}** (النساء/ ١٢٤).

ثم إن المرأة لم تكن ترث، في أي مجتمع قبل المجتمع الإسلامي، فقرر الإسلام حقها في الميراث في قوله تعالى: **{للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا}** (النساء/ ٧).

والذي يتأمل الآية السابقة يجد أنها تثبت هذا الحق للمرأة بنفس الكلمات التي تثبت حقوق الرجل، فنفس الكلمات هي هي، تتكرر في حالة الرجل وفي حالة المرأة، ثم تواصل الآية التأكيد أن

هذا النصيب لازم في الميراث: القليل منه والكثير، حتى لا يسوغ البعض حرمان النساء منه إذا كان قليلا، فالقرآن يعتبره: «نصيبا مفروضا».

كما قرر القرآن الكريم نظاما للزواج فيه تكريم للمرأة والأسرة، فحظر الزواج من أصناف معينة حفظا للروابط الأسرية، فأبطل زواج الابن من زوجة الأب، وزواج الأب من حليلة الابن، كما حرّم زواج الأمهات والبنات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت والمرضعات والأخوات من الرضاعة وأمهات النساء والربائب، كما حظر الجمع بين الأختين، كما حرّم زواج المتزوجات والمعتدات، حفظا للأنسان، ودرءا لاختلاط الأنساب، وذلك في قول الله تعالى: **{ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا * حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى في حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما * والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما}** (النساء/ ٢٢ - ٢٤).

كما أوجب على الرجل أن يبذل مالا أسماه القرآن «صدقة» تمنح عن طيب خاطر وبدون مقابل «نحلة»، آية من آيات المحبة والتقدير، وذلك في قول الله تعالى: **{وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طِبْن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا}** (النساء/ ٤).

وهذا قليل من كثير، يوضح أن شريعة الإسلام ودستوره الخالد القرآن ، قد قررا أن المرأة هي صاحبة هذه الحقوق لأنها من خلق الله، على أساس من المساواة العادلة بين الحقوق والواجبات ■

المرأة اليوم عند أهل الغرب جميعهم عند الزواج يلغى اسم أبيها وتنتمي لزوجها فقط.

المراجع :

(١) عباس محمود العقاد (١٩٥٩م) المرأة في القرآن الكريم، دار الهلال، القاهرة.

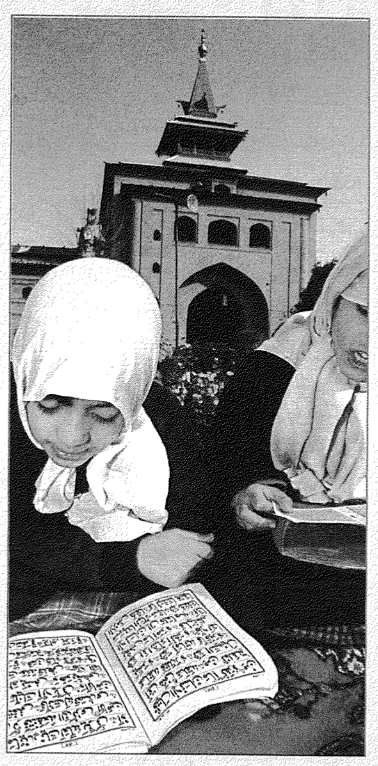
(٢) عفيف عبد الفتاح طبارة (١٩٧٣م) روح الدين الإسلامي، الطبعة العاشرة، دار العلم للملايين. بيروت.

(٣) محمد أحمد أبو زهرة (١٩٨٦م) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، دار الإخلاص للطباعة، القاهرة.

(٤) محمد سيد طنطاوي (٢٠٠٤م) حديث القرآن الكريم عن الرجل والمرأة، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة الخامسة والثلاثون، الكتاب الثالث.

(٥) محمود شلتوت (١٩٤٨م) النساء في القرآن الكريم، مجلة الرسالة، العدد ٧٥٧.

هذه مجموعة كلمات نيرة مضيئة قرأتها وأحببت ان نفيد منها جميعاً .. وبتوفيق الله سبحانه وتعالى نقول:



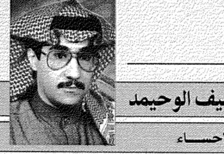
- يريدها أن تكون حليف زوجها المؤمن المتحمس لدينه، تؤيده في دعوته وتنشطه في عمله وترغّبه في جهاده في سبيل الله، أياً كان نوع هذا الجهاد، وتصبر على ما يكلفها ذلك من حرمان مادي وربما ضيق رزق وفقد زوج أو ولد متأسية بالصحابية الفاضلة التى جاءت إليها مجموعة من النسوة بعد استشهاد زوجها في سبيل الله فقالت قولتها الشهيرة: (إن كنتن قد جئتن مهنئات فمرحباً وإن كنتن قد جئتن لغير ذلك فارجعن) وها هي السيدة (زينب بنت خزيمة) أرملة البطل المقدام شهيد الإسلام (عبيدة بن الحارث) رضي الله عنه وأرضاه الذى استشهد في أول المبارزة في غزوة بدر وقد كانت حين استشهاد زوجها تقوم بواجبها في إسعاف الجرحى وتضميد جراحهم ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها حتى كتب الله النصر للمؤمنين في أول معركة خاضوها

ماذا يريد الاسلام من المرأة

ضد المشركين.. ولما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بصبرها وثباتها وجهادها وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها لنفسه وآواها وجبر خاطرها بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين.

- يريدها أن تكون ربة بيت تقوم على شئون بيتها وخدمته دون ترفع أو منة، ومربية أولاد على التربية الإسلامية الفاضلة.. ويريدها مُؤنساً وملاذاً لزوجها تعفُّه عما حرّم الله وتنأى عن معصيته في غير ما نهى الله وتحفظه في نفسها وفي ماله وبيته وولده.. وتخدمه بكل رضى وتحبب كما أمرها ربها، وتكون له الزوجة المطيعة والأم الحنون والأخت الوفية والصديقة المخلصة، تدفعه إلى البر بوالديه وذوي رحمه، تذكره إذا نسي وتنبهه إذا غفل.. وتكون عونه على هذا البر بحسن معاملة أهله وحسن ذكرهم أمامه، وأن يكون همها الأكبر إرضاء زوجها في رضى الله.

فقد كانت خديجة رضي الله عنها للرسول عليه السلام نعم الزوجة، ناصرته وآزرته وبذلت كل مالها من أجل تبليغ دعوته، وربت أولاده خير تربية فسيدنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قد هيأه الله لحمل الرسالة وحمل أعباء الدعوة وقد يسر الله له هذه المرأة التقية النقية العاقلة الذكية لتعينه على المضي في تبليغ الدعوة ونشر الرسالة، وهي أول من آمن به من النساء حتى قال عنها صلوات الله وسلامه عليه مخاطباً زوجته (عائشة) رضي الله عنها: (لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدّقتني إذ كذّبني الناس وواستني بمالها إذ



عبد اللطيف الوحيمد

الاحساء

حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء).

- يريدها أن تكون متعلمة التعليم الصحيح ومثقفة بالثقافة القويمة تتلقى العلم النافع وتعمل به وتتمثله في حياتها العامة وتبثه إلى مثيلاتها من النساء في مجتمعاتها المختلفة.. فقد كانت عائشة رضي الله عنها أكثر المجتهدات في طلب العلم وأحفظهن له بل كانت أعلم من أكثر الرجال وكان كبار أصحاب رسول الله يأتون إليها ويسألونها من وراء حجاب عن بعض الأحكام التى تشكل عليهم فتحلها لهم.. وكم كان لها استدراكات على الصحابة وملاحظات فإذا علموا بذلك منها رجعوا إلى قولها.. وقد روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: (ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً) وقال أبو الضحي عن مسروق: (رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض) وقال عروة بن الزبير: (ما رأيت امرأة أعلم بطب ولا فقه ولا شعر من عائشة) وكانت تزورها النساء في بيتها فتعلمهن أمور الدين وأحكامه وها هي المرأة المخزومية التى قطعت يدها تقول عنها الرواية (كانت تأتى بعد ذلك إلى بيت عائشة لتتفقه في دينها).

وكم كانت نساء الرسول يُبلِّغن النساء أحكام الدين وأحاديث رسوله وسنته المطهرة التى تشمل قوله وفعله وتقريره.. وكل هذا من التشريع الذى يجب على الأمة اتباعه فمن ينقل لنا أخباره وأفعاله في المنزل غير نسوته رضى الله عنهن.

- يريدها أن تكون القوية في دينها المعتزة بوصاياه وتعليماته الحكيمة التى صانت لها كرامتها عن الامتهان والابتذال لا يغرها الفَرَاشُ الذي يتساقط على كل نور يبدو إليه فيحترق به ولا السراب الذي يبدو للضعيفات والمغفلات ماء وهو في الحقيقة ليس بشيء، لثقتها أن كل ما يروج له أعداؤها الداعون إلى سفورها وحريتها الإباحية واختلاطها بالرجال وتحللها من أخلاقها الإسلامية من خلال الشعارات الضالة أن كل هذا ضلال، ومحاولة ماكرة لابتذال كرامتها وحشمتها وعفتها والعبث الصارخ بأنوثتها لتكون لقمة سائغة للشهوات المسعورة في الرجال المنحرفين الذين يتخذونها وسيلة وضيعة لاستمتاعهم الجنسي وإشباع نزواتهم الحقيرة وإرضاء رغباتهم الشاذة.. وذلك بعد تجريدها من مبادئها وقيمها الأخلاقية العليا التى رسمها لها دينها الحنيف ذلك الدين العظيم الذى لم يأمرها إلا بما فيه مصلحتها وسعادتها وعزتها وصيانة كرامتها والذي يجب عليها أن تستميت وتسترخص الغالي والنفيس من أجل التمسك بأهدابه والإمتثال لتعاليمه وآدابه..

فها هي امرأة فرعون حاكم مصر ومدّعي الألوهية يعذبها زوجها أشد التعذيب فما يزيدها ذلك إلا تصلباً في دينها وتمسكاً به.

- يريدها أن تكون المرأة الصادقة في حياتها مع الناس ومع زوجها ونفسها ومع أولادها الذين تربيهم على مثل حزم أبي بكر وقوة عمر وحياء عثمان وعلم على وشجاعة خالد بن الوليد وكرم عبد الرحمن بن عوف وبر خديجة وعلم عائشة وطاعة أسماء.. وما أجمل الأسرة القائمة على الصدق، يقول عبد الله بن عامر: دعتني أمي يوماً ورسول الله {صلى الله عليه وسلم} في بيتنا فقالت تعالَ أعطك هذا فقال لها رسول الله {صلى الله عليه وسلم} ما أردت أن تعطيه؟ قالت أردت أن أعطيه تمراً فقال لها الرسول: أما أنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة.

- يريدها أن تكون المرأة الصابرة المحتسبة ترضى بقضاء الله وقدره وتصبر على بلائه في نفسها وزوجها وأولادها ولابد في الحياة من البلاء ، قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم}: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الله الناس على قدر دينهم فمن صلب دينه اشتد بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام: (إن

الله إذا أحب قوماً ابتلاهم)، وتصبر عن معصية الله فلا ترضى أن تفقد صبرها عن المنكرات فتسقط كما يسقط الفراش أمام المغريات فتحترق على شهوات الرجال مقابل كلام معسول ومال مبذول وأمنية موعودة ثم تكون العاقبة إلى النار وبئس القرار.. وتصبر على طاعة الله لا ترضى عنها بديلا لا تخالط الرجال مهما احتاجت وأينما كانت ولا تتشبه بهم فيما نهى الله عنه ولا تلبس لبس الفاسقات مهما أغريت.

- يريدها أن تكون الصديقة الصدوقة لأمثالها المعوانة على فعل الخير وصنع المعروف لا تدخر في ذلك وسعاً ولا تألو جهداً أياً كان نوع ذلك العون وكيفما كان ذلك المعروف تفعل ذلك كله ابتغاء مرضاة الله.

- يريدها أن تكون المرأة العفيفة الشريفة الخجولة التى يصطبغ وجهها بأجمل مكياج في العالم وهو ماء الحياء، لا تنظر إلى غير زوجها ولا تعرّض نفسها لرؤية الرجال الأجانب قصداً ولا تصادق من النساء إلا العفيفات الشريفات اللائي يُعينها على دينها والتشبث بفضائله.. وإذا خرجت من بيتها كانت الأديبة الوقور في لبسها ومشيها وكلامها إذا احتاجت للكلام ولا تأذن لرجل غريب أن يدخل بيت زوجها بغير إذنه ولا تخرج من بيته شيئاً من غير رضاه أو علمه ولا تعرض نفسها لمواقع التهم لكي لا يساء بها الظن إذ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن).

- يريدها أن تكون الملازمة على ذكر الله ذكراً يُشعرها بجلاله وهيبته ومخافته في السر والعلن مخافة ترتعد منها فرائصها وترتجف نفسها عندما تسوّل لها ارتكاب المعصية وتتذكر عقابها مطيعة لأوامر ربها ونواهيه حريصة على قراءة كتابه وفهمه وتدبره وقراءة أحاديث نبيه والتأسي بسيرته وتعيش بذلك العمر كله.

- يريدها أن تشعر بأنها مسئولة ومؤتمنة مسئولة أمام الله عن صلاح المجتمع وصيانة الأسرة وتربية الأجيال وأن تفريطها في هذه المسئولية والأمانة يعرض أمتها للانهيار وأن تربى أولادها بالقدوة لأن التربية بطريق القدوة آكد فالصغار بل العامة كأنهم يسمعون بعيونهم كما يبصرون بها وقل أن تجد الكلمة الطيبة طريقها الى قلوبهم إذا كان العمل يخالف القول ■

المصادر :

- **المرأة المسلمة منهج مقرر على طالبات مدارس تحفيظ القرآن تأليف/ محمد حسن بريغش.**
- **شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول تأليف/ محمد علي الصابوني.**
- **فن الاستمتاع بالحياة تأليف/ عبد الله الجعيثن.**

إن كل إنسان يبحث عن الحياة المستقرة الهادئة دون مشاحنات، التى تسودها السعادة والبهجة والأمن والطيبة.

ظاهرة الطلاق في المجتمعات الاسلامية

حجم المشكلة . أسبابها . آثارها . علاجها

ولقد حرص الدين الإسلامي على وحدة الأسرة وعدم تفككها فشرع حلولا عملية يستهدى بها كل من الزوج والزوجة في حال استفحال الخلاف والشقاق بينهما، بل لقد أعطى الزوجين حلولا تدريجية تبدأ من الوعظ لكل منهما للآخر، وأن يهجره وأن يؤدبه (وهذا ما يفعله الزوج في حالة الخلاف حرصا على بقاء عشرة الزوجية وحفظ كيان الأسرة سليما) أما الدرجة الثانية إذا اشتد الخلاف بينهما فيختار كل منهما حكماً لحل المشكلات الناشئة بينهما ، ولقد أمر الله سبحانه وتعالى الزوجين بالصبر حتى مع الكراهية: {فإنْ كرهْتُمُوهُنَّ فعسى أنْ تكرهُوا شيئاً ويجعل اللهُ فيه خيراً} (النساء/ ١٩).

أما إذا استمر النزاع بين الزوجين على الرغم من المحاولات السابقة فيكون الموقف أمام أمرين أحدهما استمرار الحياة الزوجية مع وجود الشقاق والخلاف وسوء التفاهم أو انفصال يجد فيه كل من الزوجين راحته. وهذه الفرقة التى تكون آخر المطاف بين الزوجين هى العلاج الأخير حين يستعصي كل علاج، وإذا كان الأمر كذلك فمن الذى يملك هذه السلطة ومن الذى له التقدير والقرار في ذلك.

ولقد قرر الإسلام أن لكل من الزوجين حق التفريق، كما أن القاضى يملك هذا الحق عن طريق فسخ النكاح بينهما بناءاً على طلب أحدهما، فكل من الزوجين يملك حق الطلاق بشروط معينة (تحتاج إلى مقالات أخرى من السادة علماء الشريعة في المجتمعات الإسلامية).

حجم مشكلة الطلاق في بعض المجتمعات الغربية:

تمثل ظاهرة كثرة الطلاق في مجتمعنا المعاصر خللا اجتماعياً جديراً بالدراسة والتحليل للوقوف على أسبابها والعمل على معالجتها بشفافية وسرعة

د. نادية محمد السعيد

مصر

وجدية، وقبل أن نتناول حجم مشكلة الطلاق في المجتمعات الإسلامية يمكن التعرف على حجمها عالمياً.

ففى المجتمع الأمريكى نجد أن هناك عدة طرق لقياس معدلات الطلاق إحداها وهي الأكثر شيوعاً تكون بقياس عدد حالات الطلاق في سنة ما بالنسبة لألف حالة زواج، وهكذا وعلى سبيل المثال، ففى عام ١٩٤٨م كانت نسبة الطلاق في امريكا (٣٣) حالة طلاق لكل (١٠٠ حالة زواج) في تلك السنة، أما فى سنة ١٩٦٠م بلغ معدل الطلاق (٣٥) حالة طلاق لكل (١٠٠٠ حالة زواج)، أما في عام ١٩٧٠م فكانت النسبة (٤٧) حالة طلاق لكل (١٠٠٠ حالة زواج)، وفي عام ١٩٨٠م كانت نسبة الطلاق (١١٤) حالة طلاق لكل الف حالة زواج، وفي عام ١٩٩٠م كانت نسبة الطلاق (٢٢١) حالة طلاق لكل الف حالة زواج، وفي عام ٢٠٠٠م أصبحت نسبة الطلاق (٤٠٩) حالة طلاق لكل الف حالة زواج.

وهذه الإحصاءات تعطى صورة تحذيرية للزيادة المرتفعة في حالات الطلاق بنهاية عام ٢٠٠٠م، ففى الواقع أن هذه الأرقام تبين لنا كيف أن حالات الطلاق قد ازدادت للضعف، والواضح ان هذه الظاهرة ستستمر في الزيادة في المجتمع الأمريكي[١].

وفي المجتمع البريطاني فقد كان معدل الطلاق (٣) لكل الف حالة زواج وهذا في عام ١٩٦٠م، وقد وصلت هذه النسبة عام ١٩٨٠م الى (١٢) حالة طلاق لكل الف حالة زواج، وفي نهاية عام ٢٠٠٢م نجد أنه يتم في بريطانيا حالة طلاق من كل ثلاث حالات زواج[٢].

الطلاق : تفريق أسرة.. ومعاناة في المجتمع

ولقد أصبح الطلاق في بريطانيا كبقية المجتمعات الصناعية في العصر الحديث أكثر سهولة حيث أصبح لا يشترط إثبات قسوة أو خيانة أحد الطرفين للحصول على الطلاق (كما كان في الماضى لا يسمح بالطلاق إلا في حالة الزنا)• وأصبح الطلاق لا يستدعى اكثر من إبداء عدم الرغبة في استمرار الحياة مع الطرف الآخر• وقد تغيرت أيضاً القيم وأصبح الطلاق بمثابة عقوبة مناسبة للرد على سوء نظم الزواج والتغيرات في القيم وفي بعض المفاهيم ومن ضمنها مفهوم الطلاق ، وقد أدى كل ذلك الى زيادة حالات الطلاق[٣]•

أولاً : حجم مشكلة الطلاق فى المجتمعات الإسلامية :

أما في بعض المجتمعات الإسلامية في المجتمع المصرى بلغت نسبة الطلاق (٥ر٢) لكل الف حالة زواج في عام ١٩٦٠م وصلت عام ١٩٧٠ الى نسبة ٧٪ حتى عام ٢٠٠٠م حيث نجد أن نسبة الطلاق وصلت الى ٤٠٪ •• وبلغ متوسط حالات الطلاق في مصر ٢٤٠ مطلقة يومياً بواقع حالة طلاق واحدة كل ٦ دقائق، وأن إجمالى المطلقات في مصر بلغ مليونين و٤٥٨ الف مطلقة[٤]•

وفي **المملكة العربية السعودية** فقد أوضحت دراسة أجرتها وزارة التخطيط أن نسبة الطلاق ارتفعت في عام ٢٠٠٣م عن الأعوام السابقة بنسبة ٢٠٪ ، كما أن ٦٥٪ من حالات الزواج التى تمت عن طريق طرف آخر أو ما يعرف بـ «الخاطبة» تنتهى هى الأخرى الى الطلاق، وسجلت المحاكم والمأذين أكثر من ٧٠ الف عقد زواج ونحو ١٣ الف صك طلاق خلال العام ٢٠٠١م وأوضحت الدراسة أنه يتم طلاق ٣٣ امرأة يومياً، وفي مدية الرياض وحدها وصل عدد المطلقات الى ٣٠٠٠ امرأة، في حين بلغت حالات الزواج ٨٥٠٠ زيجة، وقال (المأذون الشرعى بمدينة جدة الشيخ أحمد المعبى) إن نسبة الطلاق في مدينة جدة وحدها وصلت الى ٤٠٪ من حالات الزواج عام ٢٠٠٣م، بينما انخفضت في القرى المجاورة إلى ٥٪[٥]•

وأوضحت دراسة أخرى أجراها (محمد السيف)، الباحث بقسم الاجتماع بجامعة الملك سعود بالرياض، أن المحاكم الشرعية بالسعودية تقضى فيما بين ٢٥ إلى ٣٥ حالة طلاق يومياً[٦]•

وفي **قطر** : أكدت دراسة تناولت ظاهرة الطلاق في المجتمع القطرى أن نسبة الطلاق بلغت ٨ر٣١٪ عام ٢٠٠٠م، في حين أوضحت دراسة أخرى عام ٢٠٠٣م وجود ٣١٩ حالة طلاق مقابل ٩٧٨ حالة زواج، وأن اكبر نسبة من المطلقين ٢٧٪ تتركز في الفئة العمرية ٢٥ ـ ٢٩ سنة، و١٩٪ تتركز في فئة ٣٠ ـ ٣٤ سنة، أما أكبر نسبة من المطلقات ٧٢ر٣٤٪ فتتركز في الفئة العمرية من ٢٠ ـ ٢٤ سنة، بالإضافة الى وجود ٤٧ حالة طلاق في الفئة العمرية ١٥ ـ ٢٩ عاماً مما يعنى أن أغلب المطلقين والمطلقات من الشباب[٧]•

أما في دولة **الإمارات العربية المتحدة**: بينت دراسة ميدانية للباحث (عبد الرازق فريد المالكى) (ظاهرة الطلاق في دولة الإمارات العربية المتحدة أسبابه واتجاهاته ومخاطره وحلوله) أن ٧٦٪ من المطلقات لم تتجاوز أعمارهن ٣٩ عاماً، وهذا يدل على أن غالبيتهن من متوسطات العمر[٨]•

وكشفت إحصائيات (محكمة أبو ظبي الشرعية

الابتدائية) أنه منذ مطلع شهر يناير ٢٠٠١م وحتى شهر سبتمبر ٢٠٠١م فقط تم تسجيل ٦٢٦ عقد زواج مواطن ومواطنة وقابلها ما يقارب ٢٢٥ حالة طلاق إشهاد وإثبات لمواطنين من مواطنات، ولفتت الإحصائية إلى انه تم ابرام ٢٦٩ عقد زواج مواطن من وافدة و٩٦ عقداً آخر لمواطنة من وافد، في حين وصلت حالات زواج الوافدين من وافدت إلى ٦٠١ عقد، وأنه تم وقوع حوالى ١٠٤ حالات طلاق مواطنين من وفدات، بينما بلغت حالات طلاق المواطنات من وافدين ١٥ حالة، وحالات الطلاق بين الوافدين والوافدات ٢٤٥ حالة طلاق[٩].

وأشارت نتائج دراسة ميدانية أعدتها (وزارة العمل والشؤون الاجتماعية) عام ٢٠٠٠م عن ظاهرة الطلاق في مجتمع الإمارات، من خلال عينة دراسة ميدانية تتكون من ٢٧٩ فرداً نسبة الذكور فيها ١٩٪ أن الزوجة هى المبادرة في طلب الطلاق حيث بلغت نسبة اللاتى طلبن الطلاق ٤٣٪ ويليها في المرتبة الثانية الزوج بنسبة ٢٩٪ وبلغت نسبة الطلاق الذى وقع بالاتفاق بين الطرفين ١٢٪[١٠].

وذكرت دراسة أخرى صدرت عن (مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية في أبو ظبي)، أن أغلبية المطلقات، وتبلغ نسبتهن ٧٦٪ كن مازلن شابات ولا تتجاوز أعمارهن ٣٩ عاماً وتبين أن ١٩٪ مطلقات صغيرات السن، وأوضحت الدراسة أن ٥٨٪ من المطلقات لا تستمر حياتهن الزوجية أكثر من ثماني سنوات، بينما لم تستمر ٣٢٪ من المطلقات سوى سنة إلى خمس سنوات، وهذا يعني أن مجتمع الإمارات، الذى يواجه مشكلات عنوسة أيضاً يضيف إلى مشكلاته الاجتماعية عبئاً ضخماً اسمه الطلاق.

وفي **دولة الكويت** : نجد أنه أظهر تقرير إحصائى حديثاً عام ٢٠٠٣م، أن إجمالى المتزوجين في الكويت بلغ ما يقارب ٩٧٦ الف متزوج ومتزوجة حتى العام ٢٠٠٢م منهم حوالى ٢٩٥ ألفا من الكويتيين، وقال التقرير الخاص بالمجموعة الإحصائية السنوية الذى أصدره قطاع الإحصاء والمعلومات في وزارة التخطيط إن إجمالى عدد المطلقين في الكويت حتى العام المذكور بلغ ما يقارب ٣٦ الف حالة طلاق وأضاف التقرير أن اجمالى الذكور الكويتيين المطلقين بلغ تقريباً اكثر من سبعة الاف، فيما بلغ اجمالى الإناث الكويتيات المطلقات حوالى ١٧ ألف حالة.

وتشير إحصاءات أخرى نشرتها إدارة التوثيقات الشرعية بوزارة العدل في الكويت إلى أن نسبة الطلاق بلغت ٤٠٪ خلال النصف الأول من العام ٢٠٠٣م[١٢].

أما في **مملكة البحرين** : فقد ارتفعت نسبة المطلقات في البحرين مع نهاية عام ٢٠٠٢م لتصل إلى ٣٠٪ مقابل ١٥٪ عام ١٩٩٤م ، وتشير الإحصائيات إلى أن عدد حالات الطلاق بين المواطنين من الجنسين وصل إلى ٥٤٣٤ في نفس العام[١٣].

ثانيا : أسباب ظاهرة الطلاق :

وإذا كانت هذه أرقام وإحصاءات حالات الطلاق الفعلي، فكم يكون عدد الأسر المشتتة أو المهددة بالطلاق الواقفة على حافته، أو تلك الأسر التى تقاوم الوقوع فيه؟ وما الذى وصل بمجتمعنا إلى هذا الوضع المتردى من العلاقات الأسرية؟ لا شك أن ثمة أسبابا قوية وراء هذا الخلل، ومن أهم هذه الأسباب هي:

نسب الطلاق في ازدياد مستمر.

١ـ البعد عن الدين:

فكثير من شباب الجنسين لا يلتزم عند اختيار شريك حياته بالضوابط التى حثنا

عليها رسولنا {صلى الله عليه وسلم} حيث يقول: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[١٤]، ويقول {صلى الله عليه وسلم} «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[١٥].

فقد اشترط الإسلام مصاحبة الدين في كلا الطرفين على أن يكون هذا الدين عند الرجل مرضيا، لا أي دين كان، ثم اشترط الأمانة، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته، وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أمينا على عرضها وعلى كرامتها وفي معاشرتها فلا يبخسها حقها، ولا يسيىء إليها ولا يعنتها، لأن ذلك كله ثلم في أمانته، بل إن احبها أكرمها وإن أبغضها لم يبخسها حقها.

وهى أمينة على ماله وعياله وعلى نفسها وعفتها فكما يقول النبي {صلى الله عليه وسلم} «خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا أقسمت عليها أبرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك»[١٦].

ومن هنا كان التوجيه القرآني : {ولا تَنْكِحُوا المشركات حتى يؤمنَّ ولأمةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنْكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم} (البقرة آية/ ٢٢١).

التسرع في اختيار الزوجه سبب مباشر في الطلاق

فالاختيار الصحيح هو الذي يقوم على أساس الدين والأمانة والخلق، ولا بأس أن يأتى بعد ذلك الجمال أو المال أو الحسب فكما يقول الشاعر:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا
وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

لكن المفروض ألا يأتى أيّ من عرض الدنيا مالا كان أو جمالا أو حسبا على حساب الدين، لأن كل ذلك عرضة للتحول أو الزوال.

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى
وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

فإذا تزوج الرجل المرأة لمحض الجمال ثم عرض لهذا الجمال ما يشوهه أو تغيرت نظرته إلى الجمال، وهو أمر نسبي فما تراه جميلا اليوم قد لا تراه جميلا غدا أو قد ترى ما هو أجمل منه، فكيف يكون الأمر حينذاك؟ ومن تزوج على أساس المال ، وتقلبت الأيام ونفد المال، أو تزوج لطمع لم يدرك، فكيف يكون حال هذا الزواج ومآله؟.

أما الرابط الحقيقى والمعدن النفيس الذى لا يصدأ أبداً ولا يتحول بتحول الأيام فهو الإيمان الحقيقى، والدين الصحيح والخلق المنبثق من وحى الإسلام وتعاليمه.

فلو أن كل واحد من الزوجين عرف في ضوء تعاليم دينا الحنيف - مال من حقوق وما عليه من واجبات لعاش الجميع حياة آمنة مستقرة لا تعرف القلق والاضطراب، ولا تقف على حافة الهاوية مترقبة أو متفادية هذا الكابوس المزعج الذى يدمر أمن الأسر واستقرارها.

٢- غياب الدور التوجيى للآباء والأمهات :

يظن بعض الآباء والأمهات أن دوره التربوى أو التوجيهى ينتهى بزواج ابنه أو ابنته، ناهيك عن بعض التوجيهات الخاطئة التى تهدم أو تدمر، وتحرض أحد الطرفين على مشاكسة الآخر، خلافا لما أمرنا به ديننا من توجيه النصح وفق المنهج الإسلامي وشرعته، وقد كان سلفنا الصالح والعقلاء

من أمتنا إذا زفوا امرأة إلى بيت زوجها أمروها برعايته وحسن القيام بحقه وتعهدوها بالنصح والرعاية، وأوصوها دائماً بالحفاظ على استقرار أسرتها، فهذا جعفر بن أبي طالب يوصي ابنته قائلا: «إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة العتاب فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة وأطيب الطيب الماء»[١٧].

وهذه امرأة جاهلية لكنها عاقلة أريبة، إنها أمامه بنت الحارث توصي ابنتها فتقول: أي بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك لك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لكنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية: إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلّفتْ العش الذى فيه درجت إلى وكر لا تعرفينه، وقرين لم تألفينه، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا، فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا.

وأحفظى له خصالا عشرا، يكن لك ذخرا

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

واما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك ألا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه فإن ثورة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

واما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً، ولا تفشين له سراً، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مغما، والكآبة بين يديه إن كان فرحا[١٨].

فليت الآباء والأمهات يدركون أن مسئوليتهم تجاه أبنائهم وبناتهم لا تقف عن حد معين فيقومون بما ينبغى القيام به من أجل المحافظة على استقرار حياة أبنائهم والحيلولة دون تشرد أحفادهم، بين زوجة أب أو زوج أم، أو ما هو أخطر من ذلك العقد النفسية المدمرة التى تصيب الأولاد في حالات الشقاق والخلافات، وتجعل من حياة آبائهم وأمهاتهم نموذجا سيئا للحياة الزوجية أو الأسرية.

تدخل الآباء والامهات في تحديد كيفية حياة الزوجين يضاعف المشاكل.

٣ـ وسائل الإعلام :

فالإعلام المرئى ينقل فيكثير من الأحوال صوراً خيالية غير واقعية للحياة الزوجية فالزوج شاب وسيم أنيق غنى مترف مغداق للهدايا بمناسبة وبلا مناسبة والزوجة امرأة جميلة حسناء فاتنة جذابة متفرغة للعواطف، والحفلات والنوادى هى وزوجها وكأن هذه المرأة لا تعرف حملا ولا وضعاً ولا رضاعا ولا تربية أبناء ولا ترتيب شئون المنزل، فهى فقط للشهوة واللذة فحسب، فترسم صورة حالمة واهمة للحياة الزوجية من خلال هذه المشاهد الخيالية أو الهلامية، وسرعان ما يصطدم الخيال بالواقع، فلا يصمد الواقع أمام الخيال، ويخر السقف على رءوس حامليه.. ومن ثم نوجه نداء للحريصين على أمن واستقرار هذا المجتمع أن يتقوا الله فيه، وفي شبابنا بخاصة، فينزلوا إلى أرض الواقع بعيدا عن الخيالات والأوهام وأن يعملوا على تنقية وسائل الإعلام من كل ما يضر بأمن المجتمع وسلامته ويتنافى مع ديننا وقيمنا وأخلاقنا العربية الإسلامية، بعيدا عن المظاهر الزائفة ، والمجون

والخلاعة التى ينبذها الدين والعرف والعقل السليم، مؤكدين أن شبابا خليعا لا يحمى وطنا، ولا يدافع عن أمة، ولله در حافظ حيث يقول:

إذا الذنب استحال بمصر ظبيا
فمن يحمى البلاد من الذناب

٤ـ الأزمات الاقتصادية الطاحنة:

لا يستطيع أحد أن ينكر أن الأزمات الاقتصادية لها دور كبير في الشقاق الأسرى الذى يصل ببعض الأسر إلى الطلاق، حيث لا تقف متطلبات بعض النساء عند حد، وتدعو المباهاة والمظاهر الكاذبة بعضهن إلى إجهاد الزوج بما لا قبل ولا طاقة له به ومن ثم علينا أن نرشد هؤلاء إلى السيرة العطرة لأمهات المؤمنين، والصحابيات، والتابعيات، وتابعاتهن، وسائر النماذج الصالحة من نساء أمتنا الإسلامية، كيف كن يصبرن على خشونة الحياة وهذه ام المؤمنين عائشة تقول: «كنا نمكث في بيت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} شهرين كاملين ـ ثلاثة أهلة ـ نرى الهلال ثم الهلال، وما يوقد في بيت رسول الله {صلى الله عليه وسلم} نار، قيل: وما طعامكم يا أم المؤمنين؟ قالت: الأسودان: التمر والماء»[١٩].

العنف والتسلط من أحد الزوجين يسرع الانفصال بينهما.

ويرشدنا رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إلى ما يحفظ توازننا النفسى والأسرى في الرضا والقناعة وعدم التطلع إلى ما في أيدى الآخرين فيقول: {صلى الله عليه وسلم} «لا ينظر أحدكم إلى من فوقه ولينظر إلى من هو دونه فذلك أحرى ألا تزدروا نعمة الله»[٢٠].

ثالثا : آثار ظاهرة الطلاق :

١ـ على المرأة :

تعانى الزوجة من ضغط نفسى قوى بعد الانفصال نتيجة ظروف الطلاق وبسبب وجود أبناء حيث تتحول المطلقة الى العائل الوحيد، فضلا عن موقف أسرتها من عملية الطلاق، حيث تخضع في المجتمعات الشرقية لرقابة اجتماعية ظالمة وبخاصة من والديها وأخواتها وأقربائها، فإذا كانت فوق سن الأربعين يصعب زواجها مرة أخرى، خاصة أن أغلب الشباب في المجتمعات الخليجية لا يفضلون الزواج من امرأة مطلقة، وفي المقابل لا يمانع البعض الآخر في الارتباط بالمطلقة متى ما تبينت أسباب الطلاق، فقد يكون السبب الحقيقى للطلاق في بعض الأوقات الزوج، وقد أكد مأذون الخرج بالمملكة العربية السعودية الشيخ (نايف بن ناصر القحطانى) إقبال الشباب على الزواج بالمطلقات خاصة في الفترة الأخيرة، مشيراً إلى أن هذه النسبة تصل إلى ٣٠٪ ويعود السبب ـ كما يراه القحطانى ـ إلى أن بعض الشباب ينظر الى المطلقة على أنها أكثر خبرة في الحياة مما يمنع كثيراً من المشكلات الأسرية، إلا أن الأهل والعادات تقف حائلا دون الزواج بمطلقة[٢١].

وتعانى المطلقة من نظرة المجتمع إليها، حيث يلقى عليها اللوم في فشل العلاقة الزوجية فتلاحقها التهم والهمسات الظالمة والنظرات المملوءة بالشك والريبة، وتكون «محاصرة» من الرجال أو النساء اللواتى يخشين على أزواجهن منها.

٢ـ على الرجل :

ليس من شك أن الاثار المدمرة للطلاق لا تقتصر فقط على المرأة، وإنما تشمل الرجل أيضاً حيث يعانى كثيراً منه شأنه شأن المرأة. فقد كشفت أحدث الدراسات النقاب عن تزايد نسبة الرجال المطلقين الذين يعانون أمراضاً جسدية ومشكلات نفسية بعد الطلاق، مقارنة بحالاتهم قبل وقوعه.

فالرجل غالباً ما يجد نفسه بعد الطلاق وحيداً، نتيجة طبيعة العلاقات الاجتماعية التى يبنيها حوله والتى تتسم عادة بالسطحية، فهو يشعر بالخيبة لفقدان دوره كأب وزوج، ويُصدم نتيجة عدم شعوره بالمسؤولية مما أدى إلى انهيار العائلة، إضافة الى عدم السماح له قانوناً بحضانة الأولاد في معظم الأوقات إلا في سن متأخرة للأبناء.

٣ـ على الأطفال :

أجمع الخبراء على أن الأطفال هم المتضررون من انهيار العلاقات الزوجية، حيث يؤثر سلباً على عملية تنشئتهم النفسية والاجتماعية وفي بناء الشخصية السوية، ويفقدون الشعور بالأمان، ولا يحصلون على حاجاتهم الطبيعة من الشعور بالراحة والاستقرار والطمأنينية التى هى عصب عملية التنشئة النفسية والاجتماعية للطفل، كما يفقد المثل الأعلى[٢٢].

وقد أظهرت دراسة اجراها (عبد الله محمد الفوزان، الأستاذ المشارك في قسم الاجتماع في جامعة الملك سعود بالرياض)، على عينات من المجتمع السعودي: «أن ٩٠٪ من حالات إيذاء الأطفال ناتجة عن سوء معاملة الأم والأب المنفصلين، حيث تأتى في المرتبة الأولى من وسائل إيذاء الأطفال، ثم التحرش الجنسي، ثم الأهمال».

٤ـ على المجتمع :

لخص علماء الاجتماع الآثار الخطيرة الناجمة عن انهيار العلاقات الزوجية في عدد من المخاطر، لعل من أبرزها: خروج جيل حاقد على المجتمع بسبب فقدان الرعاية الواجبة له، وتزايد أعداد المشردين، وانتشار جرائم السرقة والاحتيال والنصب والرذيلة، وزعزعة الزمن والاستقرار في المجتمع فضلا عن تفككه.

ويضيف هؤلاء العلماء لقائمة الآثار المدمرة للتفكك الأسرى على المجتمع، انتشار ظاهرة عدم الشعور بالمسؤولية، فضلا عما يصيب القيم الأخلاقية والأعراف الاجتماعية السائدة فيه من مظاهر التردى والانحطاط، نتيجة عدم احترام تلك القيم والأعراف والتقيد بها كضوابط اجتماعية تنظم حياة المجتمع وتضبط سلوك أفراده وجماعاته[٢٣].

المجتمعات الخليجية هي الاكثر نسبة في الطلاق.

رابعا: نحو حل موضوعى لظاهرة الطلاق في بعض المجتمعات الإسلامية:

لا شك أن الحل الموضوعى لظاهرة الطلاق في المجتمعات الإسلامية إنما يكمن في اتباع منهج الإسلام وهدية ومعرفة أن الإسلام إنما أباح الطلاق في الحالات التى تستحيل فيها مواصلة الحياة الزوجية، ويكون الطلاق أخف الضررين.

وأن الإسلام وإن كان قد أباح الطلاق فقد جعله أبغض الحلال إلى الله تعالى كما في حديث ابن عمر أن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[٢٤].

وحديث ثوبان أن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأ« فحرام عليها رائحة الجنة»[٢٥]، وأنه {صلى الله عليه وسلم} يقول: «ليس منا من خبب ـ أى أفسد ـ امرأة على زوجها»[٢٦]، وحتى يكون هناك حل موضوعى وجاد وواقعى لهذه الظاهرة، يمكن الحد من ظاهرة الطلاق في بعض المجتمعات الإسلامية من خلال ما يلي:

١ ـ حسن الأختيار : عن طريق إلقاء المحاضرات للمقبلين على الزواج عن كيفية اختيار شريك الحياة، حيث أثبتت الدراسات أن معظم حالات الطلاق

بسبب سوء الاختيار، والتسرع في اتخاذ قرار الزواج، خاصة لدى الفتاة العربية المسلمة التى تخاف من شبح «العنوسة» الذى يطاردها[٢٧].

٢ ـ التوعية والثقافة الأسرية لدى الشباب المقبل على الزواج: حيث أثبتت الإحصاءات أن معظم حالات الطلاق تقع في السنوات الأولى من الزواج، مما يدل على أن التوعية والثقافة الأسرية لدى المقبلين على الزواج لازالت مفقودة وسطحية لا تؤهلهم لمواجهة أعبائه وإجراءاته، لذا لابد من التركيز على هذه الفئة من أجل وقايتها وحمايتها وتوعيتها وإعطائها المهارات الأساسية في تجنب الإشكاليات التى تعوق مسيرة زواجهم. وقد نظم (مركز الاستشارات العائلية بالتعاون مع دار الإنماء الاجتماعي في قطر) احتفالا مؤخراً بالسنة الدولية العاشرة للأسرة الهدف منه تعديل بعض السلوكيات الأسرية، كما نظم المركز دورتين تدريبيتين حول كيفية تكوين علاقات زوجية ناجحة[٢٨].

٣ ـ إعادة التوافق النفسى للمطلقة: العمل على دمج المطلقة في المجتمع بتشجيعها على إكمال دراستها وممارسة هواياتها، والانضمام إلى العمل الاجتماعى والجمعيات الخيرية.

عدم مراعاة الزوجين للحقوق والواجبات يؤدي الى الانفصال.

٤ ـ تطوير مكاتب التوجيه والاستشارات الأسرية: تعتبر مكاتب التوجيه والاستشارات الأسرية من أهم المؤسسات الاجتماعية التى تقدم خدماتها المباشرة الى الأسرة والطفولة معاً، ففى العصر الحديث ونتيجة التقدم الحضارى والتغيرات الاجتماعية زادت حدة المشاكل الاجتماعية والنفسية التى تؤثر في وظائف الأسرة بصفة خاصة والحياة الأسرية بصفة عامة.

وعلاجاً للمشاكل والأزمات الأسرية التى أصبحت تتعرض لها الأسرة وتهدد أمنها وسلامتها واستقرارها خاصة في بعض المجتمعات الإسلامية لابد من تطوير هذه المكاتب بحيث تحقق الأهداف الأتية:

أ ـ علاج المشكلات والمنازعات الأسرية في كافة المجتمعات الإسلامية الاستفادة المتبادلة من التوجيهات والخبرات في المجال الأسرى.

ب ـ تنمية الوعى الأسرى لوقايته من الخلافات والمنازعات الأسرية.

٥ ـ تأسيس صندوق للنفقة : رعاية المطلقة بعد الطلاق وضمان العائد المادى لها ولأولادها، أمر واجب، فقد سعت مثلا حكوماً مملكة البحرين على ذلك، حيث وافق مجلس الوزراء البحرينى يوم ٢٠٠٤/٥/١٧م على مشروع قانون بشأن إنشاء صندوق نفقة للمطلقات ليتولى صرف النفقة مؤقتاً للزوجة أو المطلقة أو الأولاد أو الوالدين أو كل من تجب عليهم النفقة أثناء نظر دعواهم القضائية أمام المحاكم لتقرير النفقة، وذلك بهدف ألا تبقى الحاضنة المطلقة وأولادها من دون عائل أثناء هذه الفترة وبالشكل الذى يحمى الأسرة وبخاصة الأمومة والطفولة ويقيها شر العوز والحاجة، وستتولى الحكومة توفير الاعتماد المالى اللازم للصندوق خلال السنتين الأوليين إضافة إلى تمويله من الهبات والمنح كما يمكن للوقف الخيرى الإسلامى القيام بتمويل هذا الصندوق ومبالغ النفقة التى تستوفى من المحكوم عليهن ومن خلال تحصيل مبلغ رمزى قدره دينار واحد عن كل دعوى من دعاوى الأحوال الشخصية، وأحال المجلس مشروع القانون للعرض على مجلس الشورى والنواب عملا بالإجراءات الدستورية[٢٩].

٦ ـ بوليصة تأمين للمرأة ضد مخاطر الطلاق :
تجرى حالياً دراسة مشروع «بوليصة تأمين للمرأة ضد مخاطر الطلاق» في بعض البلدان الإسلامية من قبل شركات التأمين بالتعاون مع إحدى الشركات الغربية العالمية، وأكد القائمون على هذا المشروع أنه يستهدف تحقيق الاستقلالية المادية الكاملة للمرأة العربية المسلمة أمام الرجل دون أن يستغل هذا المشروع في تفكيك الأسرة وأن تتفق وفق ضوابط الشريعة الإسلامية أو أن تستخدمه المرأة كسلاح للتحلل من التزاماتها الأسرية، أو التلاعب للحصول على الأموال التعويضية من شركات التأمين[٣٠]٠

إن السبب الرئيسى الذى تنبثق منه كل أسباب الشقاق والخلاف هو بعد الناس عن دينهم وجهلهم بأحكامه وآدابه وتعاليمه٠٠ وصدق رسول الله الله {صلى الله عليه وسلم} إذ يقولك «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتي»[٣١] ■

الهوامش :

(١) Nock, steuen d sciagg af the Fomily. p..1740
(٢) Divorcee in the Rangoon Dicti cnary of scalar Nicholas Alercranlie ephenHill and s. turner-penguin Baahs. 1986 - p.p.73 - 44
(٣) ipipd. p - 45.
(٤) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاءك مصر ٢٠٠٤م٠
(٥) وكالة الأنباء السعودية: موقع محامي المملكة ٢٠٠٤/٤/١٨م٠
(٦) وكالة الأنباء السعودية٠
(٧) وكالة الأنباء القطرية٠
(٨) عبد الرازق فريد المالكى: دراسة بعنوان ظاهرة الطلاق في دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة القلم للنشر، ٢٠٠٤، ٣٤٠
(٩) تقرير محكمة زبو ظبى الشرعية الابتدائية ٢٠٠١م٠
(١٠) تقرير وزارة العدل والشؤون الاجتماعية عن ظاهرة الطلاق لعام ٢٠٠٠م٠
(١١) مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية: أبو ظبي ٢٠٠٤م٠
(١٢) وزارة العدل: إدارة التوثيقات الشرعية، الكويت ٢٠٠٣م٠
(١٣) وكالة الأنباء البحرينية٠
(١٤) رواه البخارى في صحيحة: الكتاب ٦٧ ، باب رقم ١٥٠
(١٥) سنن أبن ماجه: الكتاب أ، باب رقم ٤٦٠
(١٦) مسند احمد بن حنبل: الجزء الثانى، ص ٤٣٢٠
(١٧) محمد أبو زهرة: مدى حرية الزوجين في الطلاق في الشريعة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٠٠٧٠
(١٨) المرجع السابق، ص ١٠٠٩٠
(١٩) سنن النسائى: الكتاب رقم ٣، الباب الرابع، ص ١٣٠
(٢٠) سنن الترمذي: الكتاب الرابع، الباب الثاني، ص ١١٢٠
(٢١) منى صلاح: الطلاق ناقوس خطر يهدد البيوت العربية، دار الراية للنشر، بيروت ٢٠٠٤م ص ٢٣٠
(٢٢) http II WWW. swnsa. Cam/ modules name = Newy & file = article & sid - 1381
(٢٣) منى صلاح: المرجع السابق ص ٢٧٠
(٢٤) سنن أبى داود: الكتاب رقم ١٣، الباب الثالث٠
(٢٥) مسند احمد بن حنبل: الجزء الخامس، ص ٢٧٧٠
(٢٦) سنن أبى داود: الكتاب رقم ١٣، الباب رقم ٣٥٠
(٢٧) منى صلاح: مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٠
(٢٨) جريدة الراية القطرية: عدد يوم ٢٠٠٤/٧/٢٧م٠
(٢٩) أخبار الخليج: مملكة البحرين، عدد يوم ٢٠٠٤/٣/٢٧م٠
(٣٠) منى صلاحك: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣
(٣١) مسند احمد ابن حنبل: الجزء الرابع، ص ٣٧١٠

المـرأة والكتابة .. أوهام يجب أن تزول!

(١-٣)

احتلال اللغة :

□ ***تحت هذا العنوان تحدث الدكتور الغذامي عن علاقة المرأة باللغة .. وكيف «تظهر اللغة -ولا ندري أي لغة يقصد- على أنها مؤسسة ذكورية وهي إحدى قلاع الرجل الحصينة وهذا يعني حرمان المرأة ومنعها من دخول هذه المؤسسة الخاصة بالرجل، مما جعل المرأة في موضع هامشي بالنسبة لعلاقتها مع صناعة اللغة وإنتاجها»[١].***

ولكن يظهر أنه أراد باللغة في كلامه هذا لغة العرب وحدهم إذ أنه استطرد قائلا: «جرى ذلك - أي حرمان المرأة - حسب القانون التاريخي الذي يمنع المرأة من تعلم الكتابة وهو القانون الذي صاغه خير الدين نعمان بن أبي الثناء في كتابه الموسوم بـ «الإصابة في منع النساء من الكتابة»».

ويشير المؤلف إلى مرجعه في هذا القانون فيقول في الهامش: «ورد ذلك في إشارة لدى سميرة المانع: الثنائية اللندنية ص ٤٠ لندن ١٩٧٩م».

هذا دون أن يعنِّي نفسه بالسؤال عن ابن أبي الثناء هذا ، وفي أي عصر كان

وفي أي بيئة عاش، وهل كتابه هذا مطبوع أو مخطوط، كل هذا من أجل أن نعرف تاريخ هذا «القانون التاريخي» الذي حظر على النساء الكتابة.

أما أنا فقد راجعت كتاب الأعلام للزركلي فلم أجد لخير الدين بن أبي الثناء هذا ذكرا ولم أجد لكتابه المشار إليه أثرا، وقد كان واجب التثبت والتحقيق يقضي بالتأكد من النص الذي ورد فيه هذا «القانون التاريخي» كما يسميه الغذامي..

فلنفترض أن النص صحيح وأن السياق يدل على صحة هذا الرأي المنسوب إلي ابن أبي الثناء - في أي عصر كان وفي أي بيئة عاش - فلا يجوز تسمية هذا الرأي «قانونا تاريخيا» بل يبقى رأي فرد من أفراد الناس لا يملك أن يحمل الناس عليه.

وقد كان أبو العلاء المعري يرى صرف النساء إلى تعلم الغَزْل والاكتفاء بالقليل من حفظ القرآن الكريم، لأن أبا العلاء كان سيىء الرأي في سلوك الناس في مجتمعه، وكان شديد الغيرة على النساء راغبا في إغلاق منافذ الفحش والخنا من أي سبيل كان.



د. مصطفى عبد الواحد

مكة المكرمة - جامعة أم القرى

وذلك في مثل قوله :

ولا تَحْمد حِسَانك إن توافتْ

بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى

بهن من اليَراع مُقلمات

سهام إنْ عرفْن كتاب لسْن

رجعن بما يسوء مُسَمَّمات[٢]

حتى في حفظ القرآن الكريم يرى أن تكون المعلمة عجوزا من العجائز، وليس شيخا من الشيوخ فيقول:

ليأخُذن التلاوة عن عجوز

من اللاتي فغرْن مُهتمات

يسبِّحن المليك بكل جُنْح

ويركعن الضُّحى متأثمات

فما عيبٌ على الفتيات لحْنٌ

إذا قلن المراد مُترجمات

ولا يُدنين من رجل ضرير

يلقنهن آياً مُحكمات

سوى من كان مرتعشا يداه

ولِثُّه من المُتثغِّمات[٣]

بل إن أبا العلاء المعرى قد نادى في شعره صراحة بالإعراض عن تعليم النساء القراءة والكتابة وذلك في قوله:

علموهنّ الغَزْل والنسج والردْ
ن وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والإخـ
لاص تُجزي عنْ يُونس وبراءه[٤]

وظل هذا النداء «العلائي» رأيا لصاحبه لا يلزم أحدا.. ولم يعتبره أحد «قانونا تاريخيا» واجب النفاذ، وإن كان أبو العلاء أسبق في الزمن من ابن أبي الثناء الذي أصدر هذا «القانون التاريخى» بمنع النساء من الكتابة.

محاولات مشبوهة تلك التى تحاول صنع جدار فاصل بين المرأة المسلمة وبين محاورها الثقافية والفكرية.

ولو كان الدكتور الغذامي راغبا في بحث القضية على أساس علمي تاريخي واقعي لما أعوزته الوسائل التى توضح أمامه معالم الطريق.. لكنه يطير فرحا بإشارة وردت لدى «سميرة المانع» ويؤسس عليها قانونا تاريخيا متوهما يدل على أن المرأة العربية قد طردت من مؤسسة اللغة ومنعت من صناعتها وإنتاجها لأنها حُرمت من تعلم الكتابة.

فإذا رجعنا إلى تاريخ التعليم العربي وجدنا أنه عند ظهور الإسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلا فقط[٥].

بينما كان عدد النساء اللاتي يعرفن القراءة والكتابة خمس نسوة فقط، ففي فتوح البلدان للبلاذري أنه عند مجيء الإسلام كان هناك خمس من نساء العرب يقرأن ويكتبن وهن: (حفصة بنت عمر، وأم كلثوم بنت عقبة، وعائشة بنت سعد، وكريمة بنت المقداد، والشفاء بنت عبد الله العدوية) التى كانت تعلم حفصه، وقد طلب الرسول {صلى الله عليه وسلم} منها أن تستمر في تعليمها لحفصة بعد زواج الرسول منها[٦].

هكذا كانت النسب بين الرجال والنساء في تعليم الكتابة عند ظهور الإسلام: سبعة عشر للرجال وخمس للنساء.

- ومما يدل على أن المرأة العربية قد عرفت

الكتابة هذا الخبر الذي رواه ابن قتيبة في رسالته المسماة: «العرب أو الرد على الشعوبية» عن عبد الرحمن بن خالد الناقد قال كان الحسن بن جَهْور مولى المنصور خرَّج الى بعض ولد سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كتابا كان لعبد المطلب بن هاشم كتبه بخطه فإذا هو مثل خط النساء»[٧].

فإذا كان هذا شأن العرب في الجاهلية فهل يعقل أن يحرم الإسلام الكتابة على النساء بعد ظهور الحاجة للكتابة والتدوين للقرآن والحديث؟!

ـ فمنذ فجر الإسلام وبعد استقرار المجتمع الإسلامي بالمدينة أبدت المرأة رغبتها في أن تتلقى دروسها الخاصة بها للتفقه في الدين والتزود بالعلم.. فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال النساء للنبي {صلى الله عليه وسلم} غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك. فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: «ما منكم من امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار» فقالت امرأة: واثنين فقال: واثنين[٨].

وفي الكتاب العزيز في أول ما نزل من القرآن جاءت الإشارة إلى التعليم بالقلم في قوله تعالى: {الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم}.

كما جاء في القرآن القسم بالقلم إشادة بأثره في تسجيل المعارف والإفصاح عن المراد في قوله تعالى: {ن. والقلم وما يسطرون} أفبعد هذه الإشادة الباهرة بالقلم يقال إن هناك «قرارا تاريخيا» يمنع النساء من الكتابة؟! ■

«للموضوع صلة»

الهوامش :

(١) المرأة واللغة، ص ١١١.
(٢) اللزوميات ٢٣٦/١ (ط صادر).
(٣) المصدر السابق، والمتثغمات: التى يغشاها البياض دلالة على الهرم.
(٤) اللزوميات ١٦٣/١ (ط صادر).
(٥) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٥٧، وقد نقلها عنه الدكتور أحمد شلبي في الجزء الخامس من موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ص ٤٤ الطبعة السادسة.
(٦) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٥٨.
(٧) الرد على الشعوبية لابن قتيبة ص٣٧٢ من مجموعة رسائل البلغاء التى جمعها محمد كرد علي.
(٨) صحيح البخاري ٢١/١ (ط الأميرية).

المنهل

في الحلقة القادمة سيتناول الدكتور مصطفى عبد الواحد الجهود العلمية والتعليمية للنساء.. ومدى حرصهن على التعلم.. حتى بلغن المكانة السامية من العلم وزاحمن به العلماء.



الطيب والعطور في التراث العربي

□ إن الشرق هو مهد العطور، وهو مرتبط بالطقوس والنصوص الدينية القديمة، وكان المصريون يستخدمون الزيوت العطرية في التحنيط والعلاج، وكان للعطور تقاليد خاصة لدى الإغريق والرومان، حيث كان أباطرة روما يرشون العطر على المقاعد ورؤوس الناس في احتفالاتهم، وفي حلبات المصارعة الرومانية، وفي احتفالات أخرى كانت أجنحة الحمام تغطس بالعطور قبل إطلاقها لترش العطور فوق المحتفلين، وكانت مياه الحمامات الرومانية تعطر بأوراق زهر الخزامي، وانتقلت هذه التقاليد إلى الطقوس المسيحية، حيث يستخدم البخور والعطور في القداسات والمناسبات الدينية.

وترتبط الأطياب والعطور منذ العصور القديمة بكثير من مقومات الحياة اليومية، فقد كان لها علاقة بالمعابد والهياكل والطقوس الدينية ، وكان الطيب، منذ القدم، رمزا للأناقة والنظافة وعلامة من علائم الترف عند الشعوب كافة، ولا يزال الطيب من أحب متطلبات الناس بمختلف أجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم.

وفي الحضارة العربية الإسلامية لم يترك الصانع الكيميائى العربي شاردة ولا واردة تتعلق بالأطياب والعطور إلا درسها درسا عميقا، وافرد لها مساحات كبيرة في مؤلفاته الكيميائية والنباتية، وقد أفرد الكيميائي الحديث فرعا خاصا بالعطور، وبحث فيها من جميع الجوانب، وراح إلى أبعد من ذلك، فقد تمكن من اختراع وتحضير عطور صناعية، أصبحت تضاهى العطور المستخرجة من مكامنها الأصلية، نباتية كانت أم حيوانية، لسد حاجة المستهلكين من كل طبقات الناس، فضلا عن استهلاك العطور في صناعات كيميائية متعددة أخرى، فالحاجة أم الاختراع، والأهم من ذلك أننا نجد كثيرا من أسماء العطور وكثيرا من طرائق استخلاصها وطرائق تحضير المركب منها، وهى تشبه إلى حد بعيد جدا تلك التى كانت مستعملة في عصر الحضارة العربية الخالدة.

ويعترف المستشرق «رينالدي» بأن العرب أعطوا من النبات مواد كثيرة للطب والصيدلة، وانتقلت إلى الأوربيين من الشرق أعشاب ونباتات طبية وعطور كثيرة، وذكر «ليكرك» جملة من المواد الطبية التى أدخلها العرب في العقاقير، والمفردات الطبية يزيد عددها على الثمانين، وقد أوردها بالنص العربي، وما وضع لها من كلمات لاتينية، منها ما هى منحوتة أو مقتبسة

أ.د. بركات محمد مراد

جامعة عين شمس - القاهرة

من الأصل العربي، ومنها ما لا تزال بلفظها العربي ولكن بحروف لاتينية[١].

ولقد تناول «جرجى زيدان» في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامى» دور علماء العرب والمسلمين في مجال النبات والزراعة، فأكد أن للعرب القدح المعلى في الدراسة والتصنيف في العلوم النباتية والزراعية، فهم بدون شك نقلوا معلوماتهم البدائية وعملوا منها عملا مبنيا على أسس علمية متينة، ولقد بقيت أوربا تعتمد على مؤلفات علماء العرب والمسلمين في حقل النبات مدة طويلة من الزمن.

ويذكر الباحث «أسعد داغر» في كتابه «حضارة العرب» أن العرب كانوا واسعى الاطلاع في علم النبات، فقد أنشأوا الغابات والحدائق والبساتين، وعرفوا أنواعها وفصائلها ومزاياها، وأدخلوا من النباتات في تحضير الأدوية ما جهله علماء اليونان في هذا المجال، مثل ديسقوريدس وجالينوس كالراوند، والتمر الهندي، وخيار الشنبر، وورق السنامكى، والإهليلج، والكافور، وغيرها من النباتات التى استخرج منها العرب والمسلمون الطب والعطور.



العرب وكيمياء العطور :

برع العرب والمسلمون الأوائل في علم الكيمياء .. واعتُبر جابر بن حيان الكوفى الأزدي (١١٠هـ/ ٧٢٠م) مؤسس علم الكيمياء، وخلَّف لنا يعقوب بن اسحق الكندي (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) والرازي (٣١١هـ/ ٩٢٣م) والبيرونى (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) أبحاثا وكتبا ورسائل كيميائية ممتازة، ويُعْتبر البحث في حقل الكيمياء العربية متعدد الجوانب، غزير الفحوى، عميق المعلومات، خاصة وأن العرب والمسلمين قد كتبوا في الكيمياء العضوية كتبا كثيرة في هذا الحقل، وعَدّ ابن النديم في الفهرست أكثر من عشرة كتب في العطور والطيب فضلا عن كتب أخرى مذكورة هنا وهناك في الفهارس والكتب التراثية.

وتصنف العطور أصناف أربعة هي:

أولا : العطور الحيوانية: وهي التى يحصل عليها من الحيوان، كالمسك والعنبر، وعدد عطور هذا الصنف لا يتجاوز عدد الأصابع.

ثانيا : العطور النباتية : وهى التى يحصل عليها من النباتات بصورة مباشرة، أو من الزيوت النباتية.

ثالثا : العطور المركبة : وهى تحضر من مزج مواد عطرية عدة أو خلطها، بعضها ببعض، فنحصل من جراء ذلك عطور جديدة، ويكتسب كل عطر من هذه العطور رائحة خاصة به.

رابعا : العطور الصناعية : أي العطور التى يحضرها الصانع الكيميائى في المختبر أو في المصنع، بطرائق صناعية كيميائية. وهذا الصنف من العطور لم يكن معروفا من قبل، وظهر بظهور الاكتشافات الكيميائية الحديثة التى بدأت منذ أواسط القرن الثامن عشر للميلاد.

ومن إحصاء عدد العطور العربية، كما وردت في عدد من الكتب التراثية، مثل كتاب «كيمياء العطر والتصعيدات» المنسوب للكندي الفيلسوف، والجزء الأول من «القانون» لابن سينا، وكتاب «المخصص» لابن سيده، و«نهاية الأرب» للنويري، نجد أن عدد المواد المعطرة - أي التى هى عطور بحد ذاتها - لا تتجاوز خمسة وعشرين عطرا، أما العطور المركبة فعددها بحدود المئتين.

وقد خلف سكان وادي الرافدين كثيرا من الخبرات الكيميائية الدقيقة في صناعة العطور، ويحدثنا التاريخ عن ازدهار الزراعة في العصر العباسي، وكان العراق كما هو معروف يدعى بأرض السواد، لكثرة مزروعاته وبساتينه، ولم تقف الزراعة عند زراعة الحبوب والفواكه وما شابهها من المزروعات، بل تعدتها إلى زراعة الحدائق وتنمية الزهور، سواء أكان في الحدائق العامة منها أم الخاصة، حيث كانت تزرع على نطاق واسع وتباع حاصلاتها في الأسواق التجارية.

وكانت حصيلة ذلك أن توسعت صناعة استخراج العطور والزيوت العطرية المستخرجة من الورد والزنبق والبنفسج والياسمين وغيرها. وقد اتقنت هذه الصناعة في كثير من المدن العراقية وتعدتها إلى مدن إسلامية عديدة أيضا. وقد اشتهرت بغداد في هذه الصناعة، وحتى تصديرها إلى خارج العراق، واشتهرت مدينة الكوفة في صناعة «دهان الخيري والبنفسج» واشتهرت مقاطعة «جور» في بلاد فارس بعطرها المستخرج من الورد الأحمر المعروف حتى الآن باسم «الورد الجوري» وكان يصدر «ماء الورد الجوري» من جور إلى الصين شرقا وإلى بلاد المغرب غربا[٢].

ومما يذكره «هيرودتوس» في تاريخه، أن بلاد العرب كانت تفوح بالعطور والأطياب، وكانت المصدر الرئيس لانتاج المر والقرفة واللاذن واللبان، واطلق اسم «بلاد الأطياب» على جنوب الجزيرة العربية، وقد اشتهرت قبائل كثيرة بتجارة العطور منها «قبيلة البأي» في حضرموت، التى كانت لها الصدارة بتجارة اللبان والعطور، ومازالت مصدرا مهما في تجارة اللبان والقرفة وغيرها، لكثرة أشجارها العطرية وتنوع أصنافها، وكان المصريون القدماء يستوردون اللبان من جنوب الجزيرة العربية حيث كانوا يحرقونه في هياكلهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم[٣].

وتذكر الكاتبة «سونياها» أن أحسن أنواع البلسان هو المستخرج من الأشجار المعروفة بذلك قرب مكة المكرمة، ومن المطرية قرب بابليون في مصر. ومما تذكره أن الجانب الأكبر من دهن البلسان كان يستورد من جزيرة العرب، وكان الإغريق - حسب قول برثولوميوس يسمون جزءا من الجزيرة العربية Eudaimon ويسميها الرومان Felix أي السعيدة[٤].

وكان العرب في الأندلس يمجدون الحياة الطبيعية والحب والغناء والورد و«غيمة المطر» في شعرهم ونثرهم ويبدعون في استخدام العطور، حيث يرشون في بيوتهم وقصورهم عطورا تختلف باختلاف ساعات النهار، فهناك عطر للصباح وعطر لما بعد الظهيرة، وعطر ثالث للمساء والسهرة ولم يكن هذا ترفا بقدر ما كان أناقة في الذوق واحتفالا بجماليات الحياة، وتهذيبا للعقل من خلال تهذيب حاسة الشم، في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس. ومن المعروف أن أنواعا من النباتات البرية لا يفوح عطرها بقوة إلا بعد تغير الطقس، في المساء أو الصباح أو الانتقال من درجة إلى أخرى من الحرارة أو البرودة، وربما نجد شاهدا قديما من الشعر العربي يشير إلى هذه الحالة، ويدعو إلى التمتع بالحياة نفسها قبل فوات الأوان:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

ويقول أبو الطيب المتنبي :

قلق المليحة وهي مسك هتكها
ومسيرها في الليل وهي ذكاء

وفي مثل هذا المعنى قال البحتري :

وحاولن كتمان الترحل في الدجى

فنم بهن المسك لما تضوعا

وقال ابن الرومى (في الوصف) :

لها ريق تشف له الثنايا

وتروي عنه لا منه الظماء

وأنفاس كأنفاس الخزامي

قبيل الصبح جلتها السماء

تنفس نشرها سحرا فجاءت

به سحرية المسرى رخاء

ويشير الباحث «بندر عبد الحميد»[٥] إلى أنه كانت للزهور رموزها لدى الشعوب المختلفة ولكنها عموما تتفق على أن النرجس رمز الأنانية، والبنفسج رمز التواضع، والزنبق رمز الطهارة، وشقائق النعمان البرية رمز الجمال سريع الزوال، والكاميليا رمز الجمال الحزين، وزهر الرمان (الجلنار) رمز الحب الصافي.

وأكثر هذه الزهور برموزها وأنواعها ترتبط بالعطر، كما ترتبط بالفن والحياة، بدرجات متفاوتة، حيث يمكن أن يوحى أحدها بعطر الحبيب، أو عطر الحياة كلها، ويزدحم الشعر العربي، منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الأندلسى بالصور الحسية النامية في حاستى الشم واللمس، تحديدا، وفي هذا التوجه جمع الشاعر «السري الرفاء» كتابه النادر «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» بينما ظل كتاب «الأغانى» للأصفهانى موسوعة حرة للحب والحكمة والشعر والغناء والحكايات النادرة، وهى مثال حى على مدى الحرية في القول والفعل لدى العرب قبل انتشار نزعات التعصب والتزمت، وظل لدهن العود العربي مكانته الخاصة بين العطور.

واقتبس الأوربيون أنواعا من العطور الشرقية في أيام الحروب الصليبية ونقلت السفن العطور والمجوهرات الشرقية إلى أوربا منذ القرن السادس عشر إلى جانب التوابل، وكانت تجارة العطور والمجوهرات هي المفضلة لدى كبار التجار، لأنها بضاعة خفيفة الوزن غالية الثمن ووصلت بعض أنواع العطور من الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى ثم إلى أوربا من نهايات طريق الحرير، الذى كان يأخذ اسما آخر هو طريق البخور.

الطيب في القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث العربي :

وردت في القرآن الكريم خمسون آية، جاءت فيها مادة (طيب) بمعانيها ومجازاتها المختلفة مثل:

«طيبات»: {وصَوَّرَكُم فأحسنَ صُوَرَكُم ورزقكم من الطيبات} (غافر آية/٦٤)، {قل من حَرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق} (الأعراف آية/ ٣٢).

«الطيبون»: {والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات} (النور آية/٢٦).

«طوبى» : {الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحُسن مئاب} (الرعد آية/٢٩)·

وكذلك الأحاديث الشريفة: مثل المؤمن كمثل النخلة، أكلت طيبا ووصفت طيبا» (رواه ابن حنبل)، و«أطيب ريحا رائحة المسك»، «وأطيب من ريح المسك» (رواه ابن حنبل)· وحديث: أن النبى (صلى الله عليه وسلم} كان لا يرد الطيب (رواه البخاري)·

وحديث «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود» (رواه ابن حنبل)· وحديث استأذن عمار على النبى {صلى الله عليه وسلم} فقال: إأذنوا له مرحبا بالطيب المطيب» (عن على بن أبى طالب، رواه الترمذي) - وعن عائشة زوج النبي - {صلى الله عليه وسلم} أنها قالت: «كنت أطيب رسول الله {صلى الله عليه وسلم} لاحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت» (الموطأ/ ٢٧٤)·

وكان النبى يحث أهل بيته على الإكثار من الطيب واستعماله، حتى أمر أن يجعل في جهاز ابنته فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - عند زواجها من على بن أبى طالب - رضى الله عنه - في ثيابها، ويصرف من مهرها عليه الثلثان، فقال {صلى الله عليه وسلم} «اجعلوا ثلثين من الطيب وثلثا من الثياب»[٦]·



وعن الخليفة عمر - رضى الله عنه - قال: «لو كنت تاجرا ما اخترت على الطيب، إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه»[٧]، وقد وجه الخليفة عمر بن الخطاب الى ملك الروم بريدا، فاشترت امرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب - رضى الله عنه - طيبا بدينار، وجعلته في قارورتين، وأهدته إلى امرأة ملك الروم، فرجع البريد بملء القارورتين من الجواهر، فدخل عليها عمر وقد صبته في حجرها، فقال: من أين لك هذا؟ فأخبرته، فقبض عليه وقال: هذا للمسلمين، فقالت: كيف وهو عوض من هديتى، قال: بينى وبينك أبوك، فقال على: لك منه دينارك والباقى للمسلمين، لأن بريدالمسلمين حمله»[٨]·

وفيما قبل الإسلام كان التطيب عندهم من دلائل الغنى والنبل والترف، وهو علامة من علائم الفرح، وعدم استعماله دليل الحزن· وكان الطيب يقدم للمعابد والأصنام في أيام الأعياد والمناسبات الدينية· ولهم في الطيب أمثال كثيرة، منها: ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يُدْرى من هم: رجل رأيته راكبا، أو سمعته يُعرب كلامه، أو شممت منه طيبا»[٩]·

وقد اشتهرت الطائف بجانب حاصلات الفواكه والزيتون والعسل، بورودها وعطرها الذى كان يمد أهل مكة بما يحتاجون من الطيب· وتعد

مهنة بيع العطور من المهن المحترمة عند العرب، ويقال إن أبا طالب عم النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان يبيع العطور وكان تاجرا من تجارها. وأسهمت نساء مكة في صدر الإسلام في هذه التجارة أيضا، فكانت أسماء بنت مخربة أم أبى جهل تتاجر بالعطور والطيب، وكانت هند زوجة أبى سفيان تتاجر مع «كلب» النازلين من بلاد الشام.

ومن النساء المعروفات في بيع العطور هى «منشم» التى كانت مضرب الأمثال في الشؤم، وقال فيها زهير بن أبى سلمى :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ومن النساء الجاهليات من كن يضمخن أجسادهن بالعطور، حتى أنهن كن ينشرن الطيب في الفراش. وقد فخر الكوفيون على البصريين بخصب الكوفة وحسن موقعها، فهم يقولون: «الكوفة سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهى مرئية مربعة، برية بحرية، إذا أتتنا الشمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب، جاءتنا بريح السواد وورده وياسمينه وخيريه، وأترجه، ماؤنا عذب، ومحتشنا خصب».

وكانت بغداد مركزا لاستخلاص العطور من النباتات، وكانت المركز التجاري لها، وكان «سوق العطارين» مشهورا فيها، ويقع فيما يلى «باب الغربة» من دار الخلافة العباسية، بالمشرعة النازلة إلى شاطىء دجلة. وكان للعطارين أسلوب خاص في حفظ العطور والطيب كل حسب نوعه وجنسه، وقد كانت صناعة القنانى وزجاجات الزينة والبلور وما شابهها من الأدوات الزجاجية معروفة في بغداد وفي كثير من المدن الإسلامية، وقد تفنن صناع الزجاج في هذه الصنعة التى تحتاج إلى المهارة في العمل وإلى الدقة في الفن، وهذه الأباريق تزخرف عادة بألوان خلابة أو صور جميلة، ويرش منها ماء الورد على الضيوف، ولا تزال هذه العادة متبعة في الدواوين والمحافل في كثير من أرجاء البلاد العربية ومنها العراق.

وقد حفظت العطور الغالية الثمن بزجاجات رقيقة، تزين سطوحها نقوش جميلة وصور لحيوانات نادرة ومحببة، كالطيور المغردة، والصقور، والأسود والغزلان وغيرها، وقد تنقش عليها أبيات من الشعر الغنائى الرقيق أو الأمثال والحكايات القصيرة الممتعة[١٠].

وفي المناسبات العربية القديمة كانت الدنانير تجعل في

جامات فضة، والدراهم في جامات ذهب، ونوافج المسك وجماجم العنبر الغالية في بواطى زجاج، ويفرق ذلك على الناس وتخلع عليهم خلع الوشى المنسوجة ، وقد توقد شموع العنبر في أتوار من الذهب.

أنماط من العطور النباتية العربية :

ومن أهم النباتات المعروفة بأرض العرب منذ عصور موغلة في القدم، نبات الآس، دائم الخضرة، طيب الرائحة، وقد تردد ذكر الآس في النصوص المسمارية والجداول النباتية منذ الألف الثالث ق.م. وذكرت له استعمالات طبية عديدة، واستخرج منه العطر الذي أطلق عليه اسم «زيت الآس» وكان اليونانيون والرومان يقطعون الآس، ويستعملونه للزينة في الولائم الكبيرة والأعياد والأفراح، فهو عندهم رمز الحب والمودة.

وقد وجدت بعض أوراق الآس وأزهارها محفوظة في توابيت المصريين، مما يدل على قدمه بأرض مصر، وورد ذكره في كل كتب المفردات الطبية، فذكره «ديسقوريدس» و«بلينى» ودرسه الأطباء والعشابون أمثال ابن سينا وابن البيطار والأنطاكى وغيرهم، وقد أسهبوا في تعداد فوائده الطبية واستعمالاته.

ومما قاله ابن سينا : ورق الآس يطيب رائحة البدن، وبزره يتمضمض به يقتل الدود المتولد في الأسنان (التسوس).

والآس أنواع كثيرة ، فصيلة الآسيات من ذوات الفلقتين Myrtacees Myrataceae والنوع الشائع منه هو Myrtus Connunis ويسمى آس شامى، والإنجليزية Myrtle.

وعطر الآس أو ماء الآس معروف قديما، عرفه العرب معرفة جيدة، وذكر تحضيره في أغلب الكتب، بالطريقة التى استخدمها صاحب كتاب «كيمياء العطر والتصعيدات»[١١]، (صنعة ماء الآس) فقال: «تؤخذ الأوراق والأطراف الغضة والازهار، وتدق قليلا، وتغلى الماء فترة من الزمن، ثم تجري عليها عمليات التقطير بالبخار (أي التصعيد بالرطوبة) فتحصل على ماء الآس (أي دهن الآس ممزوجا بالماء)، وإذا أريد الحصول على الدهن النقى، يرشح من المزيج، أو تجري عليه العمليات الكيميائية المألوفة.

ويطلق الفرنسيون على «دهن الآس» المصطلح (ماء الملائكة) وهو يستعمل منذ قديم الزمان لتبخير البيوت والصالات لتعطير الهواء، ودهن الآس ـ بوصفه عطر ـ قليل الاستعمال، ولكنه يدخل في تحضير بعض أنواع العطور المركبة[١٢].

الخزامى :

ورد في لسان العرب، باب (خزم): الخزامى نبت طيب الريح، واحدته خزاماه. وقال أبو حنيفة: الخزامى عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهرة، طيبة الريح، لها نور كنور البنفسج، وقد أجمعت المعجمات اللغوية وكتب المفردات

الطبية على أن الخزامى هو الذى يقال له «خيري البر» لأنه أذكر نبات البادية، وزهره أطيب الأزهار يتمثل به في الطيب. وهو جنس نبات من الفصيلة الشوفية، وهو أنواع وجميعها عطرة من أجل الأفاويه، وهى برية، وتزرع للرائحة والزينة.

ويستخرج «عطر الخزامى» من عشبة الخزامى بطريقة التقطير بالبخار (التصعيد بالرطوبة)[١٣]، ويسمى «دهن الخزامى» و«ماء الخزامى» إذا كان الدهن ممزوجا بالماء، على غرار ماء الورد.

إن الخزامى الواردة في الكتب العربية القديمة هى العشبة التى تسمى (خيري البر) واسمها العلمى Lavendula ، وهذا الاسم يدل على جنس نبات الخزامى، ويضم أصنافا كثيرة، وذكرت في أكثر المفردات الطبية القديمة والحديثة.

وتزرع عشبة الخزامى في الهضاب المرتفعة في فرنسا وإسبانيا وانجلترا والنرويج، والخزامى التى تزرع في المناطق الباردة تنتج وردا أقل جودة من ورد الخزامى التى تزرع في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، والخزامى الطبية تستعمل في الصيدلة لتعطير بعض الأدوية ذوات الروائح غير المقبولة.

وفي الطب تستعمل منعشا ومنبها خفيفا Mild Stimulant .. إن عطر الخزامى من العطور الجيدة، ويكثر استعماله عند الشعوب كافة، وهو من العطور المحببة جدا عند الإنجليز، ويدخل الخزامى في تحضير أنواع مختلفة من العطور المركبة، وهو مادة أولية أساسية في تحضير العطر الشائع الاستعمال في كل العالم، وهو «الكلونيا ـ ماء كولون Eau de Cologne ، وكذلك يدخل الخزامى في صناعة مواد التجميل والرذاذات (بودرة) وصناعة الصابون الجيد وغيرها.

وهناك نباتات عطرية أخرى كثيرة مثل الزعفران، والكافور، تدخل في تركيب كثير من المواد الطبية والعطرية، قديما وحديثا، وتدخل في تعطير منتوجات صناعية كثيرة، ولا سيما صناعة الشموع مثل شموع الكافور المعطرة بالكافور نفسه، على شاكلة شموع العنبر المصنوعة من شحم حوت العنبر.

كما أن استعمال الكافور في التحنيط عادة جيدة، لسببين أساسيين :

أولهما : أن الكافور مادة معقمة، وقاتل للجراثيم والمكروبات في الجثث المتفسخة.

وثانيهما: أن الكافور يتسامى بسرعة، ورائحته القوية تغطى على الروائح التى قد تحدث من جراء التفسخات التى تطرأ على الجثث عند تأخير دفنها، ولا سيما في الفصول الحارة من السنة.

وقد ورد ذكر الكافور في القرآن الكريم في آية واحدة {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا} (الدهر آية/٥). ومما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة «إن العرب كانوا يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حينا والزنجبيل حينا زيادة في التلذذ بها. وقيل إن شراب أبرار الجنة ممزوج بالكافور، وقد يمزج بالكافور ويختم بالمسك، وقيل

مـــعناها طيب بالكافـــور والمسك والزنجبيل».

وفي العصر الحديث تدخل في صناعة العطور الحديثة نحو مـائة من المواد الطبـيـعـيـة والصناعـيـة، ويخـتلف كل عطر باختلاف أنواع المواد المستخدمة فيه ومعاييرها، ومن تلك المواد الزيوت العطرية المستخرجة من غدد الأحياء البحرية والبرية، ومن صمغ بعض الأشجار وخلاصة الأوراق والزهور، في أنواع مـخـتلفـة من النبـاتات ، ومن أهم تلك المواد زيت العنبر المستخرج من غدة خلف زعانف حـوت العنبـر، الذى كـان على مـدى قـرون هدفـا للصيادين، كما قدمته لنا أهم رواية ملحمية في القرن التـاسع عـشـر «مـونى ديك» التى كـتـبـهـا «هيرمـان ملفيل»، وهى تشكل موسـوعة علمية عن عالم الحيتـان، وأسـرار البحر، إلى جانب قيمتها الإبداعية والأدبية.

ويمكن أن نقتبس منها المقطعين التاليين [١٤]:

- «... وأمـا العنبر الرمادي فإنه ناعم شمعى ذو رائحة نفاذة شذى طيب حتى إنه يستعمل على الأكثر في العطور وكرات البخور والشموع الثمينة والمساحيق والأدهنة المستعملة للشعر، ويستعمله الأتراك في الطبخ ويأخذونه معهم من أجل البخور في مكة المكرمة».

- «... إن شطيـرتى ذنب حـوت العنبـر حين تنتـصبن فـوق الماء ترسـلان رائحـة كالتى تنبعث من سيدة مضمخة بالمسك تجر أذيالها في بهو، فـإذا تمثلت ضـخـامـة الحـوت فـبأي شـيء أشبـهـه من حـيث شـذاه العطر؟ ألا أشـبـهـه بذلك الفـيل الشــهــيــر، ذي النـابين المجـوهرين المضـــمخ بعطر المُر، الذي خـرج به الهنود من إحدى مدنهم ليستقبلوا به الإسكندر الكبير مرحبين؟».

وفي الوقت الراهن أعـــاد البـــحث العلمى الاهتمام بالزهور والنباتات الطبية، ليس من أجل عطرها ولكن باعـتـبـارها مـادة غـذائيـة تصلح لاستخدامها في المطبخ في إعداد وجبات صحية لجميع افراد الأسرة، ويؤكد الدكتور مصطفى نوفل استـاذ علوم الأغذية بجـامـعـة الأزهر أن الرائحـة الجميلة للزهور بها مكونات «فايتو» واقية للجسم من البكتـريا ومطهـرة للأمـعـاء وطاردة للغـازات، وتناول الزهور كـان يتم في مـصـر منذ زمن بعـيـد على صـورة مـربى الورد الأحـمـر البلدى وشـراب الورد بالإضـافـة إلى ماء الورد وماء زهر البرتقال، التى تتم إضـافـتـهـا لماء الشـرب للوقـاية من اضطرابات الجـهـاز الهـضـمى، خـاصـة مع زيادة مـصـادر تلوث البيئة، كمـا يتم اسـتـخـدامـهـا في تحضيـر أنواع كثيرة من الحلوى، وفي أوربا تنتج حـاليـا منتجـات غـذائيـة من الزهور مـثل الشـاى

بالياسمين وعسل الزهور ومايونيز الزهور وآيس كريم الزهور، بالإضافة إلى خل الزهور وحلوى مكسرات الورد وخلطة الأعشاب والتوابل بالزهور.

المرأة وصناعة العطر :

ومن الطريف أن عمليات استخلاص العطور والزيوت وصنع الأطياب والبخور كانت تناط بالمرأة، إذ قالوا إنها أكثر قدرة وإلماما بأمور المطبخ، لذا كانت عمليات الاستخلاص والطبخ من اختصاص المرأة، وقد اشتهرت نساء كثيرات في هذه الصنعة أمثال «تابوتى Tapputi السومرية، و«ثيوسيبيا ATheosebia» أخت زوسيموس في عصر مدرسة الإسكندرية، وكليوباترة الكيميائية و«ماريا الموسوية» وكانت لهن براعة فائقة في تعيين أنواع العطر وجودته، واستعمال الميزان لضبط مقادير المواد الأولية وكمية العطر المنتج منها.

وقد اكتشفت في «تبة كوري» قرب السليمانية بالعراق - بحسب الباحث الدكتور جابر الشكري - [١٥] أجهزة كيميائية كثيرة العدد، منها القدور، وقناني لحفظ العطور، وأجهزة للترشيح والتصفية، وخلاطات، وكان الميزان والعيارات مهمة عندهم لضبط المقادير المنتجة أو المواد المبيعة. وهناك وثائق كثيرة يشار فيها إلى العطور والأطياب في بلدان وادي الرافدين أو في بلدان مصر أو غيرها من البلدان الواقعة في الهلال الخصيب، وإلى كثرة وجودة الأطياب في جنوب الجزيرة العربية.

وفي العصر الحديث تأخذ بعض العطور أسماء ممثلين مثل النجوم، بينما قام «سلفادور دالى» الفنان السريالى المعاصر بتصميم زجاجات العطور التى تجد من يحتفظ بها كنماذج فنية، وكتب أحد صانعي العطور إنه ورث من أسلافه كنزا ثمينا من زجاجات العطور القديمة الفارغة.

ويقول «بندر عبد الحميد» [١٦]:

«النساء البدويات كن على مدى السنين يسحقن حبات المحلب وأعواد القرنفل بأسنانهن ثم يفركن وجوههن وصدورهن بخلاصة هذا المسحوق، بينما يعطر البدو قهوتهم المرة بأوراق الغار، وينفرد الغجر، رجالا ونساء معا، باستخدام عطر فريد ورخيص، يدعى «ريف دور» أو الحلم الذهبي، وهو عطر قوي تزداد حدته حينما يختلط بعرق الأجساد النحيلة المعفرة بغبار الدروب الطويلة في حركتها التى لا تهدأ.

وتهاجر العطور كما تهاجر أنواع من النباتات والطيور، بين القارات، وأشهر أنواع الزهور المهاجرة هي «الفانيلا» أو زهرة الأوركيد، التى تحمل اسما آخر لدى السكان الأصليين في تاهيتى هو «الوعاء الأسود» وأول من أعطاها هذا الاسم هو إمبراطور الأزيتك «مونتيزوما» الذي أمر بإضافتها إلى الشوكولاته لتقديمها إلى الفاتح الإسبانى كورتيز، في أطباق من الذهب، وكان انتشار هذه الزهرة في أوربا والعالم سريعا، وهى تدخل إلى المطابخ والمطاعم أكثر مما تدخل إلى محلات بيع الزهور.

وكانت المعارض التجارية العالمية التى بدأت في المدن الكبرى في أوربا والولايات المتحدة منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وزاد انتشارها في بدايات القرن العشرين تعرض أنماط الحياة الشرقية في الملابس وأدوات الزينة والعطور والمراهم والأكحال، وأصبحت أنواع العطور تأخذ اسماء شرقية مألوفة مثل شهرزاد وأبو الهول وعلاء الدين الى جانب «كحل إدريس» يقول مثل قديم «إن لدى الإنسان أذنا جيدة وعليه أن يطور لنفسه أنفا بسبب كثرة أنواع العطور، وتلوث البيئة بالنفايات الصناعية، وأهمها مشتقات النفط، ومع ذلك يمكن أن تجد من يقول لك: إن تلك المرأة التى عبرت في سيارة مسرعة في الشارع القريب، كانت مزودة بعطر «كوكوشانيل» ■

المصادر والهوامش :

(١) د. على عبد الله الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، ص ٢٦، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥م.

(٢) طه الباقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٥٦٨ - ٥٧١ دار البيان، بغداد عام ١٩٧١م وانظر أيضا د. محمود فياض، ود. جواد البدري: الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، دار الرشيد للنشر، بغداد عام ١٩٨٠م.

(٣) M.Levey: Chemistry and chemical Technologie in Ancient Mesopotamia (cp. 132) Elsevier - 1959.

وانظر د. جابر الشكري: الطيب والعطور في التراث العلمى العربي، مجلة المورد عدد ٤ ج ١٤ ، بغداد عام ١٩٧١م.

(٤) سونيا، هاو: في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت ص ١٦، مكتبة النهضة، القاهرة عام ١٩٥٧م.

(٥) بندر عبد الحميد: إعادة الاعتبار للحاسة المنسية، مجلة العربي العدد ٥٥٤، الكويت، يناير عام ٢٠٠٥م.

(٦) زكية العمر: التزويق والحلى عند المرأة في العصر العباسي، ص ٧٣، بغداد عام ١٩٧٦م.

(٧) محمد عبد اللطيف بن الخطيب: المستطرف في كل شيء مستظرف، ص ١٥٩، القاهرة عام ١٩٦٠م.

(٨) الزمخشري: ربيع الأبرار، تحقيق د. سليم النعيمي، ص ٢٨٧ بغداد عام ١٩٨٢م.

(٩) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ص ٦١٠ بيروت عام ١٩٦٧م وانظر جابر الشكري: الطيب والعطور في التراث العلمى العربي المورد ص ٥٣ ج١٤.

(١٠) ميخائيل عواد: صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسى، بغداد عام ١٩٨٢م.

(١١) كتاب كيمياء العطر والتصعيدات المنسوب للكندي، مجلة المجمع العلمى العراقى ج١ بغداد عام ١٩٨٥م.

(١٢) جابر الشكري: الطيب والعطور السابق.

(١٣) تستخلص الزيوت الطيارة والعطور وما شابهها من المواد الطبيعية من مصادرها النباتية بطرق مختلفة بحسب نوع الزيوت وخواصها الكيميائية والفيزيائية، وأبسط صورة للاستخلاص Extraction تتم بواسطة التقطير بالبخار «وقال الصناع العرب - التقطير بالرطوبة» Steam distillation . ولقد عرف البابليون قبل العرب هذه الطرق واستخدموها في تحضير مواد كثيرة، ولا سيما تحضير «ماء الورد» ولا تزال الطرق القديمة متبعة في كثير من المدن والبساتين العراقية، كما في بساتين كربلاء، وإذا أريد الحصول على الزيت النقى الخالص يفصل من الماء إما بالتصعيد وإما بالطرق الكيميائية المألوفة.

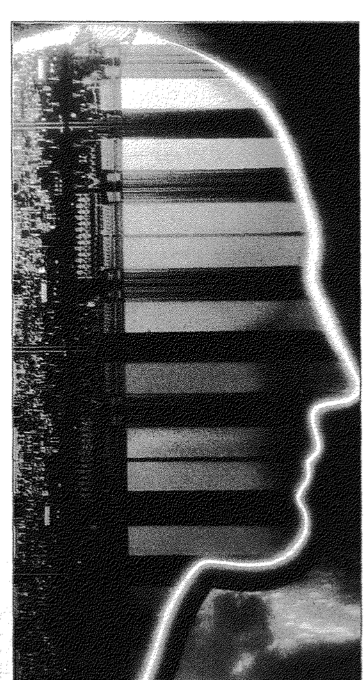
(١٤) ترجمة د. إحسان عباس.

(١٥) د. جابر الشكري: الطيب والعطور، السابق.

(١٦) بندر عبد الحميد: إعادة الاعتبار للحاسة المنسية، مجلة العربي السابق.



تذكير من تبختر بمقياس ريختر!!



حدثنا ابن خاتمة[١] قال :
قلتُ يوماً لتلاميذي مسرياً عنهم بعد درس شائك في الطب : ما بلغ أحدٌ من إكرام زوجه، والإحسان إلى أهله، والتعلق بحليلته، ما بلغ القاضي شُريح[٢]، فقد كان ينشد بفخر:

رأيت أناساً يضربون نساءهم
فشلّت يميني يوم أضربُ زينبا
فزينب شمسٌ والنساء كواكبٌ
إذا طلعتْ لم تُبق منهنّ كوكبا![٣]

فرفع أحد الطلبة يده وقال: أستاذي الطبيب النَّطاسيّ، إن بين ظهرانينا من فاق شريحاً القاضي في حب زوجه والهيام بها، وتراه من فرط شغفه بها يُقبِّل ذا الجدار وذا الجدار، ولا يعدلُ بها درّاً ولا ذهباً!.

قلت : سبحان الله، بين ظهرانينا ولا ندري به؟! إن هذا لجفاء وقطيعة رحم، ويح نفسي أدَّعي الأدب، ولا أعرف أهله، كأني والله طبيبٌ يداوي الناس وهو عليل! فمن يكون هذا المتيّم يا بُني؟.

قال: إنه العلامة الأديب ابن جبير جارنا في

غرناطة[٤]، فقد توفيت زوجه منذ أيام، فتغيرت أحواله، وتلبدت سماؤه بسحب الهموم والأكدار، وهاجته الأمكنة المسكونة بذكرياتها، فانتوى الهجرة، وأعد العدّة:

ولربَّ نازلة يضيقُ بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرجُ!

قال ابن خاتمة:

فلما سمعت مقالة تلميذي، قصدتُ ابن جبير فوجدته واجماً شاحباً، ولكنه كان بقضاء الله راضياً، فقلت له: أعظم الله أجرك، وأخلفك خيراً من أهلك، فلتصبر ولتحتسب، فالتفت إليَّ بعد طول إطراق وإغراق، وقال: يا بن خاتمة، والله ما طاب عيشي مذ فارقتني أمّ المجد، ولقد كانت لي الكهف الأمين، والكنز الثمين:

إذا جنَّ ليلٌ هام قلبي بذكرها
أنوحُ كما ناح الحمام المطوّقُ
وفوقي سحابٌ يمطرُ الهمّ والأسى
وتحتي بحارٌ بالجوى تتدفقُ![٥]

وإني عازم على الرحيل، فما عدتُ أطيق المنازل بعد هذه النوازل، وكأني والله خارج من بين أنقاض زلزال مدمر بقوة سبع درجات على مقياس ريختر! فإن رأيت أن نصطحب في السفر فعلى الرحب والسعة.

قلت : حبا وكرامة (وأضمرت في نفسي أن أسأله عما يعني بريختر إذا انطلقنا) وسألته: هل نيمم شطر الشرق مهبط الرسالة وموئل البسالة، ونستنشق عبقه، وننعمُ بسحره وظلاله؟.



د. أحمد عطية السعودي

الأردن

قال : رحمة الله وبركاته عليكم آل خاتمة، أين أنتم من الدنيا؟! لقد تغيّر التاريخ والجغرافيا، وأصبح الشرق الموحد شرقاً أوسط، فولغ فيه الأوباش، واتخذوه مختبراً لتخصيب أفكارهم، وملعباً لركل كراتهم، ومسرحاً لعرض نفاياتهم، وبشروا أهله بعسل الحرية، وسمن الديموقراطية، وسموه الشرق الكبير، وما عسى أن أقول، وكلّنا في الهمّ شرق!

قلت : فلم لا نهاجر الى بغداد دار السلام، ومرتع الفوارس العظام، فإنها الكوكب الدري الذى شع النور والحضارة، والقلم النوراني الذى أخرج الخواجات من بحر الظلمات الى دنيا المعارف والعلوم، وارتياد الفضاء، ومطاولة النجوم!.

قال : ذاك هو العهد ببغداد، سقياً لأيامها سقياً! ولكن ماذا أحدث عن بغداد يا بن خاتمة بعد الزلزال الذى دمرها بفعل التتار وأصحاب الدولار، وما أدراك ما أصحاب الدولار؟! أولئك الذين تجبروا في الأرض بغير الحق، وجاءوا بإفك العولمة، وفاخروا بحرب النجوم، وقالوا من أشد منا قوة. ماذا أحدِّث عن بغداد؟

ما للمنازل أصبحتْ لا أهلها
أهلي ولا جيرانها جيراني
ولقد قصدتُ الدار بعد رحيلكم
ووقفتُ فيها وقفة الحيران
ما لي أنيسٌ بعدكم غير البلى
والنوح والحسرات والأحزان[٦]

قلت : لا تحزن يا شيخي، فإن الله الذي أهلك أصحاب الفيل بالطير الأبابيل، وأهلك التتار بالسيف البتار قادر على أن يهلك أصحاب الدولار بالداء العضال، ويجعلهم كعصف مأكول، وما ذلك على الله بعزيز.

قال ابن خاتمة : ثم انطلقنا قاصدين بيت الله الحرام، الملاذ الآمن، والبقعة المباركة، فقلت في الطريق: يا أبا المجد، أسمعك تكثر من ذكر الزلازل، وتذكر ريختر، فما تعني بذلك؟

قال : اعلم يا بن خاتمة أن الأرض تتعرض لنحو مائة ألف هزة كل عام، ولكن الناس لا يشعرون بجُلّها، وأن العالم يحبس أنفاسه فَرَقاً من حدوث زلزال هائل كالذي هز اليابان، فدمر طوكيو ويوكوهاما، وقتل ربع مليون إنسان، وحرق منهم أربعين ألفاً[٧].

وقد تعلمنا من أساتذتنا أن الأرض تأتلف من قشرة ووشاح ولُبّ وأنها في حركة دائبة، وأن جوفها ملتهب شديد الحرارة، وذلك يؤدي الى انهيار الكهوف الجوفية العظمى، ونشوء تصدعات كبرى، وتولد حركات عنيفة، فإذا أذن الله تعالى للأرض أن تزفر وتزمجر تمخضت عن زلازل مدمرة، وبراكين صاعقة ابتلاء للمؤمنين، وعقاباً للمتكبرين المتبخترين وجزاء وفاقاً.

قلت : حقاً لا تقع الزلازل إلا بإذن الله الذي له الخلق والأمر، فما تكون حركة أو سكنة من الذرة إلى المجرة إلا بعلمه وتصريفه: {وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمُها إلا هو ويعلمُ ما في البرّ والبحر وما تسقطُ من ورقة إلا يعلمُها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}[٨]، ثم خطر ببالي سؤال، فقلت: يا أبا المجد، وهل انتهى علم البشر الى قياس الزلازل، ودرء أخطارها؟

قال : إنهم يحاولون التنبؤ بها قبل حدوثها، ولكنها تذهلهم كل مرة، وقد صمموا آلات لقياسها، وصمم ريختر[٩] جهازاً لقياس شدتها، وقسمه الى اثنتى عشرة درجة، فإذا بلغ الزلزال خمس درجات كانت هزته متوسطة، أي ما يعادل انفجار عشرة آلاف طن من مادة (ت٠ن٠ت)، وإذا بلغ سبع درجات كان زلزالا مدمراً، أما الدرجة الثانية عشرة فهي درجة التدمير الهائل، والخسف الماحق! والعجب أن منزل ريختر أبي المقياس الحسّاس لم يسلم من دك الزلازل! وما زلازل اليابان و«بمْ» في إيران، وما براكين «فيزوف» و«كيلاوا»[١٠] المقذوف من الطغاة ببعيدة.

قلت : أهذا هو ريختر الذي يذكر في المحافل كلما ضربت الزلازل؟! نعوذ بالله من الزلازل والمحن ما ظهر منها وما بطن.

قال : قد حدثتك عما بطن في جوف الأرض، وأما ما ظهر على أديمها فأشدُّ فتكاً، وأفدح خطباً، إنها زلازل الأوجاع المهلكة التي تعصف بمجتمعات الانحلال كالإيدز والسرطان وأنفلونزا الطيور السارز، وزلازل العيش النكد، والرعب الجاثم، والفرقة والتناحر: {ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقُها رغداً من كلّ مكان فكفرتْ بأنعُم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}[١١].

قلت : إنا نقرأ في القرآن عن زلازل تصيب المؤمنين، فكيف نفرق بين هذه وتلك؟

قال: إن الله سبحانه خلق الموت والحياة ليبلو الناس، ويمحص قلوبهم، ولا يكون ذلك إلا بزلزلة القلوب حتى تبلغ الحناجر، فأما الذين يثبتون ويصدقون فلهم التمكين في الأرض والعزة والسيادة،

ومثل هؤلاء أصحاب النبي {صلى الله عليه وسلم} في موقعة الخندق {هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً}[١٢]، وأما الذين يسقطون ويتخاذلون ويُطبِّعون مع العدو فيطبع الله على قلوبهم، ويجعلهم يتمسحون بأحذية اللئام والأمم المتحدة، ويأتيهم العذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم: {قل هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يُلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرّفُ الآيات لعلهم يفقهون}[١٣].

قلت : كأنما البشرية على شفا جرف هار، أو فوق بئر بارود يكاد ينفجر، فهل البشر مقبلون على كوارث مفجعة وزلازل مرعبة في المستقبل المنتظر؟.

قال : ويل للبشر من أمر عظيم مستتر، إنهم سيواجهون الزلزلة الكبرى التى لا تبقي ولا تذر زلزلة الساعة {إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهلُ كلُّ مرضعة عمّا أرضعتْ وتضعُ كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد}[١٤].

قال ابن خاتمة: فنظرت إلى وجه شيخي فرأيته قد تغير وامتقع، وصارت أطرافه ترتجف من هول ما قد يقع، واستشعر رهبة الموت ورقدة القبر وفراق زوجه أم المجد وهوان أمة العز والمحتد. وأما أنا فأخذتني هزة ورعدة وحسرة، وأنا أتأمل حال المتكبرين المتجبرين الذين يسومون الأمة الخسف، ويسقونها كأس الحنظل، وتذكّرتُ ما فعل الله بقارون إذ خسف به وبداره الأرض، ووقع في نفسي أن أضع رسالة تحذير وتبصير إذا رجعت الى غرناطة، وأجعل عنوانها:

تذكير من تبختر بمقياس ريختر!! ■

الهوامش :

(١) ابن خاتمة: أبو جعفر أحمد بن علي الأندلسي، طبيب مؤرخ من الأدباء البلغاء، ترجم له ابن الخطيب وابن الجزري (ت ٧٧٠هـ).

(٢) القاضي شريح: أبو أمية شريح بن الحارث، من أشهر القضاة الفقهاء، كان ثقة في الحديث، له باع في الأدب والشعر، وليَ قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين) (ت ٧٨هـ).

(٣) البيتان للقاضي شريح نفسه.

(٤) ابن جبير: محمد بن أحمد بن سعيد، رحالة أندلسي، ولد في بلنسية، وتتلمذ على أبيه، وعني بالأدب، وبلغ الغاية فيه، وكانت وفاة زوجته أم المجد سبباً في قيامه برحلته الأولى إلى الحج. رحل من غرناطة الى المغرب ومصر والجزيرة والشام والعراق وصقلية فغرناطة، له كتاب الجامع (توفي بالاسكندرية سنة ٦١٤هـ).

(٥) البيتان للشاعر البهاء زهير.

(٦) هذه الأبيات قالها الشاعر شمس الدين الكوفي في وصف تخريب بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله على أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ.

(٧) وقع هذا الزلزال في اليابان سنة ١٩٢٣م.

(٨) الأنعام الآية ٥٩.

(٩) ريختر: هو تشارلز فرنسيس، عالم جيولوجي أمريكي، صمم جهازاً لقياس شدة الزلازل في معهد كاليفورنيا عام ١٩٣٥م.

(١٠) ضرب زلزال مدمر مدينة بم الإيرانية سنة ٢٠٠٣م. أما بركان فيزوف في إيطاليا فثار قديماً واستمر حتى سنة ١٩٤٤م. وثار بركان كيلاوا في هاواي واستمر مدة ١٢ يوماً سنة ١٩٥٥م.

(١١) النحل الآية/ ١١٢.

(١٢) الأحزاب الآية/١١.

(١٣) الأنعام الآية/ ٦٥.

(١٤) الحج الآية/ ١، ٢.

الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

□ ***هذا عالم ومفكر في علم الاجتماع وعلاقته باللغات والعلوم الإنسانية، يُعد من عباقرة العرب في القرن العشرين، وصاحب الفكرة لأقسام علم الاجتماع في الكليات ببعض الجامعات في بلده مصر، وبعض الأكاديميات العربية الأخرى.***

تولى تدريس هذا العلم في آداب القاهرة في الثلاثينيات، فعرّبه بعد أن كانت الإنجليزية والفرنسية هما لغة تدريسه فيها، ثم أنشأ القسم سنة ١٩٤٧م، بعد أن كان هذا العلم تابعاً لقسم الفلسفة.

والدكتور وافي عاصر أعلام هذين العلمين.. الاجتماع والفلسفة، مثل الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، والدكتور زكريا ابراهيم، والدكتور ابراهيم مدكور والدكتور توفيق الطويل والدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور عاطف العراقي وآخرين.

وكانت أعماله في تخصصه أكثر من زملائه أولئك في تخصصاتهم، حيث ألف زهاء الخمسين كتاباً، وبحوثاً ودراسات متخصصة مطولة، محكمة تربو على المائة؛ عدا أعماله الأدبية الأخرى، وله تحقيقات علمية على بعض المؤلفات الاجتماعية والفلسفية في تراثنا الفكري؛ أهمها «مقدمة» ابن خلدون الشهيرة، حيث ألقى عليها دراسة وتحقيقاً، وفهرساً علمياً، وأخرجها في ثلاثة مجلدات، عن النسخة المخطوطة الكاملة للمؤلف؛ بإضافة ثمانين صفحة عن الطبعات المتداولة.

وبذلك كما يقول الدكتور علي وافي: «نتدارك ما حدث في بعض طبعات المقدمة من حذف متعمد لغرض ما ومن حذف تحكمي.. فمن أمثلة الحذف المتعمد أن طبعة بيروت التى نشرت تحت إشراف الكاتب رشيد عطية والمعلم عبد الله البستاني.. وطبعة دار الكتاب اللبناني - أخرى - قد أسقطتا من المقدمة بعض فقرات وجمل وكلمات حمل فيها ابن خلدون على مذاهب النصارى أو وصفها بما لا يتفق مع عقائد الناشرين لهاتين الطبعتين». ص ١٣ ج١ طبعة الدكتور وافي.

وإضافة الدكتور إلى أصل المقدمة، هذه، شملت صفحات لا التى حذفها المذكوران، فقط، بل ثمة

صفحات علمية أخرى مهمة. وكانت دراسته للمقدمة.. مقدمة ابن خلدون دراسة وافية، ولاسمه (وافي) نصيب منها، حيث يشرح عبارات وجملا خلدونية عالية التناول، في الهوامش، هوامش المقدمة ويوضح مصطلحاته المتعددة في العلوم المختلفة، ببيان وإفاضة منقطعة النظير وهذه الشروح والبيانات الوافية لها أهميتها الفكرية واللغوية عدا أهميتها الاجتماعية، والأدبية والفنية.

إذ هي تبين لغة ابن خلدون الفلسفية، هذه اللغة من الوجهة العلمية، لغة عريقة، أصيلة، محكمة السبك ورصينة اللفظ، ومتعددة المرامي من الأهداف التى قصدها ابن خلدون باعتباره منشىء «علم الاجتماع البشري»، في مقدمته هذه مما جعله يسبق أوجست كونت بأكثر من الخمسمائة سنة من الزمان، ذاك الفرنسي المسبوق الذى جعله الكثيرون منشىء العلم، وهذا غير صحيح، بشهادة الآخرين من الغربيين، مثل جوستاف لوبون وزغريد هونكة وآخرين.

ولا ريب أن قيام الدكتور علي عبد الواحد وافى بهذه المهمة العلمية والأدبية، يعد عملا عظيما، وريادة ثقافية، أضفت على «المقدمة» ملامح الحداثة والأصالة والثقافة.

فقد أبانت دراسته - إضافة الى ما سبق - التعريف الوافي بابن خلدون من قبل الدكتور وافي، ترجمة حياة، وعبقرية فكر، وسيرة علمية. أفردها - فيما بعد - في سلسلة «أعلام العرب» المشهورة في كتاب، كما نشرتها دار عالم الكتب بالقاهرة في



فاروق صالح باسلامة

جـــدة

كتاب بعنوان «عبقريات ابن خلدون» سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، وذلك في نشرة نيفت على الثلثمائة صفحة من القطع الكبير.

ومن تحقيقاته العلمية كتاب «المدينة الفاضلة» للفارابي الفيلسوف المشرقى المعروف حيث درسها بمستوى - علمي مرموق - لا يخرج عن مستوى دراسته لمقدمة ابن خلدون، الآنفة الذكر.

إن الدكتور على عبد الواحد وافي، علامة الاجتماع، في تاريخ فكرنا وثقافتنا الحديثة، فقد نظَّر هذا العلم الإنساني بإطار من الأدب واللغة والبحث والدراسة، تنظيراً فلسفياً بأسلوب غاية في السهولة والبساطة وهذا يدل على الصفاء في الفكر، والبيان في اللسان، والانتفاع بالعلم.

وإذ قد عرفنا هذا، فإن ثمة جانباً آخر، يذكر في هذا المجال، ذلك وعيه اللغوي، وفكره فيه، ودراساته لعلم اللغة الإنسانية والاجتماعية. وهي دراسات وبحوث كثيرة، ولكن اجتماعيات اللغة وألسنيتها، هي الغالبة على كتبه في هذا المجال العلمي والجانب الفكري، فالرجل مفكر اجتماعي وليس باللغوي الأديب المتخصص، ولكن كتبه هذه - في اللغة - قد شارفت أعمال اللغويين، دقة في البحث، واستقصاء في المعرفة ومشاركة منه لخدمة اللغة، من جوانبها الفكرية والاجتماعية والنفسية، وخاصة في العصر الحديث.

ومع ذلك فالرجل عالم لغوي فذ، وعارف ألسني جيد، وكتابه - على سبيل المثال - «اللغة والمجتمع» يقدم من خلاله، العوامل الاجتماعية والطبيعية وأثرها على التطور اللغوي للإنسان، وكيفية انتقال اللغة من السلف إلى الخلف، وأثر ذلك على التطور اللغـوي الإنساني أيضاً، كما يدرس في هذا الكتاب تفرع اللغة الى لهجات ولغات، واختلاف النواحي وفنون القول، واختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء.

وهكذا دواليك فالدكتور وافي رحمة الله عليه، يعالج مسائل اللغة وفكرها من الوجهة النظرية لعلم الاجتماع، وصلتها بالفرد والمجتمع الإنساني والشعوب البشرية، وهذه حقيقة جديرة بالذكر، حيث تفضي بنا الى الإشارة بتمكنه الأدبي في ما ألف وصنف، لأنه وقف على كثير من أمهات الكتب ومصادرها التراثية، فقد أخرج لقرائه كتاباً عن «الأدب اليوناني القديم» استحوذت فصوله على بصره بالأدب وعنايته بالمسرح التمثيلي، وحذقه بالشعر ومعرفته بفن الغناء، وأعلام ضروب هذه المعرفة ورجال الثقافة والفكر والأدب، فيها، والشعراء والفلاسفة الذين أثروا في فكر وتراث الإنسانية.

وثمة جانب مشرق في فكر الدكتور علي عبد الواحد وافي، الاجتماعي، وهو تجربته العلمية لمعرفة حقوق الإنسان في الإسلام، وحماية هذا الدين للأنفس والأعراض ففي كتابه «الحرية في الإسلام» وهو من سلسلة «اقرأ» المشهورة، يعطي القارىء تصوراً فكرياً للحرية المدنية في الإسلام والحرية الدينية، وحرية التفكير والتعبير في هذا الدين، وموقف الإسلام من حرية التفكير العلمي، وكيفية تعسف بعض الكتاب في تفسير آيات القرآن الكريم وفق النظريات العلمية الحديثة.

وهكذا يمضي قدماً في بحثه. أما كتابه «حماية الإسلام للأنفس والأعراض» ففيه دراسة عن أحكام الجنايات مثل القتل الخطأ والعمد والإسلام والحرب وإجراءاته. وفيه دراسات أخرى عن حماية الإسلام للأموال والأعراض وحمايته للأنساب، وأهمية هذه الحمايات من الخلفية الدينية والاجتماعية، والذاتية، للفرد والمجتمع. وفي هذا السبيل المعرفي نشر الوافي، كتابه «بحوث في الإسلام والاجتماع» وهي مقالات بحثية متنوعة تنم، إضافة الى تخصصه الاجتماعي في التأليف، عن بصيرته بالثقافة الإسلامية والفكر الديني، ومعرفته الضليعة بالإسلام والشريعة والقرآن. فمن مقال عن هجرة الرسول عليه السلام، إلى بحث عن مصادر التشريع الإسلامي ومكانة السنة منه، الى دراسة عن «الأئمة الأربعة في الفقه الإسلامي ومذاهبهم» ثم مقال «وظيفة الدين في الحياة الاجتماعية» فبحث عن «نداء المخاطبين في القرآن.. أسراره وبلاغته»، فمقالات كثيرة أخرى في مواضيع شتى مثل الصيام، والأشهر الحرم وعاشوراء.. الخ.

وإذا كان ما سبق ذكره عن الإسلام، في الكتاب المشار إليه، فإن للاجتماع قسماً كبيراً فيه، حيث يبحث في هذا الجانب: علم الاجتماع في العالم العربي، بين ابن خلدون وداروين، وتصور ابن خلدون للشعر العربي، دقة ابن خلدون في شؤون العلم والقضاء ومرونته في شؤون السياسة؛ ثلاث صور من اليوتوبيا في العصور القديمة والوسطى والحديثة، وأد البنات عند العرب في الجاهلية، وموقف الإسلام

منه، وغير ذلك من البحوث، لكن ما يجرنا - والحديث هنا في علم الاجتماع الإنساني - استطراداً، معرفة كتابه «المرأة في الإسلام» الذي يحمل في طياته عدة مسائل وقضايا وأفكار! مثل وجوه المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام، وكمال وموازنة هذه المساواة.

فأنت ترى مسألة مهمة تتعلق بالحياة الإنسانية والعلاقات العامة بين الرجل والمرأة، ووجوه التفرقة بينهما، من حيث العمل والزواج والطلاق، التعدد وعوامله ونظامه في التشريع الإسلامي، والمآخذ الموجهة إلى هذا النظام والرد عليها. بل شمل هذا الكتاب عن المرأة نظام التعدد.. تعدد الزوجات في تاريخ الحضارة الإنسانية وفي مختلف الشرائع وشتى الشعوب أيضاً.

والطريف في هذا الصدد أن الدكتور العلامة ألف في كتاب آخر «قصة الزواج والعزوبة في العالم» فصل فيها هذه القصة من كافة جوانبها الإنساني والحيوي والفكري والاجتماعي والفردي.

وقد تحدث في هذه القصة العلمية والاجتماعية بإفاضة من ثقافته الواسعة، ومنظوره الفكري، ومعرفته الشخصية المتبصرة، وعدد في هذه القصة، فصولها في ما يتعلق بالزواج الإنساني وعزوبة البعض، من حيث النظم والوسائل، والحقوق والواجبات، في هذين الجانبين من جوانب الحياة البشرية والمعاشرة المجتمعية، وحياة كل من المرأة والرجل في هذه الحياة، وما يتعلق بهما فيها، في كافة الجوانب والإمكانات والحيثيات الفردية والاجتماعية.

وثمة كتب عديدة للدكتور وافي غير ما ذكرت من أسمائها وموضوعاتها وفنونها وصنوفها، الشيء الذى يعطي بعضه بعضاً خبرته الطويلة في علم الاجتماع، وباعه الطويلة بالتأليف فيه، وهي أدلة عملية على علمه الغزير في شتى تخصصات المعرفة، التى شكلت خلفيته الثقافية، وتبنى التفعيل بها في أعماله الفكرية، والأكاديمية والتعليمية والتربوية من منطلق المفكر الراشد ومشعله النوراني وسعة الأفق في العلم والثقافة، والتفكير والتنظير والتأليف، وما هذا بمستغرب عليه، فهو من خريجي الأزهر، حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه والنحو والمنطق ومصطلح علم الحديث به، ثم سافر إلى باريس والتحق بالسوربون، وتخصص في علم الاجتماع ثم في الاقتصاد السياسي والفلسفة وعلم النفس والتربية، حيث حصل على أربعة دوبلومات في هذه الفروع، ونال درجة الدكتوراة في الاجتماع «آداب»، وكان عضواً في المجمع الدولي لعلم الاجتماع، وعميداً لآداب الجامعة الاسلامية بأم درمان بالسودان فعميداً لكلية التربية بجامعة الأزهر وكان وكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقاً.

ولد الدكتور وافي في الثالث من شهر مارس سنة ١٩٠١م في أم درمان بالسودان حيث كان والده يعمل بها، وتوفي - رحمه الله - في شهر يناير من عام ١٩٩٢م ■

الدكتور وافي يعتبر خزانة علمية ومعرفية في حركة تأصيل علم الاجتماع.





الفرق بين الغبرة والقترة

□ ***إن لغة العرب لغة واسعة، والترادف فيها ظاهر لا يصعب ملاحظته، لكن التفريق بين الكلمات المترادفة هو الذي يجد الإنسان فيه نوع صعوبة؛ لكنك أحيانا تجد نفسك ملزما ببيان الفرق بين كلمتين في كتاب الله تعالى إذا ذكرتا تباعا، وهذا لا يمكن أن يكون لو كانا بمعنى واحد، من ذلك قوله تعالى: ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ آخر سورة عبس.***

وبعد البحث عن الفرق بين الكلمتين في كتب التفسير واللغة: وجدت أن الكثير منهم يجعلهما بمعنى واحد، ومعلوم أن الله تعالى ما كان ليأتي بكلمتين في سياق واحد وهما بمعنى واحد، ففي تفسير القرطبي[١] قال: والغبرة هي القترة، وفي تفسير القرطبي أيضا: {عليها غبرة} أي : غبار ودخان {ترهقها} أي تغشاها {قترة} أي كسوف وسواد ، كذا قال ابن عباس، وعنه أيضا ذلة وشدة، والقتر في كلام العرب: الغبار جمع القترة عن أبي عبيدة، وأنشد الفرزدق:

متوج برداء الملك يتبعه
موج ترى فوقه الرايات والقترا

وفي الخبر {إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار} (قلت) يعني القرطبي أن هذا هو الغبار الذي في الآية يكون في الآخرة؛ لكن هناك من لم يرض بهذا القول، بل يجعل هناك فرقاً بين الغبرة والقترة. قال القرطبي:

وقال زيد بن أسلم : القترة ما ارتفعت الى السماء، والغبرة ما انحطت إلى الأرض، والغبار والغبرة واحد[٢].

وفي المطلع على أبواب المقنع نقل ذلك عن ابن زيد فقال:

وقال ابن زيد الفرق بين الغبرة والقترة: أن القترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء، والغبرة ما كان أسفل في الأرض[٣].

وفي تفسير الطبري: وقوله {ووجوه يومئذ عليها غبرة} يقول ـ تعالى ذكره ـ ووجوه وهي وجوه الكفار يومئذ ـ يوم القيامة ـ عليها غبرة ـ ثم ذكر الحديث ـ ثم قال: قال ابن زيد: في قوله {ترهقها قترة} قال: هذه وجوه أهل النار، قال: والقترة من الغبرة، قال: وهما واحد، قال: فأما في الدنيا: فإن القترة ما ارتفع فلحق بالسماء، ورفعته الريح، تسميه العرب القترة، وما كان أسفل في الأرض فهو الغبرة[٤].

قلت) فقد فرق بين معنييهما في الدنيا وفي الآخرة، وهذا كله يجعل الغبرة والقترة من المحسوسات لكن في فتح القدير للشوكاني.

قال : {ووجوه يومئذ عليها غبرة} أي غبار وكدورة؛ لما تراه مما أعده الله لها من العذاب {ترهقها قترة} أي يغشاها ويعلوها سواد وكسوف، وقيل ذلة، وقيل

شدة، والقتر في كلام العرب الغبار، كذا قال أبو عبيدة، وأنشد قول الفرزدق ـ المتقدم :

متــــوج برداء الملك يتــبــعــه
فــوج ترى فــوقــه الرايات والقــتــرا

ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار[٥].

(قلت) يريد أن كلام أبي عبيدة لم يصح لأن الله تعالى لا يذكر شيئين بمعنى واحد في مكان واحد.. والله أعلم.

(قلت) وبمثل ما قال أبو عبيد قال البخاري في صحيحه[٦].

والفقهاء يفسرون كلام النبي {صلى الله عليه وسلم} بمثل ما قال أبو عبيدة، ففي الروض المربع قال: وإن حال دونه ـ أي دون هلال رمضان ـ بأن كان في مطلعه ليلة الثلاثين من شعبان غيم، أو قتر بالتحريك أي غبرة[٧].

(قلت) من المعلوم أن الهلال لا يحجبه القتر إلا إذا كان في السماء.

وفي فتح الباري: قال البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي {صلى الله عليه وسلم} قال: «إن ابراهيم يرى أباه يوم القيامة وعليه الغبرة والقترة» قال البخاري: والغبرة هي القترة.

قال ابن حجر: كذا أورده مختصراً، ولفظ النسائي: «وعليه الغبرة والقترة، فقال له : قد نهيتك عن هذا فعصيتني، قال: لكني لا أعصيك اليوم» الحديث[٨]، فعرف من هذا أن قوله: والغبرة هي القترة من كلام المصنف ـ أي البخاري ـ وأخذه من كلام أبي عبيدة، وأنه قال في تفسير سورة يونس {ولا يرهق وجوههم قَتَر ولا ذلة} القتر الغبار، وأنشد لذلك شاهدين، قال ابن التين: وعلى هذا فقوله في سورة عبس {غبرة ترهقها قترة}: تأكيد لفظي، كأنه قال: غبرة فوقها غبرة، وقال غير هؤلاء: القترة ما يغشى الوجه من الكرب، والغبرة ما يعلوه من الغبار، وأحدهما حسي والآخر معنوي، وقيل: القترة شدة



أ.د. ياسين بن ناصر الخطيب

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

الغبرة: بحيث يسود الوجه، وقيل القترة سواد الدخان فاستعير هنا[٩].

(قلت) وعلى كل فليس إحدى الكلمتين بمعنى الأخرى قطعاً.

وفي صحيح ابن حبان أكد النبي {صلى الله عليه وسلم} الفرق بين الكلمتين على العموم، ففيه أنه {صلى الله عليه وسلم} قال: «لا تستقبلوا الشهر استقبالا صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فان حال بينكم وبينه غبرة سحاب، أو قترة، فاكملوا العدة ثلاثين»[١٠]، وهكذا تبين الفرق بين الكلمتين.. والله اعلم ■

الهوامش :

(١) تفسير القرطبي ١٣/١١٤.
(٢) تفسير القرطبي ١٩/٢٢٦.
(٣) ١/١٤٦.
(٤) تفسير الطبري ٣٠/٤٠.
(٥) فتح القدير للشوكاني ٥/٣٨٦.
(٦) فتح الباري لابن حجر ٨/٤٩٩.
(٧) الروض المربع للبهوتي ١/٤١٠.
(٨) تكملة الحديث في السنن الكبرى ج:٦ ص:٤٢٢، قال لكنني اليوم لا أعصيك واحدة، قال: اي رب وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فإن اخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد، قال: (يا ابراهيم إني حرمتها على الكافرين) فأخذ منه، فقال (يا ابراهيم أين أبوك) قال: أنت أخذته مني، قال انظر أسفل منه فنظر فإذا ذيخ يتمرغ في نتنه، فأخذ بقوائمه فألقي في النار. وفي فتح الباري ج:٨ص:٥٠٠، والذيخ: بكسر الذال المعجمة، بعدها تحتانية ساكنة، ثم خاء معجمة، ذَكَر الضِّبَاع، وقيل لا يقال له ذيخ إلا إذا كان كثير الشعر، والضبعان لغة في الضبع، وقوله متلطخ، قال بعض الشراح: أي في رجيع، أو دم، أو طين.
(٩) فتح الباري لابن حجر ٨/٤٩٩.
(١٠) صحيح ابن حبان ٨/٣٥٧.



علبة الحلوى

□ ونظرت حولي فوجدت نصف مقاعد الحافلة المتجهة الى إسلام أباد العاصمة خالية، وهذا يعني أن الرحلة ستتأخر عن موعدها المقرر. أطللت برأسي خارج النافذة ونظرت بعينين مجهدتين، كانت المحطة تعج بالمسافرين والمودعين والحمالين، لفتت انتباهي الإعلانات الكثيرة المكتوبة بالوان جذابة، كتب على بعضها أسعار التذاكر وعلى بعضها الآخر إرشادات تحذر المسافرين من الحقائب المشبوهة ومن تناول ما يقدمه بعض المسافرين لبعضهم لتخديرهم تمهيدا لسرقتهم.

رجعت بذاكرتي إلى الوراء، وتذكرت والدي وهو يضع في يدي مبلغ خمسين ألف روبية عبارة عن رسوم دراسية لفصل دراسي واحد في جامعة القائد أعظم، وما بقي منها أصرفها على نفسي، لقد أصبح التعليم مكلفا جدا لا يقدر عليه إلا أولاد الأثرياء، تذكرت وصية أبي بالمحافظة على نفسي وعلى دروسي وعلى الروبيات التى أمرني بأن أضعها في الجيب الداخلي. إن والدي - رغم كونه موظفا كبيرا في الحكومة - فإنه لم يكن من السهل عليه أن يجمع كل هذا المبلغ، فهو لم يقبل رشوة في حياته. تذكرت كل ذلك وأنا أضع يدي على جيبي الداخلي لأطمئن على وجود النقود.

سمعت جلبة عند باب الحافلة فرأيت رجلا تجاوز الأربعين مع فتاة شابة يدخلان الحافلة، بدا لي من الوهلة الأولى أنها ابنته. كانت تغطي وجهها بنقاب بينما كشفت عن عينيها وعن مقدمة شعر رأسها، كانت تلبس جلبابا أسود يغطي باقي جسدها، كان ما ظهر منها كافيا ليبرز جمالها، جلس الاثنان على المقعدين الشاغرين خلف مقعد السائق، وبعد دقائق دخل شاب في مقتبل العمر متواضع في ملبسه، فقد كان يلبس قميصا طويلا أبيض اللون يصل طرفه إلى الركبة وسروالا واسعا بلون القميص، وهو لباس أهل البلد وعادة ما يكون القميص والسروال من لون واحد.

تفحص الشاب وجوه الركاب ثم ركز بصره على الفتاة التى دخلت قبله وكأنه كان على موعد معها، لم يلبث طويلا إذ انطلق إلى المقاعد الخلفية ليجلس على إحداها، وبعد قليل دخل - مع داخلين آخرين - شيخ كبير ذو لحية كثة، كان يرتدي ملابس فضفاضة ويضع على رأسه باكولا وهي طاقية أفغانية يلبسها أهل الشمال، نظر إلى التذكرة التى كان يحملها في يده وتفحص المقاعد ثم اقترب من إحداها ليجلس عليها، وكان آخر الداخلين رجل نحيف يحمل في يديه علبة كبيرة من الحلويات، سلم عليَّ وجلس بجواري.

زمر السائق استعدادا للرحيل، كان صوت المزمار عاليا جدا يصخ الآذان، وقبل أن تدخل الحافلة في الطريق السريع وهو طريق واسع وجديد توقفت ليدخل مفتشان من الشرطة لفحص الأمتعة، وبعد أن تأكدا من خلو الحافلة من الأسلحة والمواد الممنوعة نزلا منها متمنين للجميع رحلة سعيدة.

انطلقت الحافلة في الطريق الجديد الذي يربط مدينة لاهور بمدينة إسلام أباد وهو طريق موحش ممتد يكاد يخلو من السيارات، ربما لأنه جديد وربما لأن

المسافرين يفضلون عليه الطريق القديم الذي يمر بين المناطق المأهولة، ران على الحافلة صمت عميق وهي ماضية في طريقها لا تلوي على شيء، وفي حركة غير متوقعة وقف الرجل الذى دخل مع الفتاة الشابة مستندا إلى عامود حديدي كان قريبا منه واضعا يده الأخرى على رأس الفتاة وقال موجها خطابه إلى ركاب الحافلة:

يا أبناء وطني هذه ابنتي ربيتها تربية صالحة بقدر استطاعتي، وقد عرضتها على أقاربي للزواج ولكنهم رفضوها بحجة أنني فقير ولا أستطيع دفع ما يطلبونه من جهاز.

طلب السائق من الرجل أن يجلس فالحافلة في وسط الطريق، ولكن الرجل لم يعره التفاتا واستمر في حديثه وقد تهدج صوته:

إخواني لقد سئمت هذه العادات والتقاليد البالية التى تعجز كثيرا من الآباء حتى تصبح بناتهم عوانس وهم لا يملكون من الأمر شيئا، ما ذنب الآباء إذا كانت البنات من نصيبهم؟! توقف برهة ليمسح دموعه ثم قال بلهجة المتضرع:

أستحلفكم بالله يا إخواني أن تقفوا معي في أزمتي، ها أنذا أعرضها عليكم بعد أن يئست من جميع أقاربي فهل أجد بينكم من يقبل الزواج بها، أرجو أن لا تخيبوا رجائي.

دهش الجميع وأخذتهم المفاجأة فما رأوه وما سمعوه لم يكن طبيعيا، في البداية أطبق الصمت على الحافلة، وبعد قليل بدأ اللغط بين المسافرين، ثم ما لبث هذا اللغط أن ارتفع، حتى غطى على هدير الحافلة المنطلقة في الطريق الممتد الطويل غير مبالية بما يجري فيها.

لح الجميع الشاب صاحب البدلة البيضاء يقف ويتقدم ويقول بشهامة نادرة أدهشت الجميع:

أنا أقبل بها يا عمي، فأنا موظف بسيط في إدارة حكومية، أتقاضى راتبا زهيدا وأعول والدتي المريضة وثلاثة إخوة صغار وأعيش في بيت متواضع.

لم يدر الناس هل يعجبون من ذلك الأب الذي عرض ابنته على مسافرين لا يعرفهم، أم من ذلك الشاب الذي قبل بها وهو لا يعلم عنها ولا عن أسرتها شيئا؟!.

لم يطل تعجبهم إذ قام الشيخ ذو اللحية الكثة والذي يلبس الباكول ليعلن عن استعداده للقيام بدور المأذون، وفي لحظات اقترب الرجل وابنته والشاب وشاهدان من الركاب تطوعا لهذا العمل متحمسين من الشيخ الذي أخذ يقرأ كلاما لم أتبينه رغم قربه مني فقد

د. محمد على غوري

باكستان

عرفت بعضه وأنكرت بعضه الآخر. كان الشيخ يخلط بين ألفاظ القرآن وألفاظ أخرى، وأخيرا جهر بكلام مفهوم كان بمثابة إعلان عن انتهاء اجراءات الزواج.

حلت البهجة والمشاعر الطيبة محل الدهشة والاستغراب، حدث كل شيء بسرعة، أخذ المسافرون يباركون للزوج ولوالد العروس، التهبت المشاعر حتى لمعت بعض العيون بالدموع، نظرت الى الزوجين وقد اجتاحتني مشاعر متناقضة، أخذتني المفاجأة كما أخذت الجميع، وفرحت كما فرح الجميع، زاغت عيناي المكدودتان وسط الزحام، زحام التهاني التى أخذت تنهال على العروسين من كل صوب.

وسط هذا الجو البهيج وقف الرجل النحيف الذي كان يجلس بجواري وقال بصوت عال سمعه الجميع: أيها الإخوة كنت قد أحضرت هذه الحلويات لبعض أقاربي في إسلام أباد، ولكني لا أملك إزاء هذا الحدث المبارك إلا أن أشارككم الفرح وأحلي أفواهكم بها، فأرجو أن تقبلوا مني، وأخذ يقرب علبة الحلوى المزركشة بالألوان الزاهية من المسافرين واحدا تلو الآخر.

تناول الجميع الحلويات اللذيذة، حتى مرضى السكر منهم، أبو إلا أن يشاركوا الآخرين في هذه المناسبة السعيدة غير المتوقعة، تناول بعضهم قطعة وبعضهم قطعتين، وعندما اقترب من السائق أخرج له علبة صغيرة كان يحتفظ بها في الكيس الذي كان يحمله معه.

ما أن أكلت قطعة الحلويات حتى انتابني شعور غريب، ثم .... غبت عن الوعي ونمت نوما عميقا، ولم يبدأ الكابوس إلا حين استيقظت على أصوات الشرطة تنبه النائمين، نظرت حولي فوجدت بعض المسافرين لا يزالون يغطون في نومهم وآخرين يصرخون.

انتبهت إلى نفسي ومددت يدي الى جيبي الداخلي لأجده ممزقا وخاليا . هالني الأمر، صرخت: نقودي، نقودي...

اختفت النقود واختفت معها أحلامي وأحلام أبي المسكين.

دققت النظر حولي فلم أجد الرجل وابنته ولا الشاب الذي تزوجها ولا المأذون ولا حتى جاري صاحب الحلويات اللذيذة!!! ■



أحمد الزين الشاعر العالم الراوية

□ حين كنت طالباً بمعهد دمياط كان مدرس الخط العربى هو الأستاذ محمد محمد عمر، وهو أديب شاعر ذو منظر نبيل، ومظهر محترم، وقد طلب منى متفضلا أن أزوره مساء كل خميس ليقرأ معى بعض القصائد لأنى عرضت عليه نظماً بدائيا حسبته شعرا، وما هو به، فلمس به ما يدعوه إلى تشجيعى، وهذا فضلٌ منه لا أنساه ـ رحمه الله ـ وفي أول لقاء قال لى سنقرأ الليلة أحسن قصيدة قرأها في هذا العام، وأخرج مجلة الثقافة التى صدرت في هذا الأسبوع، وقال لي اقرأ، وكانت القصيدة تحت عنوان (مع النسيم) وقد قالت عنها المجلة (وهى قطعة من الشعر الوجدانى الممزوج بالوصف) ونسبتها إلى من قالت عنه (الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين) أما القصيدة فقد بدئت بقول الشاعر:

يا نسيماً أهدى إليها اشتياقى
ما أبرَّ النسيم بالعشّاق

يا رقيقا كما حَمَلُوكَ رقيقا
منْ مُنَى عذبة ومن أشواق

وأميناً على الهوى دون ما يطويه
تعيا الوشاة والسِّرُّ باق

يا له كيف لا يَحُول سموماً
بالذى فيه من جوى واحتراق

حامل النار كيف يبرد مسا
أيّ واق منها له أيّ واق؟

سر إليها واحمل الى شفتيها
قبلة ثم لُفَّها بعناق

لُفَّ جسماً أرق منك وأصفى
أبدعتْ فيه قُدرة الخلاق

ليت شعرى أي النسيمين أشهى
ضلّ في ذاك منطق الأذواق

والقصيدة كلها من هذا الطراز النادر، وبعد



أ.د. محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

أن تلوتها أخذ المجلة أستاذى الفاضل وأعاد قراءتها مرة أخرى وقال إنها لا تمل على التكرار، وكنت لم أسمع باسم أحمد الزين من قبل، فسألته عنه، فقال إنه من كبار الشعراء، يكتب في الرسالة والثقافة والأهرام ولكنه مقل، فإذا كتب خلب! هكذا كان تعبيره، ثم إنه أزهري كفيف حرمه الله كأبى العلاء نور البصر وأعطاه نور البصيرة! ولا أدرى أسُحرت بالأبيات لأنى طربت لمعانيها الوجدانية الممتازه أم لأن أستاذى قد فُتن بها، فنقل تأثيره إليّ، أم هما معا، لقد استأذنته في أن أحمل المجلة معى لمدة ليلة لأكتب القصيدة في كشكول أعددته لمثل هذه الروائع، ولم تنته الليلة حتى حفظت القصيدة وأخذت أترنم بها كأغنية رقيقة، ولم أكن أعرف العشق حينئذ، ولكنى شعرت بأحاسيس حلوة تتيسرب في كياني، وتكاد تطير بى من موضعي الى أفق عال أسبح فيه بجناحين، وفي الصباح حملت المجلة إلى أستاذى وقلت له قد حفظتها! فقال هذا ما توقعت، ومن يومها وأنا أفتش عن شعر الزين في كل مكان، لأن ديوانه لم يكن قد طبع بعد، وأسأل عنه من يدلنى على مواضعه من الصحف الأدبية، وساعدني الحظ فقرأت أكثر من عشر قصائد مختارة، كانت من هذا الطراز الفاتن وكنت أسائل نفسي، أأنا مصيب في تقديره هذا التقدير الكبير، أم أن موازينى النقدية في حاجة الى تصحيح، واذا كنت مصيبا فلماذا لم يشتهر الزين كما اشتهر هؤلاء الذين تتردد أشعارهم في الصحف، وتجرى أسماؤهم على كل لسان ٠٠ ثم طمأننى كثيرا، أن وجدت أديباً مرموقا يكتب في مجلة الصباح قائلا، إنه حضر حفلة التأبين التى أقيمت إحياء لذكرى الشاعر الكبير محمد الهراوى٠ وأنشد فيها الأساتذة أحمد محرم ومحمد الأسمر وابراهيم ناجى ومصطفى الماحى وغيرهم مرثياتهم، فكانت قصيدة أحمد الزين هى الأولى ، إذ حفلت باللوعة والروعة معا وبلغت من النفوس مبلغاً لم تظفر به قصيدة أخرى، وما كدت أقرأ ذلك حتى لقيت أستاذى محمد عمر وعرضت عليه ما قرأت، ورجوته أن يبحث معى عن قصيدة الزين في الهراوى، فابتسم وقال - ولا أنسى قوله - وهل تفوتني؟ ثم فتح الدرج ليخرج صفحة من جريدة الأهرام، قائلا، تفضل فاقرأ ، وأخذت أطالع في شغف، حتى بلغت قول الزين:

ياليت خالق هذا الكون فرّقنا

في البدء، ما وَصْلٌ ما بالموت ينفصلُ؟

وما اشتهاؤك ودّا حزنٌ آخره

يُنسيك ما أفرحت أيامه الأولُ

دع الهيـام بما تبلى محـاسنه

يمضي، وتخلفه الأحـزان والعلل

عيبُ الجَمَال بلاه بعد نضـرته

ياليت عُشّاقه قبل الهوى عقلوا

ووجدتني عند هذا البيت الأخير، أنقطع عن القراءة، وأنفاسي تتصاعد، ولاحظ الأستاذ شدة تأثري، فقال كفى كفى، وخذ الأهرام لتكتب القصيدة في جوّ من الهدوء النفسي، وقد كان.

أخذت أتتبع ما يكتب الأستاذ أحمد الزين وما يؤلف ويحقق، شعرا ونثرا، وأنا به مفتون، على قلة ما ينظم، ثم التحقتُ بعد سنوات بكلية اللغة العربية بالقاهرة طالباً، وعرفت شاعرها المجيد الأستاذ حسن جاد، إذ تفضل بتشجيعي في مناسبة أدبية لأول عهدي بها، وتطرق حديثنا الى الشعراء، فعرفت أنه صديق حميم للأستاذ أحمد الزين، وأنه يقوده كثيراً في روحاته وغدواته، فقلت له إني مفتون بشعره، فضحك وقال إن أجمل ما قال الزين لم يُنشر، إذ له أهاجٍ مضحكه يعرفها أصدقاؤه ويتناقلونها في مجالسهم مبتهجين، أتعرف أنه هجا (الأزهر) الذي تعلم فيه، وأورثه الأدب والذوق والعلم فقال مخاطبا له من قصيدة:

أتيناك لا شوقاً إليك يقودنا

ولكن كَورْد المؤمنين جهنما

إشارة إلى قول الله عز وجل {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا}، كما أنه هجا أستاذه (ع٠ص) وكان مما ابتلاه الله به أنه ينام في الدرس على كرسيه الممتد وهو يشرح، ويرى الطلاب إغفاءته فينصرفون ضاحكين، وحين توفى فجأة، وجاء نعيه إلى الأستاذ أحمد الزين رثاه بقصيدة فكاهية قال فيها:

ثوى في الثرى من بعد ما نام فوقه

فلم ينتقل إلا من النوم للنوم

وقد رجوت الأستاذ حسن جاد أن يصحبني في زيارة للزين، فقال أما في منزله فلا، وأما في مقهى الحلمية، فنعم، وسأتفق معه على جلسة أدعوك إليها، قلت: قريبا قريبا، قال، وعليك أن تختار قصيدة من شعره لتسمعه بعضها، فَيُسَرَّ وينشرح، وإذ ذاك يفيض بحديثه المتدفق الذي لا ساحل له، قلت: أجل، وتصادف أن ظهرت مجلة الثقافة، وبها رثاء قاله الزين في ذكرى العلامة أحمد تيمور، فقرأت الرثاء في تؤدة، ولاحظت أن الشاعر ترك المرثيّ إلى قضايا أدبية جعلها كالأصل: مع أن الموقف موقف الرثاء، فقلت هذه فرصة لسؤال الشاعر عن اتجاهه هذا؟ وكان مما قال:

لا يدّع الأدب الصميم عصابة

جهلتْ قديم العُرب وهو أصيل

عُصَبٌ يؤلفها العقوق فجيشُهم

في غير ميدان الجهاد يصول

من كلّ أُلْكَنَ نابغ في عــيّــه

لهج بدعوى الغرب وهو جهول

ويكاد يرشح عقله أميّة

حتى عليه يشكل التشكيل

إن رام شعراً لم يقم ميزانه

وَرَوِيُّه قيدٌ عليه ثقيل

واذا يُترجم كان في تعقيده

قبرٌ به المعنى البرىء قتيل

لا أجحد الغربيّ سحر بيانه

لكنّ سوء النقل عنه يحيل

ودنا الموعد المرتقب، فذهبت مع أستاذي لمجلس الزين، وقَدَّمَني له فرحب، ومضى في حديث عن الأدب والشعر لا ينقطع، وكأن سيلا قد فاض فملأ الوادى، وهذه عادته كما قال لى أستاذى، ثم تلطفت بحديث عن شعره صادف موقعه من نفسه، ورويت له بعض ما أحفظ من غزله الرقيق، فاستمع مبتهجا، ووجدت الطريق ممهدا لكى أسأله عن قصيدته في العلامة أحمد تيمور، فقلتُ إنك تركت الرجل فلم تلمّ بحديثه إلا قليلا، واندفعت إلى تسفيه الأدعياء من المنتسبين الى الأدب دون اقتدار، فأسرع يقول، قصدت ذلك قصدا، لأنى قلت في تيمور عند رحيله منذ سنوات قصيدة رثاء مطلعها:

سائلوا الشرق أى خطب دهاه

عَلَمُ الشرق قد هوى من ذُراه

ثم دُعيت الى حفلة الذكرى بعد أن همدت اللوعة كثيرا، فأردت أن أعالج موضوعاً عاما يكون له صداه المجلجل، ولي تجربة سابقة دفعتنى الى مثل هذا الموقف، ولاقت دويا رنانا، فقد دُعيت لالقاء قصيدة في ذكرى شاعر النيل حافظ ابراهيم! والكلام في حافظ سيطول في تكرار مملول، وكان أدعياء التجديد في الشعر قد مزقوه تمزيقا، وشوهوه بصور وأساليب مترجمة لا نحس بها، وكل جهدهم في جمال الطبع، ونفاسة الورق، ورسم الصور الجذابه لفتا للأنظار، وقد استهوى السذج هذا الطراز من الزركشة الكاذبة، فرأيت أن أشنَّها في معرض الرثاء حربا عليهم، وهم حاضرون يستمعون، فقلت أبياتا قام لها الحفل وقعد، وكان منها:

همُو جُدريّ الشعر أذووا جماله

بما ألصقوا في حسنه من معايب

عناوين كالألغاز حيّرت النهى

وما تحتها معنى يلذ لطالب

دواوين حسن الطبع موّه قبحها

وهل يخدع النقاد نقش الخرائب

وكم ملئوا بالزهر والنهر شعرهم

بلا طيب مستاف ولا ريّ شارب

وكم يذكرون الأيك والطير صُدّحا

عليها فلم تسمع سوى صوت ناعب

وكم هاتف بالخلد منهم وشعره

توفّى سقطا قبل عقد العصائب

أكلُّ متاع كاسد عند غيركم
يروج لديكم يا بلاد العجائب
فيا ضيعة الأوراق في غير طائل
ويا طول ما تشكو رفوف المكاتب

إلى كثير مما ينحو هذا النحو، قال الزين، وقد قامت معركة في الصحف حول هذه الأبيات، وتعاوى عليّ ذئاب ، فما رجعوا بطائل.

ودار الحديث حول انقطاع الزين أمداً عن الشعر، فهو لا يترنم به إلا في حدود ضيقه، فقال الزين، أنا مشغول بأعباء كثيرة، فقد أخرجت كتبا من كتب التراث بدار الكتب المصرية شغلت فراغا كبيرا من وقتى، ثم شاركت الأستاذ أحمد أمين والأستاذ ابراهيم الابيارى في إعداد كتب أخرى كديوان حافظ ابراهيم، والعقد الفريد، وكاد الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة يخرج من المطبعة، وقد حققت الأجزاء الثلاثة مع الأستاذ أحمد أمين من مخطوطة واحدة لم نجد غيرها، فكابدنا كثيرا في إصلاح النص، وفهمه على النحو الذى أراده أبو حيان التوحيدى قدر المستطاع.

وهنا سبق لسانى فقلت: على ذكر كتاب (الامتاع والمؤانسة) أذكر أن الدكتور زكى مبارك قد وجه إليه نقدا علميا على صفحات مجلة الرسالة، فقال في ابتسام قرأت ما كتبه الدكتور زكى مبارك، وخرجت منه بنتيجة واحدة هو أنه يتحكم في النص فلا يقبل فيه غير وجهة واحدة، لقد وقفنا أمام كلمات غير مناسبة للسياق، فأصلحناها وفق ما اهتدى إليه تفكيرنا، ونصصنا على ذلك في هوامش الكتاب، ولكن الدكتور حاول أن يرجِّح ما لم نرجحه فجعل يختار النص الذى أهملناه، ونحن لم نتركه اعتباطاً، ولكن لوجهة نظر راجحة، وكم وقفنا أمام الكلمة الواحدة ساعات لتستقيم على وجه صحيح! ولكن زكى مبارك أراد أن يتكلم فقط، إن لى بالدكتور زكى صلة وثيقة ترتفع الى مرتبة الصداقة، وأذكر له خطابا كريما وجهه اليَّ على صفحات البلاغ حين كان يُحضِّر للدكتوراه في باريس، فقد كتبت مقالا تعرضت فيه لمفاتن باريس التى يؤمها بعض الأثرياء من الشباب المتعطل ليروا نزواتهم الطائشة وقلت لهؤلاء: أما عندكم غير باريس وحدها ميدانا للهزل، أليس للجد لديكم أدنى فراغ، وما كاد الدكتور زكي يقرأ المقال حتى جاء برد رنان كتبه بالبلاغ ثم أعاد نشره في كتاب البدائع في نمط رسالة أدبية وجهها اليّ وكان مما قال إن بجانب شوارع اللهو بباريس أماكن كثيرة للنشاط العلمى، والكفاح العقلى، واذا كان بباريس من المدارس والكليات والمعاهد الدراسية مالا يحصى فإن الحركة الفكرية لا تقف عند دور التعليم وحدها،

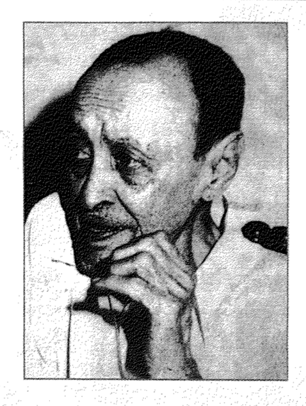
فهناك من المحاضرات اليومية عشرات تلقى في المساء والصباح، ويعلن عنها بالجرائد فيؤمها مئات السامعين، ويتخللها عراك فكرى مستطاب، حيث تعد الأسئلة الهامة، ويجيب عنها المحاضر، فإذا لم تكن إجابته موضع اقتناع قامت الردود الكثيرة مؤيدة ما تراه، والناس يقولون إن باريس علمانية لا تهتم بالدين، وهذا خداع يروجه المغرضون لدينا، فالكنائس بباريس عامرة بالزائرين، ورجال الدين بها يلاقون من الاحترام والتبجيل مالا يلقاه رجال الدين في العالم الإسلامى إلا لدى أفراد معدودين.

والحق أن الدكتور زكى مبارك أفاض في هذه الناحية بما أثلج صدرى، وعددت رده موعظة حسنة لمن يحسبون التحلل من الدين مصدر تقدم وارتقاء، فعاودت الكرة معقبا، وشاكرا للدكتور ما أوضحه من المعانى الغائبة عن أذهان الشباب.

قلت مستطردا: كان الأستاذ أحمد أمين من أعز أصدقائك، وقد هاجمه الدكتور زكى مبارك في ثلاث وعشرين مقالة مستفيضة تحت عنوان (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) واشتط في محاسبته اشتطاطا خرج بالموضوع إلى مسائل شخصية ما كان للدكتور أن يتجاوز بالبحث إليها؛ فلمَ لمْ تنصح الدكتور بالاعتدال في الرد، والتزام الجانب الموضوعي وأنت صديق الرجلين معاً.

قال الزين، من طرائف مبارك أنه ينقد اليوم ما قرره بالأمس، وأصدقاؤه يعرفون ذلك عنه فلا يحاسبونه، وأذكر أنه في خلال معركته الحامية التى اصطنعها مع الأستاذ أحمد أمين، وكانت من طرف واحد فحسب، قابلنى مصادفة بعد أن نشر خمسة عشر مقالا، فسألنى ضاحكاً: ما رأيك فيما أكتب عن أحمد أمين، فقلت له يا أخى: أشكرك نيابة عن الأستاذ أحمد أمين، لأنك جعلت مقالاتك تحت عنوان (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) فارتفعت بالأستاذ إلى أعلى قمة في الأدب، لأن الذي يجنى على الأدب العربي إن صح ما تقول، ليس باحثاً صغيرا، بل هو من أكبر الباحثين، بل هو أكبر الباحثين على الاطلاق! لقد نال الدكتور طه حسين شهرة مستفيضة إذ قيل إنه جنى على الشعر الجاهلى فقط! فكيف لا يفوقه احمد أمين وقد جنى في رأيك على الأدب في جميع عصوره منذ الجاهلية الى اليوم! أى جبار يستطيع أن يفعل هذا؟ وقد فعله الأستاذ أحمد أمين كما زعمت! سكت الدكتور وقال إذن وقعت أنا في الفخ! قلت نعم.

كان مجلسا عامرا تناول أشياء كثيرة لا أذكر بعضها الآن، وحسبي أن أشرت الى ما علق بذاكرتى، مؤكدا مكانة أحمد الزين الرفيعة في النقد والشعر والتحقيق، والفكاهة أيضا ذات الطابع النقدى الصريح ■



حسين سرحان وموقفه من الشعر العامي

نشأ حسين سرحان في بيئة بدوية تُعلي من شأن الشعر العامي وتقوله وتتذوقه؛ لكونه متنفساً للبدوي البسيط يدون من خلاله ما يختلج في ذهنه وما يرد إلى خاطره من مشاعر وأحاسيس.

وما من شك في أن الشعر العامي القديم يكتسب أهمية، لأنه حفظ جزءاً من تاريخ الجزيرة بما تضمنه من وصف للحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في وقت لم تكن هناك عناية بالتدوين والتأليف.

وقد كان للسرحان مجلس يومي بعد العصر يفد إليه معارفه من الأدباء والأصدقاء والأقارب، وفيهم من لم يحصل على شيء من التعليم ويميل إلى هذا اللون من الشعر، فيتيح لهم السرحان تناشد الأشعار والقصص ويتحدث معهم؛ نظراً لكثرة مخزونه منه؛ ولممارسته النظم أيضاً من خلاله كما صرح بذلك، يقول «أميل إلى الشعرين وأنظمهما وأستظهر منهما الكثير»[١].

ومن هنا وجدنا السرحان يكتب أكثر من مقالة عن الشعر العامي مدافعاً ومحللا وشارحاً، فنراه يتحدث عن مفهوم الشعر العامي، وقد يسميه

النبطي أو الشعبي أو البدوي، ويذكر أعلامه من القدماء والمحدثين، ويكثر من الاستشهاد بأبيات من هنا وهناك، ويشرح بعض الأبيات شرحاً يدل على تذوق ممتاز لمواطن الجودة فيها، ويستعين بثقافته واطلاعه على الشعر الفصيح لإجراء موازنة أحياناً بين أبيات عامية وأخرى فصيحة.

وللسرحان خمس مقالات تندرج في هذا الإطار، أولها «مناقلات من الشعر البدوي» المنشورة عام ١٣٦٩هـ، وآخرها «أفكار شعبية في أبياتها» والمنشورة عام ١٣٨٩هـ.

ويلاحظ أن السرحان في مقالته الأولى يسميه «الشعر البدوي»[٢] ثم عدل عن هذا المصطلح الى «الشعر النبطي»[٣]، ثم سئل فيما بعد فرجح تسميته بالشعر الشعبي[٤].

وأياً كانت التسمية، فإن السرحان ينفي في مقالته «مناقلات من الشعر البدوي» أن يكون هذا الشعر لا طعم له ولا روح فيه، ويرى أن ذلك وهم شائع يجب أن يزال من الأذهان، فكما أن في الشعر البدوي الركيك المرذول، ففيه «المبين المشرق، وفيه ما بين هذين في ضروب الأساليب، وفيه من المعاني والصور والفكر ما لو يتصدى له أحدهم.. لأتانا من نماذجه بالعجب العجاب».

ويتحدث عن أقسامه، وهي: قسم يتغنون به في مجالسهم، وقسم يرتجزونه على أكوار مطاياهم، وقسم يسمونه (الحداء)، وقسم يسمونه (المقاصد) أو (المراد) يتساجلون به واقفين في الغالب[٥].

ويختم المقالة بحكم عام على هذا الشعر فيقول: «شر ما في هذا الشعر انعدام الإعراب فيه، فأما المفردات وأغلب العبارات فإنها عربية صحيحة ويدخل بعضها تحريف طفيف»[٦].

وفي مقالته «أفكار من الشعر النبطي» يقف متأملا كثرة اللهجات في الجزيرة العربية، بل في المنطقة الواحدة منها، ويحاول أن يتعرف على سبب تسمية هذا الشعر بالنبطي أو (الحميني) فيقول: «فإلى


عبدالله بن خميس

الشعر الشعبي في - رأي السرحان - يجمع الشعب بمختلف لهجاته. ويعتبره امتدادا للشعر الفصيح.

أين نرجع بأصول هذين الاسمين الغريبين، وما معناهما وكيف يكون اشتقاقهما؛ لنستدل أو نعرف عن هذا الشعر الدارج العامي بلهجاتنا المحدثة، وأين نحن من النبط وهم قوم كانوا في العراق.. وأي صلة بيننا - اليوم - وبينهم»[٧].

وفي محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات أورد في الحلقة الثانية من هذه المقالة نقولا مطولة من مادة (نبط) استقاها من المنجد ودائرة المعارف، غير أنه لم يجد علاقة بين ما قيل في هذين المرجعين والشعر النبطي فعاد إلى التساؤل: «الذي يهولني هو ما هي العلاقة بين شعرنا النبطي الحديث.. وبين لغة النبط في العصور القديمة.. وهل هناك تشابه في المفردات اللغوية أو في المشتقات من أصولها؟»..

ولم يستطع الإجابة عن هذه الأسئلة وبقيت معلقة، كما أنه لم يجد في المعاجم ما يفيد عن تسمية هذا الشعر بالحميني[٨].

ولا يخفي السرحان إعجابه الشديد بالشاعر ابن لعبون فيخصه بمقالة مطولة عنوانها «اللفتات الذهنية في شعر ابن لعبون» بدأها بتعريف اللفتة فقال: «قد يلتزم الشاعر معنى خاصاً، ثم يذهب به الخيال.. الى آفاق أوسع.. ومن هنا كما يبدو لي تبدأ اللفتة الذهنية التى بينما هي تسف في الأرض، فإذا هي تحلق في السماء»[٩].

وقد انفرد السرحان في هذه المقالة بإيراد بعض الأبيات لابن لعبون، أو روايات لبعضها، وكانت من مصادر الدكتور عبد العزيز اللعبون في جمع شعره والتعليق عليه وتوثيقه[١٠].

أما مقالته «أفكار شعبية في أبياتها» فهي أشبه بالخاطرة، وفيها يورد مجموعة من الأبيات في استرجاع لذكريات مبهمة لم تتضح صورتها»[١١].

ويلتقي حسين سرحان مع عبد الله بن خميس في كثير من الأفكار الخاصة بما يسمى الأدب الشعبي ويدافع عنه دفاعاً لا يقل عن ابن خميس[١٢]، ويعترف بأنه ينظم شعراً عامياً، ويتفق مع ابن خميس في أن المصطلح الأدق «الشعر الشعبي؛ لأنه يجمع الشعب بمختلف لهجاته التى تختلف عن بعضها.. والشعر الشعبي فيه معان وأفكار جيدة»[١٣]، ويرى أنه

«لا خطر منه على الشعر الفصيح»[١٤]، وأنه يعد امتداداً للشعر الفصيح؛ لأن أكثر معانيه موجودة في الشعر الفصيح ومأخوذة منه، وهو «ثري في المعاني والأساليب والبلاغة والجزالة أيضاً»[١٥].

ويذهب إلى أن الشعر النبطي ـ كما يسميه أحياناً ـ «لا يقل عن الشعر الفصيح في التعبير عن كل المعاني، ولا ينزل عن مستواه رغماً عن اختلاف الأمزجة»[١٦].

وتقوده الحماسة الى المغالطة حين يقول: «الشعب لا يتنفس إلا عبر الشعر النبطي، وهو أداؤه الوحيد عن مكونات نفسه»[١٧]، وحين يصف الأدب الشعبي بأنه «هو الأدب الحقيقي»[١٨]. فإذا كان الأدب الشعبي هو الحقيقي فماذا يمكن أن نسمي الأدب غير الشعبي، وهو الأدب الفصيح؟.

وربما كانت منطلقات السرحان في هذه الآراء جاءت بسبب نظمه للشعر العامي وروايته وحفظه ـ كما يعترف شخصياً بذلك[١٩] ـ وبسبب مكانة هذا اللون من الشعر لدى سكان البادية الذين يتصل بهم، ويفدون إليه كثيراً، إضافة إلى حفظ هذا الشعر للعديد من الأحداث والقصص والمواقف التي حدثت لسكان الجزيرة العربية في وقت لم يكن هناك اهتمام بالتدوين والكتابة.

الهوامش :

(١) انظر: جريدة الرياض، ع ١٥٩٥، ١٣٩٠/٦/٩هـ، ص ٤.
(٢) جريدة البلاد السعودية، ع ٧٨٣، ١٣٦٩/٢/١٣هـ، ص ٤.
(٣) مجلة اليمامة، ٦٩٠، ١٤٠٢/٥/٣هـ، ص ٥٢.
(٤) البلاد السعودية، ع ٨٧٣، (مرجع سابق).
(٥) المرجع نفسه.
(٦) عكاظ، ع ٣٩٣ (مرجع سابق).
(٧) عكاظ، ع ٤١٣، ١٣٨٥/١١/١٣هـ، ص١٠.
(٨) مجلة العرب، ع١٢، جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ، ص ١٠٦٦.
(٩) المرجع نفسه.
(١٠) يقول تعليقاً على أحد الأبيات: «ورد البيت عند سرحان ولم أجده في أي من المراجع الأخرى» انظر: ديوان أمير شعراء النبط محمد بن لعبون، جمع وتحقيق وشرح الدكتور عبد العزيز اللعبون، الرياض: دار ابن لعبون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ص ٢٤١، وانظر كذلك ص ٢٥١ ، ٢٥٥.
(١١) عكاظ، ع ١٥٤١، ١٣٨٩/٩/٢٥هـ، ص ٣.
(١٢) ينظر كتاب الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ط ٢، الرياض: مطابع الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، وانظر عرض السرحان لهذا الكتاب في جريدة الندوة، ع ٢٢٨، ١٣٧٩/٤/٢٧هـ، ص٢.
(١٣) مجلة اليمامة، ع ٦٩٠ (مرجع سابق).
(١٤) جريدة الرياض، ع ١٥٩٥، (مرجع سابق).
(١٥) مجلة الأربعاء ١٤١٣/١١/٢٨هـ، ص ٥٤.
(١٧) جريدة الرياض، ع١٥٩٥.
(١٨) مجلة اليمامة ع ٢٦و١، ١٤٠٩/٣/٩هـ، ص ٨٤.
(١٩) جريدة المدينة ع ٨٣٨، ١٣٨٦/٩/٤هـ، ص ٤، وانظر كذلك العدد ١٥٩٥ من جريدة الرياض.

عبد العليم محمد القباني
الشـــاعـــر .. المبـــدع

☐ انتاج الشاعر عبد العليم محمد القباني الشعري امتاز بالغزارة والتنوع والتجديد ولذلك يعد من الصف الأول من شعراء الاسكندرية في القرن العشرين، ولم يصل الى هذه الصدارة والمكانة العظيمة الا بعد أن قطع مسيرة طويلة من الجهاد القاسي والعناء الشاق . .

أجل . . فقد واجه وهو في ريعان شبابه خطوب الحياة ومحنها من أجل بناء نفسه ثقافيا وتطوير ملكته الشعرية علمياً منذ العاشرة من عمره، وقد وصف الشاعر السكندري محجوب موسى حياة زميله في مرثيته [توأمية] :

كان عبد العليم مثلي محباً
للقصيد الأصيل عمقاً ولبا
توأمي في الكفاح خطواً بخطو
ورفيق النضال دربا فدربا
لم نرد معهداً ولكن وردنا
معطيات العقول شرقاً وغربا
نتغذى بالعلم والفن ننمو
ليس دون الغذاء نملك خصبا
ليس سهلا تكون رب قصيد
لا يزال الوصول للشعر صعباً
سلم الشعر مرهق وطويل
يأكل العمر، يشرب النبض شربا

الى أن يقول :

كان عبد العليم قبلى نضالا
وغيوثاً تذيب بالخصب جدْباً

حقا إن القبانى لم يلتحق في مدرسة نظامية ولم يواصل دراسته العلمية في معهد ولكن والده ألحقه بأحد الكتاتيب فحفظ نصف القرآن ثم اشتغل مع والده في حياكة الثياب الأزهرية، الأمر الذى دفعه الى معرفة عدد من الأزهريين الذين أرشدوه الى الكتب القيمة في الأدب والتاريخ والسير التى كانت موجودة في مكتبة البلدية بالإسكندرية لأنه كان نهماً في قراءاته يقرأ كلما تصل اليه يداه.

ويعد شاعرنا من المجودين في المطوله الشعرية - أعنى الملحمة الشعرية ملحمة (الثورة العربية) ١٩٨٢م التى جاء استهلالها مناجياً للوطن :

يا وطنى والعمر يطوى شراعه

سأمضى وحبى فيك لا يتغير

فأنت جدير بالوفاء وبالفدا

وحبك أصفى ما يكون وأطهر

ورأي الدكتور محمد زكريا عناني في هذه الملحمة أنها: (عمل ابداعى جميل تداخلت فيه عناصر الذاتية مع الموضوعية والتقى فيه الأمس بالحاضر وجمع الى الغنائية روعة المعايشة للواقع والتصوير النفسي المفعم بالشاعرية والشجن.. وحيث ان شاعرنا أحد الأصوات الشعرية القوية في مصر، فقد تناول في شعره أغراض شتى منها



عثمان محمد مليباري

مكة المكرمة

الشعر القومى إذ وصف مأساة مدينة مغربية (أغادير) التى دمرت ذات صباح لدرجة أن الموت حل في كل مكان وبقعة مما أدى الى تمزيق الاحلام واغتيال اليقظة، وعقب الزلزال اكتست الأرض بالدماء وشعت النار في السماء، ولا تسمع الا صرخات خوف وصيحات رعب أثناء انهيار هامات البرج المشيدة على الثرى بشكل مفاجىء وشاعرنا نظم قصيدة بشأن نكبة (أغادير) ومأساة أهلها:

أغادير: تشدنى اليك وشائج

من الدين والفصحى وصوت الأبوة

وماض تقاسمناه يسرا وشدة

وآت رسمناه بروح الأخوة

أغادير ان غامت سماك وأقفرت

رباك وماج الدمع في كل خيمة

وجفت أحاديث المساء وصوَّحت

زهور المنى فوق الشفاه الحزينة

فلا تيأسى: لن يجحد الأيك طيره

ومازال فينا خميل الأمومة

سنجعل من اطلالك اليوم قصة

ونبنى معاً صرح الحياة الجديدة

وللشاعر شعر وصفي رائع فقد عبر عن رسالة الديك في أبيات أربعة فقال:

رنا ديكي الى الأفق الموشىٰ
وغرد ثم صفق ثم صاحا
ونادى الناس حسبُكُمُ رقادا
فان الله قد بعث الصباحا
رقادكُمُ وموتكُمُ سواء
اذا ما الصبح في الآفاق لاحا
وعاد لعشه يختال عجبا
فقد أدى الرسالة.. واستراحا

وشغف قلب شاعرنا وهو في صدر شبابه بحب جارته الحسناء برغم انه كان يعيش في بيئة تحيط بها التقاليد والعادات الا أن هذا الحب لم يستمر فقد زفت الى ابن احد أعيان قريته بأمر والدها ورغبة اسرتها وفي ظل المأساة العاطفية تطلع الى فتاة اسمها «نجية» التى اختنقت في غرفتها على اثر حريق نشب في الدور الأول من العمارة التى كانت تسكنها الأمر الذى أدى الى اعتلال صحتها وموتها البطيء.. وله قصيدة بديعة من شعر الوجدان «شعر الغزل» نشرت في العدد (٤٢) مارس ١٩٧٧م من مجلة الثقافة الشهرية عنوانها (موعد لم يتم) تصور أحاسيسه ومشاعره التى كانت تضطرم في وجدانه وذلك بألفاظ واضحة مع تراكيب سهلة.. صورة لقلبه ومرآة لوجدانه:

ميعادنا الآن يا حبيبي
ولفحة النار في حشايا
وقد دنت ساعة التلاقى
لكنني لا أرى سوايا

* * *

فهل تساميت عن لقاني
ياباعث الشوق في كياني
أم خفت من لهفتى ووجداني
وفرحتى ساعة التداني
تَرَكْتَنِى للشجون وحدي
وللدجى حولى ارتياب
أسائل الليل عن حبيبي
وأين مِنْ لَيْلِي الجواب؟!

* * *

حتى تراميت فوق نفسى
وغام في عينى اليقين
وهدنى الشك في وجودى
فكل ما طاف بى ظنون

* * *

ياقلب غاليت في الأمانى
وغرك الوهم والخيال

شــــقـــــيت بالواقع المرجّى

فــهل ترى يســـعـــد المحـــال؟

ونال شاعرنا جوائز ثمينة لاشتراكه في المسابقات الأدبية وحضوره الدائم في المهرجانات الثقافية ومشاركته في الأمسيات الشعرية التى تقام في قصور الثقافة في مدن مصر وقراها فقد فاز في عام واحد بجائزتين من الجوائز الكبرى في مصر فاز في عام ١٩٤٨م بجائزة وزارة المعارف المصرية وجائزة الاذاعة المصرية في الشعر الغنائي.

وقد أدى فوز الشاعر بالجائزتين في سنة واحدة الى تسليط الأضواء عليه وبالتالى تألقه في عالم الشعر ويروى الشاعر (أحمد مصطفى حافظ) صاحب كتاب (شعراء ودواوين) «ان الشاعر القبانى فوجىء بوقوف سيارة تقف أمام دكانه وهبط منها رجلان ثم سأله احدهما ان يدله على الشاعر (عبد العليم القبانى) فأجابه بأنه هو عبد العليم الذى يسأل عنه وهنا سأل احدهما عما اذا كان قد اشترك في مسابقة وزارة المعارف فأجابه بالايجاب فقدم المندوبان نفسيهما له بأنهما (محمد فريد أبو حديد) و(عبد الحميد العبادي) وأعلنا انه الفائز الأول في المسابقة، ثم طلبا منه الحضور في دار الأوبرا ليلقى قصيدته (ليالي البحيرة) واستجاب الشاعر لطلبهما وحضر في الموعد المحدد وألقى قصيدته بزيه البلدى أمام جمهور الأدب والفن.. وبطبيعة الحال ان هذه الجائزة فتحت آفاقه وذاع صيته فانطلق في ميدان الأدب فصار ينشر في كل مجلة وجريدة مقالاته وخواطره ومقطوعاته حتى حصد عددا من الجوائز منها جائزة الشعر الدينى من وزارة الأوقاف سنة ١٩٥٧م كما حصل على جائزة الشعر الاجتماعي من وزارة الشئون الاجتماعية سنة ١٩٧٤م كما حصل على جائزة الابداع الشعرى من مؤسسة البابطين عام ١٩٩١م كما انه اصدر في حياته جملة من مؤلفاته النثرية اذكر منها:

١ ـ شعراء الاسكندرية في العصور الاسلامية.

٢ ـ رواد الشعر السكندرى في العصر الحديث.

٣ ـ البوصيرى حياته وشعره.

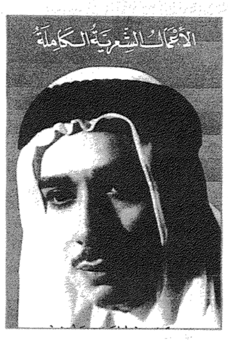
٤ ـ فخرى ابو السعود حياته وشعره.

بقيت كلمة أخيرة وهى ان الاسكندرية ودعت شاعرها الكبير في ظهر الاثنين الموافق ١٥/١/٢٠٠١م علما انه ولد في اغسطس عام ١٩١٨م بمطوبس ـ محافظة كفر الشيخ ـ تغمد الله شاعرنا بواسع رحمته ورضوانه ■

محمد عبد القادر فقيه

وانسانية العلاقات

□ إنّا اليوم لفي جيل أو خلف من الزمان - الا من لطف به ورُحم - بردت فيه العواطف الانسانية بين الناس الى حدّ التجمد .. وفقدت فيه قيم روحية مثل الوفاء والولاء والتراحم وحق القرابة والصحبة، دلالاتها العرفية وتطبيقاتها في الحياة، وتوارى أعيانها بفقد فقيد أو رحيل راحل ممن نتطلع الى قرب عودته أو بنكران وجحود ممن لا يرجى برؤه واستصلاحه.



وأعبّر بالبرودة على ما تواضع عليه الناس من استعمالها كناية عن الخواء واليبس والموت، وإلا فإن العاطفة الصادقة الحرّى، يخصّنا بها أهل المودة والصفاء، نحسّ حقا بردها في أكبادنا، وعلى أية حال فليس هذا هو المبتغى هنا، وإنما الابلاغ بالفكرة على أي الانحاء جاءت العبارة.

فمن ذا يعيد لنا مقومات إنسانيتنا ويذكرنا بما نسينا من صفات الأخوة الآدمية..؟ إنها الكلمة الشريفة حيث جاءت في إهاب موعظة مباشرة أو قصة للعبرة أو نموذج للإقتداء.. وحين ينهض الشعر بذلك، وهو ألصق بالقلب، يكون الأمر أحرى بإحداث أبلغ الأثر وتحقيق الاستجابة والقبول، والشعر لا يعلمنا من أين تؤتى المكارم فحسب، وإنما يعلمنا أيضا أن نحب وكيف نحب ولماذا، وحتى في حال الكره يجيب ديوان الشعر العربي قديمه وحديثه على كيف ولماذا وإلى أيّ حدّ.

وهذا ديوان يبعث بالرسالة تلو الرسالة ويجأر بنداء القلب ليعلمنا ما لم نتعلم من مجالس الدرس وموسوعات الفلسفة وكتب تهذيب الأخلاق، ويزيد عليها بما يشيع في وجداننا من ألق نبل النفس وصفاء السريرة وبما يبثّ من حزن مكتوم وبكاء



د. صالح جمال بدوي

مكة المكرمة - جامعة أم القرى

راحم على من حُرم الخيريّة والقدرة على الحب، ولا يعطي هذا إلا ذوا القلوب الذين يعيشون لأنفسهم وللناس، ولا يستسيغون سعادة لا تعم الكل.

ولهفي .. على من يحمل في هذا الزمن البائس الأجرب قلبه على يده، فيرهنه لدى أول طارق يدق باب عالمه، ويودعه عند كل من هفت ـ لطيب نفسه هو ـ إليه نفسه.. وقد يعود عليه ذلك الرهن والإيداع بالغنم والسعد، فيثمر حبا خالصا مستداما، وودا ناميا متبادلا، أو يرجع إليه صنيعه بالغرم وخيبة الأمل فتكون التعاسة والانتكاسة.

وإذا ما كان الراهن شاعرا جياش النفس ممتلئا بالأحاسيس المرهفة والوجدان الزاكي، فلن يكون العائد من مغبة الرهان الخاسر إلا مزيدا من الانكسارات والهزائم، تؤرق ليله وتقضّ حلم يقظته في نهاره، وتطيل سلسلة أحزانه وأشجانه، بما لا يبرئه منها واحتمال غصصها إلا ما يكون عليه من صفاء نفس وشفافية روح وطمأنينة إيمان.. وكفى بالاخيرة ملجأ ومنجى.

أما لماذا يمحض هؤلاء خالص ودّهم دفعة واحدة لكل من يعزف على الوتر (الهزّاز) ويمنحون ثقتهم أول من يأنسون فيه الأهلية وإثمار المعروف فذلك ـ وهذه حال شاعرنا ـ لثقة يطمئنون إليها في أنفسهم وفراستهم، ولأنهم ثانيا يرون الاخرين بما يرون به، بل بما هم عليه أنفسهم من نبل وصفاء وتجرّد.. وأمثال هؤلاء إما أن يحبّوا أو يكرهوا، ولا سبيل لما بين بين.. فذلك دأب من يضمر ويظهر، وهؤلاء الباطن والظاهر منهم سواء، أو لعله يكون من شأن من يريبه ترقب العاقبة وتوقع الصدمة وخيبة الأمل، فمن ثم يكون التحسب والحذر رائده ونصب عينيه فيما يهب من مشاعره للآخر.. ثم هو لا يعطي حينئذ من عاطفته إلا النذر اليسير: يحبّ أو يكره هوناً ما.

ولم أجد لذلك ولا للحذر عند محمد عبد القادر فقيه مكانا في حساباته ولا في حدسه، فما هو موجود عنده من مفردات قاموس التحسب والحذر هو من قبيل الاصطناع ومحاولة حمل النفس وتوطينها على ما ليس من جبلتها في تقديم الظن الآثم بالناس.

حتى إذا سامها كيد الصديق هوتْ
من طول ما وثقتْ فيمن بها غدرا
قد يُهزم الحبّ إن أبدى سرائره
وقد ينال المنى لو قدّم الحذرا

فإلى أين تأخذ صاحبنا الخيبة حين تنهزم أمانيه ويخذله من البشر من لهم من صفات البشرية الطينية أكثر مما لهم من الانسانية من تسام وعلوية ونقاء وارتقاء؟ لم يكن الهروب ولا الاستسلام ملتمسا عند الشاعر من بين أساليب التعزي والعلاج؛ لا إلى الانغلاق على الذات اعتزالا، ولا الانكفاء على الطبيعة شاكيا باكيا ملتمسا الشريك المستجيب، ولا اللواذ بالمرأة أو الهروب الى الماضي.. كما الحال عند معظم الرومانتيكيين. فإن لكل هذه (الملاجيء الآمنة) عنده قضاياها ودواعيها، وليست الشكوى من بينها، ولا الاستسلام واليأس مصيرها.

أما وانه ليس في واقع الأمر هروب ولا وهن ولا

انتكاص، ولا كذلك ابتلاع الذلّ والضيم على مضض، فلا مناص إذن لغير الصمود والإصرار والمواجهة بالعتاب؛ قاسيه وليّنه، وفي ذلك ما فيه من دلالة على طول الأمل والعزم على مداومة تحريك قوى الخير في الناس، لتتقد جذوتها مهما استكنت تحت رماد حقد أو غدر أو استهانة. وتلكم عزائم شاعرنا، حبا وسخطا ولوما، ومن أوتي مثله سجيّة البذل والسخاء والجود بالمهجة، أوتي القوّة النفسية على الاستبسال في النضال والجرأة في المكاشفة والبوح بما في الضمير من سخط وكره وتنديد.. تماما كما يفعل في حال الرضا والوداد.

وبهذا يستعيد فؤاده أوفر ما يكون عافية ورواء وأملا في تحسن الحال. فحين تحدق بالشاعر دواعي الإحباط والخيبة مما يرى من استيلاء الشر على البشر يلجأ الى عرائس الشعر وحورياته ينشدها التعزّي والتقوّي على مواصلة المسير، ولا تشكل ملاجىء الهروب التى ذكرنا أكثر من مرافىء ومحطات يستريح عندها قليلا ويستروح من نسائمها ما يعينه على معاودة البوح والتبليغ بالرسالة، فلا تستغرقه هي ولا هو يغرق فيها مع أن لكل عذاباته:

أيها الشعر يا نجيّي وسلوا
ني ويا منقذي من الأوصاب
يا سميري الوفيّ إن نزف القلـ
ـب جروحا من رفقتي وصحابي

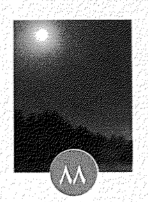
وحين تهتز الثقة بالجدوى يعزم على مهاجرة النظم، بيد أن هذا مالا سلطان له عليه:

لم يعد فيك أيها الشعر سلواني
ولا منقذي من الأوصاب
فإذا قوّضتْ بقلب دواعيك
فقد بات مقفرا كاليباب

فالقلب منه خصب مترع بالمكاره والرغاب؛ ولابد مما ليس منه بد.. هو يملك عدّته، فقد أنس في نفسه رغم شكواه جلدا ومصابرة على المضي فيما هو مرسوم له من قدر، لا ريب أن حكمة خفية وراءه تمحو بثمارها ولطفها ما يعلق بالنفس من كلل وسأم:

زعموني صابرا مستسلما
ليتني كنت جزوعا وعصيا
ليس لي غير اصطباري ملجأ
آه لو كنت عن الصبر غنيا
قدر قد فتّحت أبوابه
ربّ باب أعجز العزم العتيا
أيها الماضي ولا لقيا لنا
أطبق اليأس على قلبي وغاما
إنني أدري .. وأدري أننا
لن نلاقي بعضنا إلا رماما
بيد أني أجهل السر الذي
أيقظ الغصّة في عمري وناما
منتهى علمي وجهلي أنه
(حكمة) قد أترعت نفسي سأما

وفي الديوان من بعد (وقد صدر بعنوان الأعمال الشعرية الكاملة في طبعتها الثانية بتقديم وتذييل بقلم صفي الشاعر الأديب الوديع والباحث المحقق الاستاذ عبد العزيز الرفاعي رحمه الله) كثير مما يمتع فيسبي أو يشجي ويأسي، من أناشيد أحاديث القلب وأشجانه، وشعر الصبا والشباب والابتهالات وما أفاءت به علائق الصداقة، الى بكائيات قضايا الأمة ■



من كتاب (حياة الحيوان للدميري)

(كتاب جليل) ..

يقول صاحب كتاب «كشف الظنون» إن كتاب حياة الحيوان للدّميري تأليف الشيخ كمال الدين محمد بن عيسى الدميرى المتوفي سنة ٨٠٨ كتابٌ مشهور في موضوعه، ويجمع بين الغث والسمين، لأن مؤلفه عالم في الدين واللغة، ولكنه ليس من أهل هذا الفن، وقد صدق ما قاله الرجل، لأن كمال الدين قد استوعب ما شاع في عصره عن عالم الحيوان، ولا ينتظر في القرن الثامن أن يكون التحقيق العلمى في هذا المجال قد بلغ مداه، وليس الدميرى واحداً في بابه، فأكثر الكتب حتى التى ألفت في القرن العشرين تجمع بين الغث والسمين، والكمال لله وحده، على أن الذى أعجبنى في سلوك المؤلف أنه لم يقبل وظيفة علمية في عصره، مما يتدافع إليه كبار العلماء، فكان بعيداً عن الخضوع السياسى لأصحاب الأمر، وظل يرتزق من كسب يده عن طريق (الحياكة للأثواب) وهو تذود جميل.

ودميرة قرية من قرى مُحافظة الدقهلية، وقد أنجبت نفراً من العلماء والمفكرين وفي طليعتهم الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة رحمه الله، وننقل هنا من طرائف الكتاب ما يلي:

« القط الأعمى »

كان العلامة ابن بابشاذ النحوى، وهو أحد أعلام الأدب والنحو في زمانه، وآراؤه في هذا الباب مشهورة متداولة، كان يجلس على سطح جامع عمرو بن العاص بالفسطاط يتناول الطعام، وقد دنا منه قط فرمى له ببعض ما يأكل، فحمله القط سريعا ورجع في أمد قصير لا يتيح له أن يأكل ما أخذ، فرمى له الشيخ بنصيب آخر، فحمله، ورجع في أسرع من البرق، وتكرر ذلك مرارا، فتعجب الحاضرون من أمره، وأصرَّ بعضهم على متابعته، فإذا القط يأخذ الطعام إلى مكان قريب يجلس فيه قط أعمى، فيقدم إليه ما أخذ، ثم يرجع آملا أن يجد من الطعام مثل ما أخذ!

كان هذا الحدث على ضآلة موضوعه مثار تعجب كبير، وقد تحدث عنه الناس، وهو لعمري درسٌ ألقاه الحيوان الأعجم ليتعلم منه الإنسان.

« مجير أم عامر »

مجير أمّ عامر مثلٌ عربي يضرب لمن قابل الحسنة بالسيئة، وأظهر مالا يُحمد من العقوق، وقد روى الدميرى قصته، فقال: «إن قوماً من البدو خرجوا للصيد في يوم حار ملتهب السعير فعرضت لهم الضبع (وتكنى بأم عامر) عند العرب ، فطردوها،

وجعلوا يتعقبونها ليمنعوا شرها المتوقع، فلجأت إلى خباء أعرابى فاقتحمته، فنادوْا صاحبه يحذرونه من جار السوء، فخرج إليهم، فقالوا له عن الضبع، فصاح، لا والله لا يمسها أحد، هي صاحبتى وقد استجارت بي، فلابد أن تجد الأمان، ولن تصلوا إليها وقائم سيفى في يدى، فتركوه، وقام إلى ناقة فذبحها، وجعل يقدم لها الطعام، والناقة هى كل ما يملك، ثم نام جوارها مستريحا، فجعلت تدور في الخيمة، وتخرج وتدخل، حتى سطت عليه، فبقرت بطنه وهو نائم، وأكلت أحشاءه، ومضت إلى سبيلها، وجاء ابن عم له يزوره، فوجد القتيل بأسوأ حال، فتحدث بما رأى، وضرب بها المثل في مقابلة الحسنة بالسيئة وكان مما قيل:

ومن يصنع المعروف في غير أهله
يلاقى الذى لاقى مجير أمّ عامر

« **اسماء القط** »

للقط أسماء مختلفة يراها القارىء في هذه الطرفة التى رواها الدميري «خرج أعرابي الى الصحراء فصاد قطا لم تقع عليه عينه من قبل، فظنه صيدا ثمينا سيجلب إليه الثراء إذا باعه في السوق، فحمله مباهيا، وانطلق إلى مكان الباعة، فتلقاه رجل فقال له: ما هذا السنور؟ ولقيه ثان فقال ما هذا الهر؟ وثالث، فقال ما هذا القط؟ ورابع فقال ما هذا الضيون؟، وخامس فقال ما هذا الخيدع؟ وسادس فقال: ما هذا الدّم؟.

فقال الأعرابي في نفسه إن هذا الذى كثرت اسماؤه لابد أن يكون شيئاً عظيما وحدث نفسه بأنه لن يبيعه بأقل من مائة درهم، فلما أتى به للسوق، تلكأ الناس في الإقبال عليه، فعرضه ملحّا، فقال له أحدهم آخذه بنصف درهم، فرمى به الأعرابى غاضبا، وقال لعنه الله، ما أكثر أسماءه، وأقل ثمنه!

د. أبـــو حســـام

المنصورة - مصر

يخيل إليّ أن القصة موضوعه حكاها أحد اللغويين جامعا أسماء القط في طرفة أدبية.. ومن الطرائف التى رواها الدميرى عن القط أنه يغسل جسمه بلسانه، وكذلك تفعل القطة بأولادها، وإذا جاعت الأنثى أكلت أولادها، وهذا ما نراه الآن، وإذا ألف القط منزلا حرّم على غيره أن يدخله، وتقوم المشاجرة بينهما إذا لم يرحل الزائر الغريب، وان أخذ شيئا مما يأكله أصحاب المنزل عند غيبتهم ستره في مكان بعيد كيلا يروه فيضربوه، وعلى ضآلة جسمه يخافه الفيل، ويهرب منه، وقد روى أن جماعة من المقاتلين في بعض الحروب، أعدّ لهم العدو جماعة من القطط اندفعت إلى الفيلة ففرت هربا بمن تحمل من المقاتلين! وأنا أتساءل: هل وقع هذا فعلا؟.

(السمندل)

نقرأ في كتب الأدب أن السمندل طائر لا يحترق بالنار، بل يمكث فيها مستريحا كما يمكث السمك في الماء.

يقول الدميرى مؤكدا ذلك «إذا اتسخ جلده لا يغسله أصحابه إلا بالنار تشتعل فيه فتنظفه، ويكثر في بلاد الهند، ويبيض ويفرخ في النار، ويعمل من ريشه مناديل تحمل للبيع في بلاد الشام، فإذا اتسخت المناديل طرحت في النار، فتعود نظيفة كأنها غسلت بالماء والصابون، ثم يروى عن ابن خلكان أنه شاهد بنفسه قطعة منسوجة من ريشه على هيئة حزام الدابة فجعلوها في النار، فما أصابتها شيء فغمسوا أحد جوانبها في الزيت ثم تركوها على فتيلة

السراج فاشتعل وبقى السراج زمنا طويلا، حتى أطفئوه فإذا بالحزام على حاله لم ينقص منه شيء.

(من طرائف النمل)

النمل عظيم الحيلة في طلب الرزق، وإذا وجد بعض الفتات المنشود أنذر الباقين ليأتوا اليه، ومن طبعه أنه يحتكر قوته من زمن الصيف لزمن الشتاء، وإذا خاف على الحبة التلف قسمها قسمين كيلا تنبت عودا أخضر، وإذا خاف على الحبّ العفن أخرجه إلى الشمس حينا، وإلى ضوء القمر بالليل حتى يصله الهواء ليلا والحرارة نهارا، ومن أسباب هلاكه ظهور أجنحته لأنه يطير بها فتصطاده العصافير، ولذلك قال أبو العتاهية:

واذا استوت للنمل أجنحة
حتى يطير فقد دنا عطبه

ومن عجائبه اتخاذ القرية تحت الأرض، وفيها منازل ودهاليز، وطبقات معلقه يملؤها بالحبوب والذخائر، ويحفر قريته بقوائمه وهى ست فإذا حفرها جعل فيها تعاريج لئلا يجرى إليها الماء عند المطر، وليس في الحيوان ما يحمل أضعاف بدنه غيره، ويحمله الشره على تكلف حمل نوى التمر وهو لا ينتفع به ويجمع غذاء سنين، مع أنه لا يعيش أكثر من سنة.

(طرفة تاريخية)

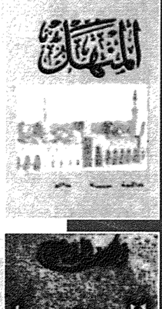
ولا يقتصر الدميرى على الفوائد الحيوانية فقط بل ينتهز أدنى المناسبات للحديث عن الشعر والتاريخ، ومما رواه عن الحجاج بن يوسف الثقفي هذه الطرفة:

روى ابن أبى الدنيا عن طاووس أنه قال: بينما أنا بحلة استدعانى الحجاج فأتيته فأجلسنى الى جانبه، وأتكأنى على وسادة، وبينما نحن نتحدث سمع صوتا عاليا بالتلبية، فقال: عليّ بالرجل، فأحضر، فقال له: ممن الرجل؟ فقال: من المسلمين، فقال: إنما سألتك عن البلد والقوم، فقال بين أهل اليمن، فقال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ يعنى أخاه وكان واليا على اليمن؟ قال: تركته جسيماً وسيما، لباساً للحرير ركابا، خراجا، ولاجا؟ فقال إنما سألتك عن سيرته، فقال: تركته غشوما ظلوما مُطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق، فقال الحجاج: أتقول فيه هذا، وأنت تعلم أنه أخي؟ فقال الرجل: أتراه بمكانه منك، أعز منى من مكاني من ربي، وأنا مصدق نبيه ووافد بيته العتيق؟، فسكت الحجاج، وذهب الرجل من غير إذن، قال طاووس، فتبعته فقلت: الصحبة، فقال: لا حبا ولا كرامة، ألست صاحب الوسادة، الآن عجبت وقد رأيت الناس يستفتونك في دين الله، قلت: إنه أمير مسلط أرسل لي فأتيته كما فعلت أنت، قال: فما ذلك الاتّكاد على الوسادة في رخاء بال؟ هلا كان لك واجب النصيحة، وقضاء حق الرعية بوعظه، قلت: أستغفر الله وأتوب إليه ثم أسألك الصحبة، قال: غفر الله لك، إنّ لى مصحوبا شديد الغيرة عليّ، ولو أنستُ بغيره رفضنى، ثم تركني وذهب.

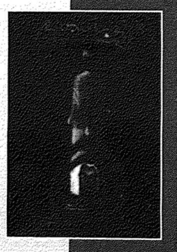
(ذكاء سليمان)

قال محمد بن كعب القرظى، جاء رجل إلى سليمان بن داود عليهما السلام، فقال: يا نبي الله، إن لى جيرانا يسرقون إوزّى، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطب الناس فقال: ما بال أحدكم يسرق إوزّ جاره، ثم يدخل المسجد، والريش على رأسه؟ فمسح رجل رأسه بيده، فقال سليمان: خذوه، فإنه السارق وهذا بعض ذكاء سليمان ■

للقديم روعته







أسطر في الفن والإبداع والكلمة المنتقاه.. نستخرجها من صفحات (المنهل) عبر عقوده الماضية.. نعيد قراءتها معاً.. نستعيد بها إبداع السالفين ممن مضوا.. والباقين ممن احتضنت المنهل أقلامهم.. ما أروع وأبدع وأجمل أن يقلب المرء صفحات ظنها طويت، وكم تكون القراءة الثانية أعمق دهشة من الأولى.



النظام والتخطيط الأدبي

□ لنقف برهة زمنية على باب لغتنا العربية البليغة ذات المعانى العميقة بالالفاظ الوجيزة لنعيش مع اساطير تلك الدار السامية الخالدة على ممر السنين والاحقاب حينا من الوقت فنتحدث عن آفاقها عن النظام والتخطيط وما اتفق عليه علماء اللغة في تعريفها.

في «المصباح المنير» للفيومي يقول: «النظام ـ بالكسر ـ ونظمت الامر فانتظم اي اقمته فاستقام وهو على نظام واحد أي غير مختلف ونظمت الشعر نظما».

ويقول محمد بن ابي عبد القادر الرازي في كتابه «مختار الصحاح» ان الانتظام هو الاتساق.. ولسان العرب موسوعة لغوية دسمة قد اكتنزت معرفة وقد طبقت علما جمع فيها «ابن منظور» اكثر الالفاظ وأغربها وبسط فيها كل معنى عميق، يقول في كلمتنا المنشودة: «النظم: التأليف ـ والتنظيم مثله ـ ومنه نظمت ونظمته ـ ونظم الامر على المثل وكل شيء قرنته بآخر» ويزيد فيقول: «كذلك هو في كل شيء حتى يقال ليس لامره نظام أي لا تستقيم طريقته».

أما معنى التخطيط فقد اتفق اللغويون على انه بمعنى التسطير والتهذيب والتحديد.

من لغتنا الجميلة نقتبس المعنى المراد، وفي التعريف عينه نغوص في حقيقته لنعرف ماهية التخطيط والنظام في جواهر اللغة العربية المتبلورة في تلك الاسفار النفيسة السالفة الذكر، ثم اثرها على الحياة.

انهما لفظان يتكافأ معناهما تكافؤا منطبقا كل منهما على الآخر انطباقا كاملا لوجود «التسطير» في التخطيط «للنظم» في النظام.. والتهذيب في اللفظ الاول «للآمر» في اللفظ الآخر المراد اقامته بالتهذيب المعنى بالروية والتعقل لاسلوب التشييد المنتج الامر القوي الصلب الصارم الذى لا يذل فيه صاحبه ولا تفسد محجته به يكافيء المعنى الخاص لكل صورة من صور النظام المتقنة.. وهو تحديد كل نظام خاص لشكل خاص ينفرد عن بقية الاشكال المتعددة الأخرى من الانظمة في مجال الحياة العامة.

اذن لفظان مختلفان في معنيين متطابقين يحق لنا الدخول بعد هذا التفسير ودمجها تحت ظلال النظام الى جوهر الموضوع.

بعد ذلك نعرف ان النظام له من الاهمية القصوى في تاريخ البشرية شأن عظيم برز على مسرح الوجود ليمثل رواية الاتساق لبلوغ المرامي العظام، فاذا به مقياس لحضارة الانسان وثقافته به يعيش عيشة رضية في بحبوحة ورغد ولاجله ان يعيش، فنرى ان حياته الفكرية والعملية ان لم يكن لها ذلك النظام فانها حياة مبعثرة قلقة مريضة متأوهة من التعاسة والانتكاس، في حاجة ماسة الى ذلك الهواء الناجع.

ويجدر بنا القول: ان النظام للحياة ميزان حساس به نقيس كل متطلباتها لأن خاماتها سائرة بنظام الهى من لدن حكيم عليم مسطر في روح سفرائه ومهذب بارادته ومحدد بقدرته.

فلننعم النظر في جميع الكائنات الموجودة في محيطنا الحيوي لنرى أن لكل منها نظاما خاصا تسير عليه، وترتسم خطاه، وتنهج هداه، فان تأخرت عن السلوك في صعيد النظام لم تستطع ان تحيا حياة أو تبقى بقاءا بل مآلها الفناء والتأخر عن ركب تقدمها الملموس.

مثالان طريفان من وحي الشعر والادب العربي - هذا الكائن الخصيب - أتناولهما من صميمه وارفعهما من واقعه.. عمود الشعر العربي - مثلا - أو الاصول والانظمة الادبية التى جاءت نتيجة العبقرية المبتكرة.. وصقل الموهبة بالاهتمام بما وقع تحت يدي ابنائها من آداب اجدادهم القدماء في العصر العباسي - العصر الذهبي الزاهر - فهم الذين تناولوا حقيقة المفاهيم الادبية بالنقد النزيه، وبتسبير الغور في ادراك الابداع الفني لتوافر العناصر النقدية المتكاملة في حقيقتهم الطاهرة من كل دنس للحب الذاتي.. لقد أدى حبهم للعلم وايثارهم للادب الاصيل الى ابرازه في اجمل اطار يحمل في وسطه الصور العربية للواقع الادبي العام، فقرروا قوانين ثابتة استخلصت من الآداب القديمة التى تدل على تأثر المقررين بتلك الآداب ، وارتياح اولئك العباقرة من تلك النغمات الموسيقية التى تغلغلت في القافية العربية في الشعر الجاهلي نتاج السليقة والبديهية، فحددها «الخليل بن أحمد» في بحوره الشعرية الشهيرة ، وهذبت عبقريته ذلك التحديد فسطرته في سجل الخلود الادبي، وصارت خطوات عريضة لا يحيد عنها إلا كل من نامت موهبته عن بروز العبقرية المساوية لتلك العبقريات المبتكرة لتلك الاسس..

وتعاقبت الاجيال بعد ظهور «علم العروض» الذي ابتكره «الخليل» فالتمسوا خطاه مترفقين بذلك «العلم» بالتنفيذ والتقيد، فأجادوا أيما إجادة وتقدموا في هذا المضمار اي تقدم لنهجهم تلك النظم التى ابتكرها رب العبقرية وعظيم الفكر وتاج الادب وصولجانه وسلطانه الناجح مؤلف كتاب «العين» حتى سجل التخليد الادبي العالمي الابدى على مسمع الدهر صفحة ناصعة البياض جلية المعالم للأدب العربي بفضله وجهاده في سجلها الخالد، واتخذتها بقية الصفحات في ذلك السجل نبراسا تضيء بها طريقها وشمسا تهتدى بأشعتها الساطعة.

وفي حياتنا المعاصرة ادلهمت العبقرية وخفت نور الموهبة في أجسام هامدة الروح ، جامدة الحس ارادت اجتياز ذلك الطريق المنظم فلم تستطع العبور عليه لوقوف تلك الانظمة والقوانين «حجر عثرة» امام العقول الفارغة والاجسام التى لم تتغذ، فتاهوا في متاهات عمياء تحت تأثير تلك الصفحات التى اعترفت بالفضل لصفحتنا البيضاء الخالدة، وبعامل الايجاب من هذه النفوس الضعيفة التى لم تكترث بالمحافظة على اسس ثقافة وآداب آبائها الأولين،

فركعت طائعة مريدة بالقوة لا بالفعل ان تصبح في عداد تلك النفوس القوية المحافظة على التراث والمقدرة لآداب السلف المجيد، فقالت بأن العمود الشعري يعيق بروز مواهبها وتفتح عبقريتها تاركة وراءها كل النظريات التى ابتكرها المفكرون، وكل الاقوال والامثلة التى ضربها اهل الفطنة في احترام القيود وتقديس الانظمة وتطبيقها.. لقد تركوا المثل الفرنسي القائل «لا يحيا الفن بدون قيود» وراء ظهورهم.. وكم من مضاد لصاحب هذا الرأى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الذي يقول: (من خلالها «أي الانظمة والقيود» تظهر عبقرية الشاعر وموهبته الاصيلة وفطرته الشعرية المتميزة، والحرية في الفن هي استعمال الشاعر الموهوب اقصى عبقريته من خلال تلك القيود ومن ثم تبدو عظمة الفن).

لقد عجزت بعض العقليات في قرننا العشرين عن الابتكار ولم تصقل موهبتها بالاهتمام والدراسة لآثار الاجداد لعلهم يجدون مندوحة ينفذون من خلالها الى الابتكار كما فعل عمالقة الفكر والفن في العصور الغابرة.

نعم عجزت عن الاتيان بما أتت به عبقريات رواد المجد الأدبيّ السالف وصيارفة كلامه، فكبح جماحها امام محكمة العدل الفنى الذى ارتقى منصته العقاد والمازني وكل موهوب وشاعر بالفعل لا بالقوة، فلم ينبسوا ببنت شفة امام قضاة الادب المعاصر ومشرعيه، وسيتم خسفها حينما ابتدعت فكرة تدعو الى تحطيم النظام في آداب أمتهم المهذبة، ومن ثم جاء انتاجهم قلقا حائرا ظمآن جائعا هامدا جامدا في صورة ناطقة بحقيقتهم المريضة غير أولئك الذين استرسلوا في مسيرة الاولين وامسكوا بزمامه جادين بمواهبهم الاصلية وعبقرياتهم المبتكرة فارسلوا ادبهم في سماء العلم بفكرهم الثاقب وعلمهم الغزير ومغزاهم الرفيع بنبضات من الحكمة التى صيغت آدابهم وثقافاتهم من خلال آثارهم الحية.. اما المجددون، اما اليائسون من نعمة القدماء لعدم رعايتهم لتلك النعمة ولاستخفافهم بها الذين ادعوا الابتكار فاذا بهم يخطبون والجماهير من حولهم نائمة تتثاءب، لانهم «ينظمون» بلا نظام فحاقت عليهم لعنة الأدب المنير والشعر الجميل.

يقول الشاعر المصري صالح جودت في قصيدته التى يخاطب بها شاعر البيان العربي بشارة الخوري وهي بعنوان: «الاخطل الصغير»:

كالقريض الجديد، منعدم الوز
ن، عجول الخطى، قبيح الاثارة
همجي الخيال، مضطرب الجر
س، غريب الصدى، مجاف اطاره
أجوف اللفظ في فراغ المعاني
كافر النهج قرمزي العباره
أين هذا الجديد من قمر اللـ
ـه، ومن شعره ، سنى وطهاره

محمد رضا منصور نصر الله

عدد/ شعبان١٣٩٥هـ/أغسطس ١٩٧٥م

أدبيات :

الجوانب الفنية في نثر المعري

□ كان أبو العلاء المعري ذا عبقرية جامعة، وظاهرة فذة فريدة في الأدب العربي وقد حظي الرجل بما هو أهل له من عناية الباحثين واهتمامهم بآثاره، منذ القدم ، فلما جاء العصر الحديث اشتدت العناية بأدبه، وقويت مرتها لأسباب ليس هذا محل تفصيلها، على أن هنالك جانبا في مجال العبقرية المعرية لم يحظ بالاحتفال المطلوب وذلك هو نثر ابى العلاء، وسنتناول هذه الجوانب الفنية في نثره، وانت تعلم أن معظم تلك الثروة قد طواها عدوان الزمن، وغيبت الخطوب خرائدها وفرائدها.

كانت لأبي العلاء في النثر آيات، وسبحات تعنو لها جموع البلغاء وتقر ببلاغتها حشود الفصحاء، وحين تعمد إلى أي نص مما كتبه ابو العلاء تجد فيه الوانا من الفنون وضروبا من العلوم، وانت تلمس منذ الوهلة الاولى ان اشمل تحديد لكتابة أبي العلاء هو: قولنا ان اسلوبه من الصعب الممتنع ، واشهد ان المرء يقف أمام تلك السطور مشدوها معجبا بذلك الضرير الاعمى يتدفق علما وحكما ثم لا ينسى أن يجعلك تستمتع بالجمال المغلف بالكلمات العميقة والعويصة في اللغة العربية.

اما مزيته الكبرى فى كتابه (الفصول والغايات) الذى يمثل النضج الفنى والفلسفي لعقلية المعرى وهو يحتاج الى دراسة خاصة على أن هذا لا يمنع من القول ان «الصابرين» على قراءة نثر المعرى قلة لأن ابا العلاء يتميز بأنه يجمع في كتابته بين مختلف الابعاد والمفاهيم والالفاظ فهو مثلا يصر على زخرفة بيانه بالمحسنات اللفظية ثم يجمع اليها اللفظ الغريب القليل التداول في الاوساط الادبية وواضح ان من خصائص الكتابة العلمية التى تجعلها واضحة خلوها من الزخارف التى قد تصرف الذهن عن المعنى المراد، وكان أبو العلاء لا يحفل بهذا فكان يضع للمعانى العلمية ما يشاء من الالفاظ غير المألوفة.

وبين يَدَيَّ نسخة من رسائل المعرى مطبوعة في المطبعة الادبية ببيروت سنة ١٨٩٤م ومنها اقدم لك الشواهد على ما قلته آنفا.

يقول ابو العلاء (ومن نظر في كتاب يعقوب وجده كالمهل الا باب فعُل وفَعَل فانه مؤلف على عشرين حرفا، ستة مذلقة وثلاثة مطبقة، وأربعة من الحروف الشديدة وواحدة من المزيدة ونفيتين الثاء والذال، وآخر متعال والاختين العين والحاء والشين مضافة الى حيز الراء).

وما أريد لك أن تنفذ الى هذه الدقائق ـ التى لا شك في ان ابا العلاء كان ضليعا فيها ـ ولكنما اريدك ان تنظر الى ابى العلاء حين يريد التعبير عن موضوع علمي كيف يسلك اليه هذه السبيل المحرجة الضيقة، التى كلها تعاريج ودهاليز مظلمة بسبب الغريب والبديع اللذين كلف بهما ابو العلاء.

وفي كتابة المعري اخيلة جميلة تشد المرء اليها

وتدهشه بل هي ترضى فيه نزعة الجمال، وخير مجالي هذا الخيال كتابه «الفصول والغايات» وان لم تخل سطوره من هذا الخيال الذى لا يتفرد أبو العلاء باختراعه واستعماله، وعيب الخيال في معظم المواطن التى يزج به أبو العلاء فيها انه معترض يأخذ بزمام ابى العلاء فيجعله يتنقل من صورة الى اخرى، والقارىء متضجر ينتظر الاوبة من هذه الرحلة التى افسدت عليه انتظام الافكار وان كانت رحلة موفقة سعيدة، ولعلك تدرى أن من مميزات الشعر العربي الاستطراد في الوصف يعرض للشاعر فاذا هو يبدأ في تشريح الفكرة الجديدة ويعود وقد انبهرت انفاسه فلا يزيد في تمام المعنى على بيت واحد والامثلة على ذلك كثيرة فعد عن ذا وانظر كيف يتفنن ابو العلاء في نقله الى النثر حين يقول: (ما ذات طوق لا تنزعه وبرد من الربيع ليست تخلعه، جاء الوسمى لها فأرنت، وبكت شجوها لا تغنت، عالية ذؤابة فنن غصن، فهى لا في السماء ولا في الارض، تكرر القيل، وتنطق الخفيف والثقيل، شوقا الى هديلها منى الى مشاهدته)، ونحسب ان الرسائل لم تكن سوى مجلس يريد ابو العلاء أن يبرز فيه الامور التالية:

١ ـ تضلعه المكين من النحو والصرف.

٢ ـ روايته للشعر العربي القديم.

٣ ـ علمه بأحوال الاجتماع لدى العرب قبل الاسلام.

فائز محمود أبا

شوال ١٣٩٥هـ/نوفمبر ١٩٧٥م



وحدة العرب

□ قالوا: انك عدو للقومية العربية، فقلت: بل قوميتى الأمة المسلمة، ثم قلت لدعاة الوحدة العربية: لنبدأ في الطريق الصحيح ثم ننطلق منها الى الوحدة الاسلامية الشاملة.. وفي حوار نفسى وتصور لواقع الأمة العربية والاسلامية تمخضت عنه هذه الأبيات المتواضعة، فقلت:

من دوحة المجد من شماخة القمم
من منبت العز من خفاقة العلم

نادى المنادي الى الايمان فاستبقوا
واسوا جراح أسيرٍ تاه في الظلم

قلبي جريح بداء العرب ملتهب
وفتنة القوم أدهى من أذى السقم

ما للزعازع تجرى في مواكبهم
تحثو السموم بداء قاتل عمم

ايَّان وحدتهم ايَّان جمعهمو
والقوم في حالك كالموج ملتطم

فالعرب تحيا حياة الليث في قفص
قد زج في ساحة الأهوال كالنعم

مجد بناه أسود من أوائلنا
تضمخ اليوم بالنقصان والتهم

واستفحل الغدر بل أمسى يشاد به
دويلة في ثرى مجدى وفي حرمى
تلك اليهودية الشوهاء مطمعها
أن تستبيح ديار العرب والعجم
لا مجد للعرب ما دامت حناجرهم
في كل أمر تنادى: (هيئة الأمم)

* * *

يا أيها العرب أحيوا نهج شرعتكم
من طارف العز أو من تالد الكرم
وبرهنوا للعلا أهداف وحدتكم
حتى تماسك بالحافات واللجم
أما البناء على الفوضى بدون هدى
فقد سئمنا فضول القول والكلم
والقول ما لم يكن بالفعل مقترنا
فانه حُلُم في حيز العدم
فهل لكم وحدة تبنى على أسس
من العدالة والاسلام والحكم
من منبع النور تستسقى مشاربها
لا من رؤى الغرب في العادات والنظم
أقولها من هنا شماء ناصعة:
بالدين نرعى مقام العدل والذمم
لا وحدة اليوم ما دامت منكسة
أعلام أمجادنا في القدس في الحرم
الدين منطلق الاصلاح منبلج
بفجره الساطع الوضاء في القمم
ودينننا ليس يرضى أن نمد يدا
ذليلة السلم للمستعمر النهم
وان نظل ضعافا لا كيان لنا
يبنى على منهج الاصلاح والقيم

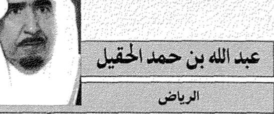
* * *

يا قوم نادوا شعوباً عمها وهن:
ان ليس هذا من الأخلاق والشيم
أيدى الكريم اذ الباغي ألم بها
تفتر أسيافها مخضوبة بدم
تأبى الاشاوس أن يُحْتَل معقلها
وأن تلين لبطش الغاصب العرم
فأيقظوا الوعي من كابوس غفلته
بزاجر من ذرى الأمجاد محتدم
ان المبادىء والأخلاق سنتها
تبنى الشعوب وترعى حرمة الأمم

د. زاهر عواض الالمعي

عدد/ جمادى الآخرة ١٣٩٩هـ/ مايو ١٩٧٩م

مسك الختام



عبد الله بن حمد الحقيل
الرياض

العربية وطوفان المصطلحات الأجنبية

□ اللغة العربية تواجه اليوم غزوا فكرياً، فعلينا أن نواجه ذلك الغزو من جميع جهاته، ووجهاته، فهي من أهم ملامح شخصيتنا وهويتنا وهي لغة ديننا الاسلامي.. والناظر في الوضع اللغوي لدينا يجد اليوم ان اللغة الانجليزية قد ضايقت اللغة العربية بل قد دخلت الى المنزل والمدرسة والمتجر والمستشفى والسوق والفندق والمطعم، وبدأت تتحكم في كثير من أمور ومناحي حياتنا، حتى ان الكثير من المؤسسات والشركات تشترط للوظيفة وان كانت لا تستدعي اللغة الأجنبية وفي كثير من الأماكن والمستشفيات والفنادق يتبادل فيها اللغة الانجليزية كما ان لوحة الاعلانات كتبت باللغة الاجنبية وهكذا طغت اللغة الانجليزية على حياتنا.

كما سرت الى الألسنة والأقلام عشرات بل مئات من الكلمات الأجنبية والتراكيب الأعجمية بحجة أن طبيعة العصر قد تستلزم ذلك وان سيل الحضارة يتدفق بمعاني المخترعات والمبتكرات وهو امر يكرب كل غيور على اللغة العربية وتغشى فيه النفس.

ولا عجب فقد بلغ بنا الضعف في لغتنا أن نجد في الألفاظ الأعجمية أنساً ووجاهة وشعورا بالابتهاج اكثر مما نجد في الألفاظ العربية وأن كثيرا من أبناء اللغة العربية لا يحفلون بلغتهم ونجد أن حماسهم لها قد فتر وصلتهم بها ضعيفة ومتراخية.. ولعل ذلك يعود الى أن البعض منهم قد درس بلغات اجنبية فأصبحت الهوة بعيدة بينه وبين لغته العربية.

والسؤال الذي يجب ان نطرحه على أنفسنا.. لماذا هانت لغتنا علينا؟ ما دمنا نحرص على تاريخنا وشخصيتنا المتميزة؟.

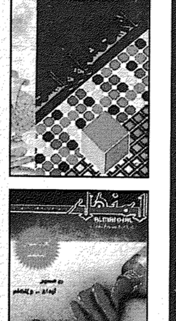
فاللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة والحضارة الاسلامية المفعمة بالقيم والمبادىء السامية التى تحقق للانسان السعادة في دنياه وآخرته وهي جديرة من أبنائها بالحفاظ عليها ونشرها بوسائل مختلفة في العالم.. وان اضاعة اللغة إضاعة للذات.. لقد صمدت اللغة العربية عبر القرون الطويلة بفضل قوتها وانفتاحها على الحضارات والثقافات، ودور المثقفين اليوم كبير في الرقي والاهتمام باللغة العربية انطلاقا من مسؤوليتهم الفكرية تجاه لغتهم والحفاظ على هذا اللسان العربي المبين وعلينا ان ندرك جميعا مسؤوليتنا تجاه لغتنا حتى لا تندب اللغة العربية حظها على لسان شاعرها:

أيهجرني قومي عفا الله عنهم
الى لغة لم تتصل بحياتي

المنهل

مجلة العرب

الأدبية الثقافية





اسم العدد	تاريخ صدوره
الفن	شعبان ورمضان ١٤٠٤هـ
الأمن والأمان	شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ
الهجرة، اللغة، التراث، الحضارة	ربيع الأول والثاني ١٤٠٦هـ
الثقافة العربية	شعبان ورمضان ١٤٠٦هـ
الدعوة والدعاة	ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٧هـ
الأثر والآثار	رمضان وشوال ١٤٠٧هـ
المبادىء البناءة والدعاوى الهدامة	ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٨هـ
العادات والتقاليد	رمضان وشوال ١٤٠٨هـ
مناهل الاشعاع الاسلامي	ربيع الثاني وجمادى الاولى ١٤٠٩هـ
الاستشراق والمستشرقون	رمضان وشوال ١٤٠٩هـ
مكة المكرمة .. المقام والارتحال	ربيع الأول والثاني ١٤١٠هـ
الابداع والمبدعون	شوال وذو القعدة ١٤١٠هـ
الحديث النبوي والقدسي .. رواية ودرايه	ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٤١١هـ
القرآن الكريم .. الهدى والاعجاز	ربيع الأول والثاني ١٤١٢هـ
الهجمة الفكرية والتصدي الحضاري	شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ
المدينة المنورة .. دار الهجرة ومَأْرِز الايمان	ربيع الأول والثاني ١٤١٣هـ
اللغة العربية .. آفاق مستقبلية	شوال وذو القعدة ١٤١٣هـ
القدس .. عروس المدائن	ربيع الاول والثاني ١٤١٤هـ
العمارة والمدينة الاسلامية .. عطاء ومدلول	جماد أول وجماد ثان ١٤١٥هـ
النقد .. والنقاد	شوال والقعده ١٤١٦هـ
الجغرافية والجغرافيون	شوال والقعده ١٤١٧هـ
المملكة العربية السعودية فى مرآة المنهل	شوال والقعدة ١٤١٩هـ
الاسرة والمجتمع	شوال والقعدة ١٤٢٠هـ
التراث المعماري في الحضارة الإسلامية	شوال والقعدة ١٤٢١هـ
الاعلام .. الواقع والمستقبل	شوال والقعدة ١٤٢٢هـ
البيئة .. توازن ام اختلال	شوال والقعدة ١٤٢٣هـ

الاصدارات السنوية الخاصة

« متوفرة لمن يرغب فى اقتنائها » - الاتصال : ٦٤٣٢١٢٤ العلاقات العامة (جُدة)